# ASSASSIN'S CREED

# عقيدة الحشاشين

## الحملة السرية






أوليفر بودين

ترجمة: هند عادل





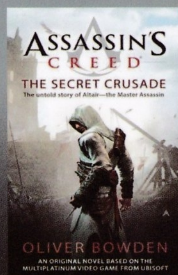




# ASSASSIN'S CREED
# عقيدة الحشاشين
## الحملة السرية

سيكشف الرحالة نيكولو بولو، والد الرحالة ماركو بولو، أخيرًا عن القصة التي أبقاها سرًّا طوال حياته. قصة حياة الطائر، أحد أشهر حشاشي الأخوية.

ينطلق الطائر في مهمةٍ مصيرية، تقوده عبر الأراضي المقدسة وتُريه جوهر عقيدة الحشاشين. ولإثبات التزامه، يجب على الطائر هزيمة تسعة أعداء فتاكين، بما فيهم زعيم فرسان الهيكل، روبرت دي سابل.




حياة الطائر تُروى لأول مرة. إنها رواية عن رحلة ستغير مجرى التاريخ، وعن معركة متواصلة ضد مؤامرات فرسان الهيكل. عن حياة عائلة مأسوية وصادمة، وعن خيانة صديق قديم.

غلاف: محمود هشام









www.aseeralkotb.com
contact@aseeralkotb.com
aseeralkotb
aseeralkotb
aseeralkotb

# ASSASSIN'S CREED

# عقيدة الحشاشين

## الحملة السرية



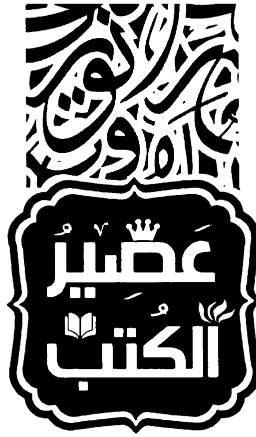



telegram @
yasmeenbook

أوليفر بودين

ترجمة: هند عادل









telegram @
yasmeenbook

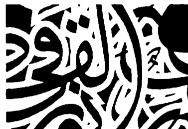

- العنوان الأصلي:
Assassin's Creed: The Secret Crusade
- العنوان العربي:
عقيدة الحشاشين: الحملة السرية


- حُقوق النشر:
copyright © by 2011 Ubisoft Etertainment


- الطبعة الأولى: يناير/2025م


- حقوق الترجمة: محفوظة لدار عصير الكتب


- تأليف: أوليفر بودين
- ترجمة: هند عادل
- تحرير: أحمد حسين
- تنسيق داخلي: معتز حسنين علي
- رقم الإيداع: 26909/2024م
- الترقيم الدولي: 978-977-6972-77-3

# مقدمة

telegram @yasmeenbook

أطلقت السفينة المهيبة صريرًا وزمجرة بينما انتفخت أشرعتها بالرياح. أصبحت على بُعد أيامٍ من اليابسة، وشقَّت المحيط نحو المدينة العظيمة في الغرب وعلى متنها حمولة ثمينة؛ رجل يعرفه الطاقم بلقب المعلم.

خرج إلى سطح السفينة بينهم، ووقف وحيدًا في المقدمة، وخفض قلنسوة ردائه حتى يشعر برذاذ البحر ويتذوقه بينما تهب الرياح على وجهه. كان يفعل هذا مرة في اليوم. يخرج من مقصورته ليسير على سطح السفينة ويختار بقعة يقف فيها ويحدق إلى البحر، ثم يعود للأسفل. أحيانًا يقف في المقدمة، وأحيانًا في المؤخرة. دائمًا يحدق إلى البحر الأبيض اللامع.

كل يوم يشاهده الطاقم. يختلسون النظر إلى الرجل المنعزل الذي يبدو عليه التفكير، بينما يعملون وينادون بعضهم بعضًا وهم على سطح السفينة أو متعلقون بحبال الأشرعة. يتساءلون عن طبيعة هذا الرجل. أي رجلٍ هذا الذي يعيش وسطهم؟

تفحَّصوه بفضول بينما يبتعد عن حاجز السفينة ويرفع قلنسوته مجددًا. وقف مكانه للحظةٍ بينما يخفض رأسه ويُدلِّي ذراعيه إلى جانبيه. أخذ الطاقم يشاهده، وربما شحب بعضهم لمرآه وهو يسير على سطح السفينة ويمر بهم عائدًا إلى مقصورته. وحين أغلق الباب خلفه، أدرك الرجال أنهم كانوا يحبسون أنفاسهم.

أما في الداخل، فقد عاد الحشاش إلى مكتبه وجلس ثم صب بعض النبيذ قبل أن يأخذ كتابًا ويسحبه نحوه. ثم يفتحه ويبدأ في القراءة.

# الجزء الأول

# 1




telegram @
yasmeenbook

## 19 يونيو 1257

بقيت أنا ومافيو في قرية مصياف، وسنبقى هناك في الوقت الحالي. على الأقل حتى (كيف أصوغها؟) تستقر بعض الأمور. في الوقت الراهن نبقى تحت إمرة المعلم، الطائر ابن لا أحد. كم هو مثير للحنق أن نسلم أمرنا بهذه الطريقة، خاصةً لقائد الجماعة الذي رغم تقدمه في العمر يحمل كمًّا من الغموض يضاهي مهارته الفذة في حمل سيفه ونصله في شبابه. على الأقل أستفيد من سماع قصصه. أما مافيو فلا يتمتع بهذه الميزة، وقد سئم. هذا مفهوم. مافيو لا يحتمل قرية مصياف. إنه يكره التنقل بين منحدرات حصن الحشاشين والقرية التي يطل عليها، والمنطقة الجبلية لا تروقه. يقول إن الترحال من طبيعة آل بولو. وبعد ستة أشهر هنا صار الترحال مثل امرأة فاتنة تناديه بإغواءٍ وإقناع، ولا يمكنه تجاهلها. إنه يتوق لملء أشرعته بالرياح والانطلاق إلى أراضٍ جديدة مديرًا ظهره إلى مصياف.

قلة صبره مصدر إزعاج يسرني الاستغناء عنه بكل صراحة. الطائر على وشك الإدلاء بتصريحٍ ما. أشعر بهذا.

وهكذا قلت اليوم: «مافيو، سوف أخبرك قصة».

يا لسلوك هذا الرجل! هل نحن أقارب حقًّا؟ بدأت أشك في هذا. فبدلًا من أن يستقبل هذا الخبر بالحماس الذي ينبئ به، كدت أقسم إنني سمعته يزفر (أو ربما عليَّ منحه ميزة الشك وأفترض أنه بالمصادفة انقطعت أنفاسه في تلك اللحظة بسبب حرارة الشمس)، قبل أن يطلب باستياء: «قبل أن تفعل يا نيكولو، هل يمكن أن تخبرني عمَّ تدور هذه القصة؟».

قلت له: «سؤالٌ وجيهٌ يا أخي».

ثم فكرتُ في الأمر بينما نصعد المنحدر الخطر. أطلَّت فوقنا القلعة القابعة بهالتها المظلمة على الجبل كأنها انشقت من تلك الأحجار الجيرية نفسها. قررت اختيار المكان المثالي لسرد قصتي، ولا يوجد مكان أنسب من حصن مصياف. إنها قلعة ضخمة لها عدة أبراج، ومحاطة بأنهارٍ براقة. كما أنها مسؤولة عن القرية الصاخبة أسفلها، وهي مُستعمَرة تقع على بقعةٍ مرتفعة في وادي العاصي. إنها واحة مسالمة. جنة.

أخيرًا قلت: «في رأيي إنها قصة عن المعرفة. كما تعلم، **الحشاشون** يمثلون «الحراس» في العربية. أي إن الحشاشين هم حراس الأسرار. والأسرار التي يحرسونها هي المعرفة. لذلك نعم، إنها عن المعرفة (لا شك أنني بدوت مسرورًا بنفسي وقتها)».

- اعذرني إذًا، فلديَّ موعد.
- حقًّا؟
- بالتأكيد أرحب بأي إلهاء عن دراستي يا نيكولو، ولا أريد المزيد منها.

ابتسمتُ ابتسامة واسعة وقلت: «بالتأكيد سترغب في سماع الحكايات التي أخبرني بها المعلم».

- هذا يعتمد على عدة أمور. فنبرتك تجعل الحكايات أقل تشويقًا. أنت تقول إنني أُفضِّل حكاياتك الدموية، صحيح؟

- نعم.

ابتسم مافيو ابتسامةً خفيفة وقال: «حسنًا، هذا هو ذوقي بالفعل».

- سوف تحصل على مرادك إذًا. فهذه هي حكايات الطائر ابن لا أحد العظيم. هذه قصة حياته يا أخي. صدقني، إنها حافلةٌ بالأحداث. وستسعد كثيرًا حين تلاحظ أنها ملأى بالدماء.

بحلول هذا الوقت كنا قد وصلنا إلى البوابة الحصينة في القسم الخارجي للحصن. مررنا تحت القوس الحجري وعبرنا نقطة الحراسة، ثم تسلقنا مجددًا وصولًا إلى القسم الداخلي للقلعة. أمامنا البرج الذي يضم مسكن الطائر. ظللتُ أزوره هناك لأسابيع. قضيت ساعاتٍ لا تُحصى بجواره وهو مستغرقٌ في حكاياته بينما يشبك يديه ويريح ذراعيه على مسندَي كرسيه العالي، وعيناه العجوزتان شبه مخفيتين تحت قلنسوته. غمرني شعور متزايد أنه يخبرني هذه القصص لغرضٍ ما. كأنه اختارني خصوصًا لسماعها لسببٍ لا أفهمه.

أما في الأوقات التي لا يسرد فيها قصصه، فيسير الطائر بين كتبه وذكرياته. أحيانًا يحدق عبر نافذة بُرجه ساعاتٍ طويلة. سيكون هناك الآن. هكذا فكرت ثم وضعت إبهامي تحت قبعتي ورفعتها قليلًا وظلَّلت على عينيَّ لأنظر إلى الأعلى إلى البرج. لم أرَ شيئًا غير الحجارة التي طلَتها الشمس.

قاطع مافيو أفكاري: «هل لدينا مقابلة معه اليوم؟».

- لا، ليس اليوم.

وأشرت إلى برجٍ عن يميننا وقلت: «سنذهب إلى هناك».

عبس مافيو. إن برج الدفاع كان واحدًا من أعلى نقاط القلعة، والوصول إليه عن طريق مجموعة من السلالم الدوارة، معظمها يبدو في حاجةٍ إلى إصلاح. لكنني صمَّمتُ ودسست قميصي في حزامي وقدت مافيو إلى الطابق الأول فالثاني حتى وصلنا إلى القمة أخيرًا. من هناك نظرنا إلى الريف. أميال وأميال من التضاريس الصخرية. أنهار كالعروق. كتل من المباني. نظرنا إلى مصياف من الحصن، إلى مباني وأسواق القرية الممتدة بالأسفل، وإلى الحظيرة الخشبية في المنطقة الخارجية والإسطبلات.

سأل مافيو: «ما مدى ارتفاعنا؟».

بدا دائخًا قليلًا. لا شك في أنه يشعر بقوة الرياح ومدى بُعد الأرض.

- ما يزيد على مئتين وخمسين قدمًا تقريبًا. هذا الارتفاع كافٍ لجعل الحشاشين بعيدًا عن مرمى سهام العدو، لكنه مناسبٌ لهم ليمطروه بالسهام وغيرها من جانبهم.

أريته الفتحات المحيطة بنا من كل جانبٍ وقلت: «من تلك الفجوات يمكنهم إطلاق الأحجار أو الزيت على عدوهم باستخدام هذه».

ارتفعت منصاتٌ خشبية في الهواء، وتحركنا إلى إحداها بينما نتشبث بالدعائم الرأسية ونميل للأمام في الهواء حتى ننظر إلى الأسفل. يمتد البرج تحتنا مباشرةً على حافة الجرف. وتحتها يقبع النهر اللامع.

خلا وجه مافيو من الدماء، فتراجع ليثبت على أرضية البرج الآمنة. ضحكتُ وفعلت مثله (أراحني هذا سرًّا. فبصراحة، لقد شعرت أنا أيضًا بالدوار والغثيان).

سأل مافيو: «لماذا أحضرتنا إلى هنا بالأعلى؟».

- هنا تبدأ قصتي. بأكثر من طريقة. فمن هنا رأى المراقب قوات الغزاة لأول مرة.

- قوات الغزاة؟

- نعم. جيش صلاح الدين. جاء ليحاصر مصياف ويهزم الحشاشين. حدث هذا منذ ثمانين عامًا، في يومٍ مشرق من شهر أغسطس. مثل هذا تمامًا.

# 2

أولًا، رأى المراقب الطيور.

هناك جيشٌ يتحرك، وقد جذب إليه الحيوانات النابشة. معظمها من ذوات الأجنحة التي تتهافت على ما يتركه خلفه من طعام وفضلات وجثث، سواء لأحصنة أو بشر. بعد ذلك رأى سحابة الغبار. ثم بقعة ضخمة داكنة ظهرت في الأفق وهي تتقدم زاحفةً ببطء وتبتلع كل شيء على مرمى البصر. إنه جيشٌ يكتسح ويمزق ويحطم ما في الأفق. وحش ضخم وجائع يدمر كل ما بطريقه. ويدرك صلاح الدين جيدًا أن مرآه كافٍ لإجبار أي عدو على الاستسلام.

لكن ليس هذه المرة. ليس وأعداؤه هم الحشاشون.

فلأجل هذه الحملة، حشد القائد العربي قوة متوسطة من عشرة آلاف جندي ما بين مشاة وخيالة وأتباع. وقد قرر سحق الحشاشين الذين حاولوا اغتياله مرتين، وبالتأكيد لن يفشلوا في الثالثة. وهكذا نوى أن يأخذ الحرب إلى أعتابهم، فقاد جيشه عبر جبال النصيرية وإلى قلاع الحشاشين التسع هناك.

وصلت مراسيل إلى مصياف تُبلغ بنهب رجال صلاح الدين الريف، لكن لم تسقط أي حصونٍ بعد. وأنبأت بأن صلاح الدين في طريقه إلى مصياف بنيَّة غزوها وقتل قائد الحشاشين، المعلم.

كان صلاح الدين قائدًا ذكيًّا وعاقلًا، لكن الحشاشين أثاروا غضبه وخوفه. وفقًا للتقارير، كان خاله شهاب الدين ينصحه بعقد معاهدة سلام. اعتمد منطق شهاب على جعل الحشاشين في صفهم وليس ضدهم. لكن السلطان المنتقم لم يقتنع وقاد جيشه للزحف على مصياف في يوم مشرق من شهر أغسطس لعام 1176. رأى مراقب في برج دفاعات القلعة أسراب الطيور وسُحب الغبار الضخمة والسيل الأسود الذي يلوح في الأفق، فرفع البوق إلى شفتيه وأطلق صفارات الإنذار.

بدؤوا بتجميع الإمدادات، وانتقل سكان القرية للاحتماء في القلعة. تدافعوا إلى ساحاتها بوجوهٍ يعلوها الخوف، لكن الكثير منهم بدأ بنصب أكشاك لمزاولة البيع. أما الحشاشون فبدؤوا بتحصين القلعة والاستعداد لمواجهة الجيش بينما يشاهدون ذلك السيل يكتسح المنظر الأخضر الجميل، كأن الوحش الضخم يلتهم الأرض ويحتل الأفق.

سمعوا أصوات الأبواق والطبول والصنوج. قريبًا سيتبينون هيئة أفراد الجيش وهم يتجسدون وسط ضباب الحرارة. رأوا الآلاف؛ المشاة وحاملي الرماح والحراب والرماة. مزيجٌ من الأرمن والنوبيين والعرب. رأوا خيالة من العرب والترك والمماليك يحملون سيوفًا عربية مُقوسة وقضبانًا شائكة ورماحًا وسيوفًا طويلة. بعضهم يرتدي دروعًا معدنية، وبعضهم يرتدي دروعًا جلدية. رأوا محفَّات عليها السيدات النبيلات، ورجالَ الدين، والأتباع الذين يسيرون في المؤخرة بغير نظام؛ عائلات وأطفالًا وعبيدًا. شاهدوا المحاربين الغزاة يصلون إلى أطراف القرية، ويشعلونها نارًا، وكذلك الإسطبلات. ما زالت أصوات الأبواق والصنوج مستمرة. بدأت نساء القرية ينتحبن داخل القلعة. لقد توقعن أن تلتهم النيران بيوتهن تاليًا، لكن المباني لم تُمَس. توقف الجيش عند القرية، وبدا أنه لا يهتم بالقلعة.

لم يبعثوا رسلًا ولا رسائل، إنما أقاموا معسكرًا وحسب. معظم خيامهم كانت سواء، لكن في المنتصف أقيمت خيام أكبر حجمًا. إنها خيام السلطان العظيم صلاح الدين وأقرب قادته. رفرفت الأعلام المطرزة هناك. تنتهي سواري الخيام بكرات مطلية بالذهب. أما أغطية الخيام فكانت من الحرير الملون.

راجع الحشاشون خططهم في القلعة. هل سيهاجم صلاح الدين الحصن مباشرةً أم سيحاول تجويعهم؟ توصلوا إلى إجابة بحلول الليل. بدأ الجيش المرابض بالعمل على آلات الحصار. ارتفعت النيران في سماء الليل. وصلت أصوات النشر والطرق إلى مسامع الرجال في المتاريس وإلى برج المعلم، حيث يجمع المعلم نخبة الحشاشين.

قال فهيم السيف؛ حشاش محترف: «لقد أتى صلاح الدين إلينا، يجب ألا نضيع هذه الفرصة».

فكَّر المعلم. نظر عبر نافذة برجه مفكرًا في الخيمة الملونة التي يجلس فيها صلاح الدين ليخطط هجومه. كذلك فكر في خطط الحشاشين. تأمل جيش السلطان العظيم وكيف عاث خرابًا في الريف. إنه يعلم يقينًا أن السلطان قادرٌ على حشد جيشٍ أكبر من هذا إن فشلت حملته.

يملك صلاح الدين قوةً لا تُضاهى، لكن الحشاشين يملكون المكر.

قال فهيم: «ستنهار الجيوش العربية بوفاة صلاح الدين».

لكن المعلم هزَّ رأسه نفيًا وقال: «لا أظن. شهاب الدين سيتولى مكانه».

- إنه لا يملك نصف براعة القائد صلاح الدين.

عارض المعلم بحدة: «إذًا سيكون أقل فاعلية في ردع الصليبيين». أحيانًا يمل من أساليب فهيم المندفعة. «هل نريد أن نجد أنفسنا تحت رحمتهم؟ هل نريد أن نكون مجبرين على التحالف معهم ضد السلطان؟ نحن الحشاشون يا فهيم. أمرنا بيدنا، ولا ننتمي إلى أحد».

خيم الصمت على الغرفة الذكية الرائحة.

ثم قال المعلم بعد تفكير: «صلاح الدين يحذَر منا كما نحذر منه. يجب أن نحرص على جعله أكثر حذرًا».

في الصباح التالي دفع العرب مِدَق حصون وبرج حصار أعلى المنحدر الرئيسي. وبينما يطلق الخيالة الرماة من الأتراك سهامهم على القلعة، هاجموا الأسوار الخارجية بآلات الحصار تحت وابلٍ مستمر من أسهم الحشاشين والحجارة والزيت المندفعين من أبراج الدفاع. انضم القرويون إلى المعركة وأخذوا يقذفون العدو بالأحجار من خلف المتاريس ويشعلون القذائف. أما عند البوابة الرئيسية فكان الحشاشون الشجعان يشنون هجماتٍ خاطفة عبر الأبواب الصغيرة، ويقاتلون جنود المشاة الذين يحاولون إحراقهم. انتهى اليوم بالكثير من القتلى من الطرفين. تراجع العرب أسفل التل وأشعلوا النيران عند حلول المساء حتى يصلحوا آلات الحصار ويصنعوا المزيد منها.

في تلك الليلة صدرت جلبة شديدة من المعسكر، وفي الصباح هدموا الخيمة الضخمة الخاصة بالعظيم صلاح الدين. لقد غادر ومعه قوة صغيرة من الحرس.

بعد ذلك بقليل صعد خاله شهاب الدين المنحدر لمخاطبة سيد الحشاشين.

# 3

قال المبعوث: «استقبل جلالة السلطان صلاح الدين رسالتك، ويشكرك جزيلًا عليها. لقد غادر لرعاية شؤونه في مكانٍ آخر، وأعطى أوامره بأن يتولى سعادته شهاب الدين التفاوض معك».

وقف المبعوث بجانب جواد شهاب الدين وهو يكوِّر يده حول فمه وينادي سيد القلعة وجنرالاته المجتمعين في برج الدفاع.

تسلقت قوة صغيرة التل؛ قرابة مئتي رجل ومحفَّة وضعها النوبيون على الأرض، وحارس واحد مع شهاب الدين الذي ظل راكبًا جواده. علا الهدوء وجهه، كأنما لا يكترث بنتيجة المفاوضات. كان يرتدي سروالًا واسعًا أبيض اللون، وصدرية، وحزامًا أحمر ملفوفًا حول خصره. أما في عمامته الضخمة شاهقة البيض فتستقر جوهرة براقة. بالتأكيد تحمل اسمًا لافتًا. هكذا فكر المعلم وهو ينظر إلى الأسفل من قمة البرج. سيبدأ اسمها بكلمة «نجمة» أو «وردة» متبوعة بإضافة. إن العرب يعشقون تسمية حليهم.

نادى المعلم: «فلتبدأ إذًا».

فكر مبتسمًا. (رعاية شؤونه في مكانٍ آخر). عاد بذاكرته بضع ساعات حين أتى حشاش إلى غرفته وأيقظه من نومه واستدعاه إلى قاعة العرش.

قال المعلم وهو يلف رداءه حوله شاعرًا ببرد الصباح: «مرحبًا بك يا عمر».

رد عمر بصوتٍ خفيض ورأسٍ محني: «سيدي».

سأله المعلم: «هل جئت لتبلغني بشأن مهمتك؟».

أشعل المعلم مصباح زيت معلقًا بسلسلة ثم جلس في كرسيه، بينما رقصت الظلال على الأرض.

أومأ عمر. لاحظ المعلم دماء على كُمه وسأله: «هل كانت معلومات مخبرنا صحيحة؟».

- نعم يا سيدي. لقد شققتُ طريقي إلى معسكرهم وتيقنت من صحة معلوماتنا. إن الخيمة الفخمة لم تكن سوى خدعة. أما خيمة صلاح الدين الحقيقية فكانت بالقرب منها، لكنها أقل لفتًا للانتباه.

ابتسم المعلم قائلًا: «ممتاز، ممتاز. وكيف استطعت التعرف عليها؟».

- كانت محمية كما قال جاسوسنا. ومنثور حولها طباشير ورماد حتى تُسمع خطواتي.

- لكنها لم تُسمع، صحيح؟

- نعم يا سيدي. لقد استطعت دخول خيمة السلطان، وتركت الريشة كما أمرت.

- والرسالة؟

- ثبتها بخنجرٍ في فراشه.

- ثم؟

- تسللت خارج الخيمة...

- و؟

حلَّت لحظة صمت قبل أن يجيب الحشاش: «استيقظ السلطان وأطلق الإنذار. بالكاد نجوت بحياتي».

أشار المعلم إلى كُمِّ عمر المخضب بالدماء وسأله: «وهذا؟».

- اضطررت لنحر أحدهم حتى أهرب يا سيدي.

سأله المعلم آملًا: «جندي؟».

هز عمر رأسه بأسفٍ وقال: «كان يرتدي عمامة وصدرية رجلٍ نبيل».

أغمض المعلم عينيه بتعبٍ وحزن وسأله: «ألم يكن هناك خيارٌ آخر؟».

- لقد تصرفت بسرعةٍ يا سيدي.

- لكن هل تكللتْ مهمتك بالنجاح؟

- نعم يا سيدي.

- سوف نرى النتيجة.

النتيجة هي مغادرة صلاح الدين وزيارة شهاب. وقف المعلم شامخًا في برجه وسمح لنفسه بأن يشعر بانتصار الحشاشين وبنجاح خطته. إن رسالتهم حذرت السلطان بأن يغادر حملته ضد الحشاشين وإلا فالخنجر التالي لن يكون في وسادته بل في رجولته. مجرد ترك رسالتهم قد أثبت للسلطان أنه ليس منيعًا حقًّا، وأن قوته العظيمة لا تساوي شيئًا أمام حشاش واحد استطاع تجاوز خدعته وحراسه والتسلل بسهولةٍ إلى خيمته حيث ينام.

وربما كان صلاح الدين مهتمًّا برجولته أكثر من شن حرب استنزاف طويلة ومكلفة ضد عدوٍّ قلما تتصادم مصالحه معه. المهم أنه غادر.

قال المبعوث: «جلالة السلطان صلاح الدين يقبل عرض السلام الذي قدمته».

في برجه تبادل المعلم النظر بتسلية مع عمر الواقف بجواره. وعلى مقربة يقف فهيم بفمٍ جامد لا يبتسم.

سأل المعلم: «هل تضمن لنا مواصلة العمل دون المزيد من العداء ومقاطعة نشاطنا؟».

- ما دامت المصالح لا تتضارب، نعم.

رد المعلم بسرور: «إذًا أقبل عرض جلالته. يمكنك الآن أن تغادر مصياف مع رجالك. وربما تتكرم وتصلح الحظيرة قبل رحيلك».

عند هذه النقطة نظر شهاب بحدةٍ أعلى البرج. وعلى الرغم من الارتفاع الشاهق، رأى المعلم وميضَ الغضب في عينيه. لأن شهاب مال من على جواده ليتحدث مع المبعوث الذي استمع إليه وأومأ، ثم ضم يده حول فمه ليحدث مَن في البرج مجددًا.

- في أثناء توصيل رسالتكم، قُتِل أحد قادة صلاح الدين الموثوقين. جلالته يطلب تعويضًا. يريد رأس الفاعل.

اختفت الابتسامة من على وجه المعلم، وتوتر عمر بجانبه.

حل الصمت، فلم يُسمع إلا صوت الخيول والطيور. صمت الجميع بانتظار رد المعلم.

- يمكنك إخبار السلطان أنني أرفض هذا الطلب.

هز شهاب كتفيه ومال ليتحدث إلى المبعوث الذي خاطب المعلم بدوره.

- يريد سعادته إبلاغك أن الجيش سيبقى في مصياف إلى أن توافق على الطلب. وأن صبرنا أكبر من مخزون مؤونتك. هل ستترك معاهدة السلام تذهب سُدى؟ هل ستترك أهل قريتك ورجالك

يتضورون جوعًا؟ كل هذا مقابل رأس أحد الحشاشين؟ سعادته يأمل أن تكون الإجابة لا.

همس عمر للمعلم: «سأذهب. إنها غلطتي، لذلك يجب أن أدفع الثمن».

تجاهله المعلم وقال للمبعوث: «لن أتخلى عن حياة أحد رجالي».

- يأسف سعادته على قرارك ويطلب منك أن تكون شاهدًا الآن على مسألة بحاجةٍ إلى حل. لقد اكتشفنا جاسوسًا في معسكرنا، ويجب إعدامه.

حبس المعلم أنفاسه بينما يجر العرب الحشاش الجاسوس من على المحفَّة. بعدها وضع نوبيان حجر إعدامٍ على الأرض أمام جواد شهاب.

كان اسم الجاسوس أحمد. لقد تعرض لضربٍ مبرح. رأسه مضروب ومجروح ومخضب بالدماء، وقد تدلَّى على صدره بينما يأخذونه إلى الحجر. جرُّوه على ركبتيه ووضعوه عليه موجهين حلقه للأعلى. تقدم الجلاد. كان تركيًّا يحمل سيفًا فارسيًّا أسنده على الأرض ووضع كلتا يديه على المقبض المزدان بالجواهر. أمسك النوبيان بذراعَي أحمد وهو يزمجر قليلًا. وصلت زمجرته إلى الحشاشين المصدومين في برج الدفاع العالي.

قال المبعوث: «دع رجلك يأخذ مكانه وسوف نصفح عن حياة الجاسوس وسنقبل معاهدة السلام. لو لم يمت، سنبدأ الحصار ويجوع قومك».

فجأة رفع شهاب رأسه ليهتف: «هل تريد أن يتحمل ضميرك الذنب يا عمر ابن لا أحد؟».

حبس الحشاشون أنفاسهم. لقد تحدث أحمد. تحت التعذيب بالطبع، لكنه تحدث.

تهدلت كتفا المعلم.

رجا عمر المعلم وهو يقف بجانبه: «دعني أذهب يا سيدي، أرجوك».

في الأسفل باعد الجلاد بين قدميه متخذًا وضعيته. أمسك السيف بيديه ورفعه فوق رأسه. قاوم أحمد بضعفٍ محاولًا التحرر. صار عنقه مشدودًا مكشوفًا أمام النصل. صمت الجبل كله إلا من أنينه.

نادى شهاب: «إنها فرصتك الأخيرة يا حشاش».

لمع النصل.

توسل عمر: «أرجوك يا سيدي، دعني أذهب».

أومأ المعلم.

هتف عمر: «توقف!»

ثم تقدم على منصة بارزة من البرج وقال: «أنا عمر ابن لا أحد. يجب أن تأخذ حياتي أنا».

تعالت الهتافات بين صفوف العرب. ابتسم شهاب وأومأ. ثم أشار إلى الجلاد الذي تراجع وخفض سيفه مجددًا.

قال شهاب: «حسنًا، تعالَ خذ مكانك على الحجر إذًا».

استدار عمر إلى المعلم الذي رفع رأسه ونظر إليه بعينين محمرتين.

قال عمر: «سيدي، أطلب منك معروفًا أخيرًا. اعتنِ بالطائر. اقبله تلميذًا لك».

أومأ المعلم قائلًا: «بالطبع يا عمر. بالطبع».

تعالت الهمسات في البرج بينما ينزل عمر سلم البرج ثم ينزل المنحدر ويعبر البوابة الحصينة ثم يعبر القوس الحجري نحو البوابة الرئيسية. تقدم حارس البوابة ليفتح الباب الفرعي فيها، فانحنى عمر وعبر.

سمع من خلفه هتافًا «أبي»، وصوت أقدام.

توقف.

- أبي.

سمع الحزن في صوت ابنه فأغمض عينيه بقوة ليمنع دموعه بينما يعبر البوابة التي أغلقها خلفه الحارس.

أزاحوا أحمد عن الحجر وحاول عمر أن ينظر إليه ليُطمئِنه، لكن لم يستطع مبادلته النظر لأنه سُحِب بعيدًا وألقي خارج الباب الفرعي الذي انفتح ليسحبوه إلى الداخل. انغلق الباب وامتدت الأذرع لتُكبل عمر. سحبوه إلى حجر الإعدام وفردوه عليه مثل أحمد. فرد عنقه وشاهد الجلاد واقفًا فوقه، ومن خلفه السماء.

- أبي.

سمع النداء من القلعة بينما ينقض عليه النصل اللامع.

بعد يومين وفي جنح الظلام، غادر أحمد الحصن. وفي الصباح التالي حين عُرِف اختفاء أحمد، تساءل البعض كيف استطاع أن يترك ابنه وحيدًا بعدما توفيت والدته من الحمى منذ عامين. وقال البعض الآخر إن شعور الخزي كان شديدًا عليه حتى اضطر إلى الرحيل.

أما الحقيقة فكانت مختلفة تمامًا.

# 4

## 20 يوليو 1257

استيقظت هذا الصباح على يد مافيو وهو يهز كتفي، وبصراحة ليس برفق. لكن إصراره كان بسبب اهتمامه بقصتي. ينبغي أن أشعر بالامتنان لهذا على الأقل.

سألني: «ثم؟».

- ثم ماذا؟

بدا صوتي ناعسًا لأنني كنت ناعسًا بالفعل.

- ماذا حدث لأحمد؟

- هذا ما اكتشفته في مرحلةٍ لاحقة من القصة يا أخي.

- أخبرني إذًا.

نهضت جالسًا في سريري وفكرتُ قليلًا ثم قلت أخيرًا: «أظن أنه من الأفضل أن أسرد لك القصص بالترتيب نفسه الذي حكاها لي. إن الطائر راوٍ بارع على الرغم من شيخوخته. أظن أنه عليَّ الالتزام بأسلوب سرده. وما حكيته لك بالأمس كان ذروة ما عرفته منه في لقائنا الأول. حدثت تلك الواقعة عندما كان في الحادية عشرة من العمر فقط.

قال مافيو مفكرًا: «إنها بمنزلة صدمة نفسية لأي طفل. وماذا عن والدته؟».

- توفيت في أثناء الولادة.
- أي إن الطائر قد تيتَّم تمامًا في الحادية عشرة؟
- نعم.
- وماذا حدث له؟
- أنت تعرف ماذا حدث. ها هو يجلس في برجه و...
- لا، بل أعني ماذا حدث له تاليًا بالضبط؟
- هذا أيضًا يجب أن ينتظر يا أخي. ففي لقائي التالي مع الطائر قفز بالسرد خمسة عشر عامًا إلى اليوم الذي وجد نفسه فيه يزحف في ظلام سراديبِ الموتى التي ينفذ الماء إليها أسفل بيت المقدس.

كان هذا في عام 1191، بعد مرور أكثر من ثلاث سنوات على فتح صلاح الدين وجيشه لبيت المقدس. وردًّا على هذا صر المسيحيون على أسنانهم وضربوا الأرض بأقدامهم وأغرقوا مواطنيهم بالضرائب لتمويل الحملة الصليبية الثالثة. ومجددًا تقدم الجنود بدروعهم المعدنية إلى الأراضي المقدسة ليحاصروا مدنها.

كان ملك إنجلترا آنذاك هو ريتشارد الملقب بقلب الأسد، وكانت قسوته تضاهي شجاعته. استطاع مؤخرًا أن يعيد احتلال عكا، لكن رغبته الكبرى كانت إعادة الاستيلاء على بيت المقدس نظرًا إلى قداسته. ولا يوجد مكان أشد قداسةً هناك من الحرم الشريف وأطلال هيكل سليمان إلى حيث يتسلل الطائر ومالك وقدير.

تحركوا بسرعةٍ وخلسة وهم يتشبثون بجوانب الأنفاق. أحذيتهم الجلدية بالكاد تثير الرمال. تقدَّمهم الطائر في السير، بينما ظل مالك

وقدير خلفه ببضع خطوات. كانت حواسهم مشحوذة لتنتبه لما حولهم، ونبضهم يتسارع كلما اقتربوا من الهيكل. يرجع عمر تلك السراديب إلى آلاف السنين، وكل يومٍ منها قد ترك أثره عليها. استطاع الطائر أن يرى الرمال والغبار المتساقطة من العوارض الخشبية، أما تحتهم فكانت الأرض ناعمة والرمال رطبة من الماء الذي يقطر بانتظام من الأعلى، يبدو أنه قادمٌ من مجرى مائي قريب. كان الهواء ثقيلًا ومشحونًا برائحة الكبريت القادمة من المشاعل المصطفة على جدران الأنفاق.

كان الطائر أول من سمع القسَّ. بالطبع، فهو القائد، الحشاش المحترف، لذلك مهاراته أفضل وحواسه أشد. توقف ولمس أذنه ثم رفع يده. عندها توقف ثلاثتهم بسكونٍ كالأشباح في الممر. عندما نظر خلفه وجدهما بانتظار أوامره. لمعت عينا قدير بترقب، أما مالك فكان حذرًا وجامدًا.

حبس الثلاثة أنفاسهم، وحولهم الماء يقطر. أرهف الطائر سمعه لتمتمات القسِّ.

إنها التقوى المسيحية المزيفة التي تُخفي خلفها حقيقة فرسان الهيكل.

وضع الطائر يديه خلف ظهره ولوى معصمه ليُخرج نصله، شاعرًا بآلية اندفاعه المألوفة والمتصلة بإصبعه الصغيرة.

لقد اعتنى بنصلِه حتى لا يصدر صوتًا عاليًا عند إطلاقه، كما زامن وقت إطلاقه مع صوت قطرات الماء حتى يضمن كتم صوته.

**قطرة.. قطرة.. صليل.**

مد ذراعيه للأمام والنصل في يده اليسرى يلمع على ضوء المشاعل المتراقص ويعلن تعطشه للدماء.

بعد ذلك ألصق الطائر نفسه بجدار النفق وتحرك للأمام خلسة، ثم مال قليلًا حتى رأى القسَّ راكعًا في النفق. كان يرتدي زِيَّ فرسان الهيكل، وهذا يعني وجود المزيد منهم، غالبًا بين أطلال الهيكل. يبحثون عن كنزهم ولا شك.

تسارعت نبضات قلبه. الأمر كما توقع تمامًا. حتى مع وجود المدينة تحت سيطرة صلاح الدين لن يتوقف أتباع الصليب الأحمر. هم أيضًا لديهم عمل في الهيكل. لكن ما هو؟ قرر الطائر أن يكتشف الأمر، لكن أولًا...

أولًا يجب أن يتولى أمر القس.

انخفض بجسده وتحرك خلف الرجل الراكع الذي يتلو صلاة، غير شاعرٍ باقتراب الموت. نقل وزنه إلى قدمه المتقدمة وحنى ركبته قليلًا، ثم رفع النصل وثنى يده استعدادًا الهجوم.

همس «مالك» من خلفه: «انتظر! لا بدَّ من وجود طريقة أخرى. ليس ضروريًّا أن يموت هذا الرجل».

تجاهله الطائر وأمسك كتف القس بحركةٍ سريعة بيده اليمنى، ورشق النصل في مؤخرة عنقه بيده اليسرى، مستهدفًا النقطة بين جمجمته والفقرة الأولى في عموده الفقري وقاطعًا الحبل الشوكي.

لم يحظَ القسُّ بفرصةٍ للصراخ، فالموت كان فوريًّا. تقريبًا. انتفض جسده وتلوَّى، لكن الطائر ثبته وهو يشعر بالحياة تنساب منه بينما يضع إصبعه على الشريان السباتي. ارتخى الجسد ببطء وأرقده الطائر بصمتٍ على الأرض حيث انتشرت بقعة من الدماء على الرمال.

كان قتلًا سريعًا وصامتًا. لكن بينما يسحب الطائر نصله، لاحظ نظرة مالك إليه والاتهام المطل من عينيه. كل ما استطاع فعله هو كبح

سخريته من ضعف مالك. أما قدير؛ شقيق مالك، فنظر إلى جثة القس بمزيجٍ من الذهول والانبهار.

قال بأنفاسٍ لاهثة: «قتلٌ ممتاز. إن الحظ يساند نصلك».

قال الطائر بفخر: «ليس الحظ، بل المهارة. راقبني عن كثب وربما تتعلم شيئًا».

كان يراقب مالك بدقة وهو يتحدث، ورأى عينَي الحشاش تلمعان بغضب. بالتأكيد يشعر بالغيرة من الاحترام الذي يكنه قدير للطائر.

استدار مالك وقال لأخيه بثقة: «بالتأكيد. سيعلمك كيف تتجاهل كل ما علَّمنا إياه المعلم».

قال الطائر بسخرية: «وكيف كنت ستتصرف أنت؟».

- ما كنت لألفت إلينا الانتباه. ما كنت لأقتل بريئًا.

تنهد الطائر وقال: «لا يهم الوسيلة، بل إنجاز المهمة».

قال مالك: «لكن هذا ليس أسلوبنا...».

قاطعه الطائر بنظرةٍ نارية وقال: «أسلوبي أفضل».

تبادل الرجلان النظر بحدةٍ بضع لحظات. على الرغم من النفق المظلم البارد الرطب، استطاع الطائر أن يرى الإهانة والغضب في عينَي مالك. عليه أن يحذر منه. يبدو أن مالكًا اليافع سيكون عدوه مستقبلًا.

حتى لو كان مالك يخطط للانقلاب على الطائر، فمن الواضح أنه قرر أن الوقت ليس مناسبًا الآن.

قال: «سأتقدم للاستطلاع. حاول ألا تدنس شرفنا أكثر من هذا».

قرر الطائر أن أي عقاب لهذا التمرد يجب أن ينتظر. غادر مالك وتوغَّل في النفق باتجاه الهيكل.

شاهده قدير وهو يغادر ثم استدار إلى الطائر وسأله: «ماذا عن مهمتنا؟ لم يخبرني أخي شيئًا. قال فقط إنه يجب أن أشعر بالفخر لأنني دُعيت».

نظر الطائر إلى الشاب المتحمس وقال: «يعتقد المعلم أن فرسان الهيكل قد وجدوا شيئًا في أطلال الهيكل.

ردد قدير بدهشة: «كنز؟».

- لا أعرف. ما يهمنا هو أن المعلم يعده شيئًا مهمًّا. وإلا ما طلب مني استعادته.

أومأ قدير وانطلق خلف أخيه بإشارةٍ من الطائر، تاركًا إياه وحيدًا في النفق. نظر إلى الأسفل إلى جثة القس وبقعة الدماء التي تغرق الرمال حول رأسه. ربما مالك على حق. كانت هناك طرق أخرى لإسكات القس. ما كان ضروريًّا أن يموت. لكن الطائر قتله لأن...

لأنه يستطيع.

لأنه الطائر ابن لا أحد، والده كان من الحشاشين. إنه أكثرهم مهارة. حشاش محترف.

انطلق مقتربًا من سلسلة حُفر عميقة يغطي بخار الماء قاعها، وقفز بسلاسة إلى أول عارضة ثم هبط وتكور بخفةٍ مثل القط بينما يتنفس بانتظام ويستمتع بقوته ورشاقته.

أخذ يقفز من عارضةٍ إلى أخرى حتى وصل إلى حيث يقف مالك وقدير بانتظاره. لكنه تجاهلهما وركض متجاوزًا إياهما. كان صوت خطواته على الأرض كالهمس، بالكاد يثير الرمال. أمامه سلم طويل تسلقه برشاقةٍ وصمت دون توقف. لم يبطئ إلا حين وصل إلى القمة، فتوقف وأرهف السمع وتشمم الهواء.

ثم رفع رأسه ببطء ليرى غرفةً مرتفعة عن الأرض. وكما توقع، يقف حارس مديرًا ظهره له. كان يرتدي زِيَّ فرسان الهيكل؛ سترة مبطنة وسروال ضيق ودرع من حلقات معدنية، ويعلق سيفًا في حزامه. راقب الطائر الرجل لحظات ودرس وضعيته. كتفاه متهدلتان. جيد. هذا يعني أنه متعب ومشتت. سيكون إسكاته سهلًا.

سحب الطائر نفسه إلى الأرض ببطء، حيث انحنى للحظةٍ وهو ينظم أنفاسه ويراقب فارس الهيكل بدقة قبل أن يتحرك من خلفه. استقام ورفع يديه. اليسرى ترفع نصلًا، واليمنى تستعد لإمساك الحارس وإسكاته.

ثم انقضَّ ولوى معصمه لكي يُطلق النصل الذي اندفع في اللحظة نفسها إلى عنق الحارس، بينما تكتم يده اليمنى صرخته.

وقفا للحظةٍ في عناقٍ مروع، شعر الطائر بآخر صرخات الرجل المكتومة في يده. ثم ارتخى الحارس وأرقده الطائر على الأرض بهدوء وأغمض عينيه. لقد تعرض لعقابٍ قاسٍ على فشله في المراقبة. هكذا فكر الطائر بتجهمٍ بينما ينهض عن الجثة ويتحرك لينضم إلى مالك وقدير وهما يتسللان تحت القوس الذي كان تحت حراسةٍ ضعيفة.

بمجرد عبوره وجدوا أنفسهم في مستوى مرتفع من غرفةٍ واسعة. وقف الطائر لحظاتٍ يستوعب المشهد وقد شعر بانبهارٍ شديد. فهذه هي أطلال هيكل سليمان الأسطوري الذي قيل إن الملك سليمان قد بناه عام 960 قبل الميلاد. لو أن الطائر على حق، فهم الآن ينظرون إلى قاعة الهيكل الكبرى، مكانه المقدس. تقول الكتابات القديمة إن جدران هذا المكان المقدس كانت مغطاة بأشجار الأرز، وتماثيل الملائكة الصغيرة، وأشجار النخيل، وأزهار متفتحة منقوشة بالذهب. لكن الهيكل الآن صار بقايا لما كان عليه. اختفى الخشب المزخرف وتماثيل الملائكة والطلاء

الذهبي. وخمن الطائر أن يكون لفرسان الهيكل يدٌ في هذا. لكن حتى بعد زوال طبقة الطلاء الذهبي، ما زال المكان يشع بالهيبة. وشاهده الطائر بانبهارٍ رغمًا عنه.

أما رفيقاه من خلفه فقد كانا أشد انبهارًا.

قال مالك وهو يشير عبر الغرفة: «هناك. لا بدَّ أنه التابوت».

شهق قدير عندما رآه: «تابوت العهد».

تغلب الطائر على حالة الانبهار ونظر إلى حيث يقف الرجلان مثل تاجرين أحمقين منبهرين بمرأى حليٍّ لامعة. *تابوت العهد*؟

وبَّخهُما قائلًا: «كفى سخافة. لا يوجد شيءٌ كهذا. إنها خرافة».

نظر هناك لكنه لم يكن واثقًا. بالتأكيد يحمل الصندوق كل مواصفات التابوت الأسطوري. كما وصفه الأنبياء دائمًا؛ مطلي كليًّا بالذهب، له غطاء ذهبي مزين بتماثيل الملائكة الصغيرة، وبه حلقات لإدخال العواميد المستخدمة في حمله. كما أن به شيئًا مميزًا. هذا ما شعر به الطائر. شعر بهالةٍ ما تشع منه.

أبعد عينيه عنه بالقوة. فهناك مسائل أكثر أهمية تستدعي اهتمامه، تحديدًا الرجال الذين دخلوا إلى المستوى المنخفض من الغرفة، وأحذيتهم تسحق الأرض التي كانت مغطاة يومًا بألواح من خشب التنوب، لكنها أصبحت الآن أرضية حجرية عارية. بدأ قائد فرسان الهيكل يعوي بأوامره بالفعل.

قال مشيرًا إلى تابوت العهد ولا شك: «أريده أن يعبر البوابة قبل شروق الشمس. كلما أسرعنا في امتلاكه، وجهنا انتباهنا لهؤلاء الأوغاد في مصياف».

كان يتحدث بلكنةٍ فرنسية، وحين دخل دائرة الضوء، رأى الطائر عباءته المميزة. فعرف أنه زعيم فرسان الهيكل.

قال الطائر: «إنه روبرت دي سابل. سوف أقتله».

عارضه مالك بغضب: «لا. أوامرنا هي استرجاع الكنز، والتعامل مع روبرت إن دعت الضرورة وحسب».

سئم الطائر من عصيان مالك المستمر، فعارضه وهمس غاضبًا: «إنه يقف حائلًا بيننا وبين الكنز. وهكذا دعت الضرورة».

حثَّه مالك: «السرية أيها الطائر».

- تعني الجبن. ذلك الرجل هو ألد أعدائنا. ولدينا الآن فرصة للتخلص منه.

جادله مالك: «لقد خالفتَ مبدأين من عقيدتنا بالفعل، والآن تريد مخالفة الثالث. لا تخاطر بالأخوية».

أخيرًا انفعل الطائر وقال: «أنا أفوقك في الرتبة والقدرات. من الأفضل لك ألا تُشكك بي».

بعدها استدار ونزل بسرعة أول سلم إلى شرفة سفلية، ثم إلى الأرض حيث سار بخطى واثقة نحو مجموعة الفرسان.

رأوه قادمًا فاستداروا لمواجهته، أياديهم تقبض على سيوفهم ووجوههم متجهمة. عرف الطائر أنهم سيراقبونه. سيراقبون الحشاش وهو ينزلق على الأرضية نحوهم. وجهه مختفٍ خلف قلنسوته، ورداؤه وحزامه الأحمر يرفرفان حوله. سيفه معلقٌ في حزامه ومقابض سكاكينه تلمع خلف كتفه اليمنى. كان يعرف الخوف الذي سيشعرون به.

وفي المقابل سيراقبهم، ويقيِّم كل رجلٍ في ذهنه. أيهم يبارز بيده اليمنى، وأيهم باليسرى. مَن الأسرع ومَن الأقوى. كما سينتبه بشكلٍ خاص لقائدهم.

كان روبرت دي سابل أضخمهم وأقواهم. أصلع الرأس، وسنوات الخبرة محفورة على وجهه. كل سنة منها كوَّنت سمعته بصفته فارسًا معروفًا، ليس فقط بمهارته في السيف بل أيضًا بقسوته وجبروته. وهذا ما يعرفه الطائر جيدًا. من بين الرجال الموجودين هناك، ذلك الرجل هو الأخطر، لذلك يجب هزيمته أولًا.

سمع مالك وقدير يهبطان من على السلالم، وألقى نظرةً خلفه ليراهما يحذوان حذوه. ابتلع قدير ريقه بتوتر، أما مالك فلمعت عيناه بالمعارضة. توتر فرسان الهيكل لمرأى اثنين آخرين من الحشاشين. لقد توازن عدد الطرفين أكثر الآن. أحاط أربعتهم بدي سابل، وكلٌّ منهم في غاية الحذر. أصبح الهواء خانقًا برائحة الخوف والترقب.

قال الطائر حين اقترب من الفرسان الخمسة: «مهلًا يا فرسان الهيكل».

ثم خاطب دي سابل الذي ارتسمت ابتسامة رفيعة على فمه وتدلت يداه إلى جانبيه. لم يكن مستعدًّا للقتال مثل رفاقه، بل كان مسترخيًا. كأنه لا يهتم بوجود ثلاثة من الحشاشين. سيجعله الطائر يدفع ثمن غطرسته.

- أنت لست الوحيد الذي يقوم بعملٍ هنا.

تفحَّص الرجلان بعضهما بعضًا. حرك الطائر يده اليمنى استعدادًا لسحب سيفه من حزامه. أراد أن يُبقي انتباه دي سابل هناك، في حين أن الموت سيأتيه من اليسار. نعم، هذا ما قرره. سيخدعه باليمين ويقتله بالنصل خلسةً باليسار. سيقتل روبرت دي سابل بالنصل فيهرب رجاله

تاركين الكنز للحشاشين. سيتحدث الجميع عن انتصار الطائر العظيم على زعيم فرسان الهيكل. أما مالك الجبان فسيخرس، وأخوه سينبهر. وعند عودتهم إلى مصياف سيبجل أعضاء الجماعة الطائر. سيكرمه المعلم شخصيًّا، وسينفتح أمامه الطريق ليكون قائد الحشاشين.

نظر الطائر إلى عينَي خصمه. لوى يده اليسرى خلسة ليختبر آلية النصل. إنه مستعد.

سأله سابل بابتسامته اللامبالية: «ماذا تريد؟».

رد الطائر ببساطة: «الدم». ثم هجم.

انقضَّ بسرعةٍ خارقة على دي سابل وأطلق النصل بيسراه بينما يطوح سيفه بيمناه ويضرب بسرعةٍ وفتكٍ كأفعى الكوبرا.

لكن زعيم فرسان الهيكل كان أشد سرعةً ومكرًا مما توقع. أمسك بالحشاش في منتصف هجمته، بسهولةٍ واضحة. حتى إن الطائر توقف باضطراب، وبدا غير قادرٍ على الحراك. أما الصدمة الرهيبة فهي أنه بدا عاجزًا.

في تلك اللحظة أدرك الطائر أنه ارتكب خطأً جسيمًا. في تلك اللحظة أدرك أن المتغطرس ليس دي سابل، وإنما هو. فجأة لم يعد يشعر أنه الطائر، الحشاش المحترف، بل مجرد طفل ضعيف وهش. بل أسوأ، طفل مغرور.

حاول التملص لكنه لم يستطع الحراك. دي سابل يمسكه بإحكام. شعر بطعنة الخزي المؤلمة وهو يفكر في مالك وقدير اللذَين يشاهدانه مهزومًا. تعتصر يد دي سابل عنقه بينما يلهث طلبًا للهواء. اقترب وجه فارس الهيكل منه وفي جبهته عرقٌ ينبض.

- أنت لا تعرف ما الذي تتدخل فيه أيها الحشاش. سأعفو عنك فقط لكي تعود إلى معلمك وتبلغه رسالة. لقد خسر الأراضي المقدسة. فليهرب الآن بينما الفرصة سانحة. إن بقيتم ستموتون جميعًا.

اختنق الطائر وتناثر لعابه. بدأت رؤيته المحيطية تتشوش وكافح لكيلا يفقد الوعي بينما يلويه دي سابل بسهولةٍ كطفلٍ رضيع ثم يلقي به نحو جدار الغرفة. ارتطم الطائر بعنفٍ بالأحجار العتيقة وتحطم الجدار، فعبر جسده إلى الدهليز خلفه. ظل راقدًا على الأرض بصدمةٍ للحظاتٍ، ثم سمع صوت انهيار العوارض وتحطم العواميد الضخمة التي تدعم الغرفة. نظر إلى الأعلى فوجد المدخل إلى الهيكل مسدودًا.

سمع على الجانب الآخر هتافًا. يصيح دي سابل برجاله: «اقتلوا الحشاشين!».

نهض مترنحًا وانطلق إلى الركام محاولًا أن يشق طريقًا عبره. نهش الخزي والعجز في صدره بينما يسمع صرخات مالك وقدير. إنه صراخ الموت. أخيرًا حنى رأسه واستدار ثم بدأ طريقه إلى خارج الهيكل حتى يعود إلى مصياف لكي يبلغ المعلم بالأخبار.

أخبار فشله. الطائر العظيم قد جلب العار لنفسه وللجماعة.

حين خرج من سراديب الهيكل قابله ضوء الشمس وعاد إلى مدينة بيت المقدس التي تعجُّ بالحياة. لكن الطائر لم يشعر بهذه الوحدة من قبل قط.

# 5

وصل الطائر إلى مصياف بعد رحلةٍ مرهقة لخمسة أيامٍ على صهوة جواده. كان لديه الوقت خلالها للتفكير في فشله. وهكذا وصل إلى بوابة مصياف بقلبٍ مثقل، وأدخله الحارس، ثم اتجه بعدها إلى الإسطبلات.

نزل عن جواده وشعر بعضلاته المتيبسة ترتخي أخيرًا. ناول عامل الإسطبل لجام جواده ثم توقف بجانب البئر ليشرب. تذوق قطراتٍ حذرة في البداية ثم تجرعها بنهم وأخيرًا رشها على نفسه وهو يمسح التراب عن وجهه بامتنان. لكنه ما زال يشعر بتعب الرحلة في جسده. شعر بردائه ثقيلًا وقذرًا، وكان يتوق إلى الاستحمام في عيون مصياف المتلألئة، والمخفية في جوف الجبل. كل ما يرغب فيه الآن هو العزلة.

بينما يتجه إلى أطراف القرية، نظر إلى الأعلى متجاوزًا الأكواخ والسوق المكتظ إلى الطرق الملتوية التي تقود إلى أسوار حصن الحشاشين. هناك حيث يتدرب أفراد الجماعة ويعيشون تحت إمرة المعلم الذي يقع مقر إقامته وسط الأبراج البيزنطية للقلعة. عادةً يراه الجميع واقفًا خلف نافذته ينظر إلى القرية. القرية نفسها التي تعج بالحياة وتلمع تحت نور الشمس وتكتظ بالأعمال الجارية. القرية التي غادرها الطائر منذ عشرة أيام إلى بيت المقدس مع مالك وقدير، وخطط للعودة إليها بطلًا منتصرًا.

لم يتخيل الفشل قط، ولا حتى في أسوأ كوابيسه، ومع ذلك فشل.

حيَّاه حشاش وهو يعبر السوق السابح في نور الشمس. تمالك نفسه وفرد كتفيه ورفع رأسه محاولًا استحضار شخصية الحشاش العظيم الذي غادر مصياف، بدلًا من هذا الأحمق الذي عاد خالي الوفاض.

إنه رؤوف. وقع قلب الطائر في قدميه أكثر، إن كان هذا ممكنًا أصلًا. من بين كل الأشخاص الذين كان يمكنهم استقباله، لم يجد إلا رؤوفًا الذي يبجل الطائر إلى حد العبادة. بدا الشاب كأنه كان بانتظاره. وقف يضيع الوقت بجوار نافورة مسورة. اتجه إليه بعينين متسعتين من اللهفة، غير عالمٍ بالفشل الذريع الذي يشعر به الطائر تجاه نفسه.

بدا مسرورًا كجروٍ صغير وقال بسعادةٍ بالغة: «الطائر، لقد عدت».

أومأ الطائر ببطء. شاهد خلف رؤوف تاجرًا مسنًّا ينعش نفسه بماء النافورة، ثم يحيي امرأة أصغر سنًّا وصلت حاملةً جرة مزينة بأشكال غزلان. وضعتها على السور القصير المحيط بفتحة المياه، وبدآ يتحدثان. كانت المرأة تتحدث بحماس وهي تومئ برأسها. حسدهما الطائر. كليهما.

واصل رؤوف: «تسعدني رؤيتك سليمًا معافى. بالتأكيد نجحت في مهمتك، صحيح؟».

تجاهل الطائر سؤاله وهو ما زال يشاهد هذين الاثنين عند النافورة، لأنه لم يستطع النظر في عينَي رؤوف. أخيرًا أشاح بنظره بصعوبةٍ وسأله: «هل المعلم في برجه؟».

نظر رؤوف إليه بتساؤلٍ كأنه يفكر ما مشكلته، ورد: «نعم، نعم. غارقٌ وسط كتبه كالعادة. إنه ينتظرك بالتأكيد».

- شكرًا يا أخي.

وهكذا ترك رؤوف وأهل القرية الذين يثرثرون بجوار النافورة، وبدأ يشق طريقه متجاوزًا الأكشاك وعربات القش والمقاعد وسار على الرصيف حتى بدأت الأرض الترابية الجافة تميل للأعلى بحدة، ولمع العشب الجاف تحت أشعة الشمس. كل الطرق تؤدي إلى القلعة.

لم يشعر قط بضآلته تحت ظلها مثلما شعر اليوم. ضم قبضتيه لا إراديًّا وهو يعبر الهضبة ويتلقى تحية الحراس عند الحصن. أياديهم متحفزة على مقابض سيوفهم، وأعينهم يقظة.

وصل إلى القوس الحجري الضخم الذي يقود إلى البوابة الحصينة، فعاد قلبه يغوص في صدره عندما رأى شخصًا يعرفه جيدًا؛ عباس.

وقف عباس تحت مشعلٍ يبدد الظلام البسيط تحت ظل القوس. كان يتكئ على الحجارة الداكنة الخشنة. وقف كاشفًا رأسه وشابكًا ذراعيه، وسيفه معلق في حزامه. توقف الطائر، وللحظةٍ نظر الرجلان بعضهما إلى بعض بينما يسير القرويون حولهما غير عالمين بالعداوة القديمة المتقدة دائمًا بين هذين الحشاشَين. في الماضي كانا كالأخوين. لكن هذا منذ زمنٍ طويل.

ابتسم عباس ببطءٍ وسخرية، وقال: «لقد عاد أخيرًا». ثم نظر خلف الطائر وسأله: «أين الآخرون؟ هل سبقتهما لكي تكون أول الواصلين؟ أعلم أنك لا تحب مشاركة المجد مع غيرك».

لم يرد الطائر.

أضاف عباس: «الصمت نوعٌ من الإيجاب».

ما زال يحاول استفزازه بكل المكر الذي يتصف به شاب مراهق.

زفر الطائر قائلًا: «أليس لديك ما تفعله؟».

قال عباس: «أحمل رسالة من المعلم. إنه ينتظرك في المكتبة». ثم أشار إلى الطائر لكي يواصل السير وأضاف: «من الأفضل أن تسرع. فأنت متشوق لتملقه بالتأكيد».

قال الطائر: «كلمة أخرى وسأغرس نصلي في عنقك».

رد عباس: «سنجد وقتًا لهذا لاحقًا، يا **أخي**».

مر الطائر بجانبه وواصل إلى الفناء ثم ساحة التدريب، بعدها إلى الممر المؤدي إلى برج المعلم. أومأ له الحراس بتحية احترام تليق بحشاش محترف. إنه يعلم يقينًا أنه بمجرد انتشار الأخبار سيتبخر احترامهم تمامًا.

لكن أولًا عليه إبلاغ المعلم بالأخبار المؤسفة. صعد درج البرج نحو غرفة المعلم. كانت دافئة والهواء يعبق برائحة البخور المعتادة. تراقصت ذرات الغبار في بقع الضوء القادم من النافذة الكبيرة في آخر الغرفة حيث يقف المعلم شابكًا يديه خلف ظهره. إنه سيده ومعلمه. الرجل الذي يعظمه الطائر فوق الجميع.

ومع ذلك خذله.

هدل الحمام الزاجل الخاص بالمعلم بخفوتٍ في قفصه، وتراصت الكتب والمخطوطات حول المعلم. آلاف السنوات من أدب الحشاشين وتعاليمهم مرصوصة على الأرفف أو مكدسة في أكوامٍ متربة. رفرفت عباءته الفخمة من حوله، واستقر شعره الطويل على كتفيه، وبدا مفكرًا كعادته.

قال الطائر كاسرًا حاجز الصمت الثقيل وهو يحني رأسه: «سيدي».

استدار المعلم بصمت وذهب إلى مكتبه الذي تفترش اللفافات أرضيته. نظر إلى الطائر بعينٍ حادة وثابتة. اختفى فمه خلف لحيته

الشيباء، ولم يُظهر أي تعابير حتى تحدث أخيرًا إلى تلميذه: «تعال. أخبرني عن مهمتك. بالتأكيد استرجعت كنز فرسان الهيكل، أليس كذلك؟».

شعر الطائر بالعرق يسيل من جبهته إلى وجهه وهو يقول: «وقعت بعض العقبات يا سيدي. روبرت دي سابل لم يكن وحده».

لوح المعلم بيده رافضًا الكلام وقال: «ومنذ متى يسير عملنا حسب المتوقع؟ قدرتنا على التأقلم هي ما تميزنا».

- لكنها لم تكن كافية هذه المرة.

استغرق المعلم لحظات ليستوعب كلمات الطائر. تحرك من خلف مكتبه، وحين تحدث خرج صوته حادًّا: «ماذا تعني؟».

أجبر الطائر نفسه على الكلام قائلًا: «لقد خذلتك».

- والكنز؟

- خسرناه.

تغيرت أجواء الغرفة. أصبحت ثقيلة ومحتدمة، كأن الهواء قد جف. حل صمتٌ قصير قبل أن يتحدث المعلم مجددًا: «وروبرت؟».

- هرب.

- هبطت الكلمة كالحجر في الغرفة المظلمة.

اقترب المعلم من الطائر، ولمعت عينه الواحدة بغضب. بدا من صوته أنه بالكاد يكبح نفسه بينما يملأ غضبه الغرفة: «لقد أرسلتك أنت -أفضل رجالي- لإكمال أهم مهماتنا على الإطلاق، لكنك عدت إليَّ بالأعذار والتبريرات؟».

- لقد...

قاطعه بصوتٍ حاد كالسوط: «لا تتحدث. ولا كلمة أخرى. هذا ليس ما توقعته. سنحتاج إلى تجهيز قوة أخرى لكي...».

- أقسم لك أنني سأجده. سأذهب و...

كان الطائر تواقًا لمواجهة دي سابل. وهذه المرة ستختلف النتيجة تمامًا.

نظر المعلم حوله كأنه تذكر الآن فقط أن الطائر قد غادر مصياف مع رفيقين، فسأله بلهجةٍ آمرة: «أين مالك وقدير؟».

سالت قطرة عرقٍ أخرى على صدغ الطائر وهو يرد: «ماتا».

جاء صوتٌ من خلفهما: «لا، لم أمت».

استدار المعلم والطائر فرأيا شبحًا.

# 6

وقف مالك عند مدخل غرفة المعلم. كان مترنحًا ومجروحًا ومنهكًا ومخضبًا بالدماء. أصبح رداؤه الأبيض ملطخًا بالدماء، يتركز معظمها حول ذراعه اليسرى التي بدت بالغة الإصابة وتتدلى بعجزٍ إلى جانبه وهي مغطاة بطبقةٍ من الدماء المتجلطة الداكنة.

دخل إلى الغرفة بكتفه المتهدلة المصابة، وكان يعرج قليلًا. لكن حتى وإن كان جسده مصابًا، فإن روحه ليست كذلك على الإطلاق. اتقدت عيناه بلهيب الغضب والكراهية. كراهية وجَّهها بحدَّة إلى الطائر الذي بالكاد واجهها دون أن يجفل.

زمجر مالك قائلًا: «**أنا** ما زلت حيًّا، على الأقل».

اشتعلت عيناه الداميتان بغضب وهو ينظر إلى الطائر. أخذ يلهث بأنفاسٍ متقطعة ومتلاحقة، وكان يجز على أسنانه الدامية.

سأله المعلم: «وأخوك؟».

هز مالك رأسه قائلًا: «لقد مات».

للحظةٍ انخفضت عيناه إلى الأرض الحجرية، ثم منحه الغضب دفعة مفاجئة من القوة، فرفع رأسه وضيَّق عينيه ورفع إصبعًا مرتجفةً إلى الطائر وهمس بحدة: «**أنت السبب**».

- ألقى بي روبرت خارج الغرفة. لم يكن هناك سبيل للعودة إليها. لم يكن لديَّ حيلة.

بدت أعذار الطائر واهية حتى لمسامعه، بل خاصةً لمسامعه.

هتف مالك بصوتٍ أجش: «لأنك لم تستمع إلى تحذيري. كان يمكننا تفادي كل هذا. وأخي... أخي كان سيظل حيًّا. غرورك كاد يكلفنا النصر اليوم».

كرر المعلم بحذر: «كاد؟».

أومأ مالك بهدوء وارتسم على شفتيه شبح ابتسامة. ابتسامة كانت موجهة إلى الطائر. أشار إلى حشاش آخر جاء حاملًا صندوقًا على صينية مطلية بالذهب.

قال مالك: «لديَّ ما فشل تلميذك المفضل في إحضاره».

كان صوته هشًّا وضعيفًا، لكن لا شيء سيفسد عليه لحظة انتصاره على الطائر.

شعر الطائر بالعالم ينهار من حوله بينما يضع الحشاش الصينية على مكتب المعلم. كان الصندوق منقوشًا برموزٍ قديمة، ولديه هالة مميزة. وبداخله يستقر الكنز بالطبع. هذا أكيد. الكنز الذي عجز الطائر عن إحضاره.

اتسعت عينا المعلم السليمة ولمعت. افترقت شفتاه وتحرك لسانه. لقد أصيب بالذهول لمرأى الصندوق والتفكير في محتواه. فجأة سمع جلبة من الخارج. صرخات وأقدام تركض وصليل معدني لا تخطئه الأذن.

قال مالك: «يبدو أنني عدت بأكثر من الكنز».

اقتحم مبعوث الغرفة ناسيًا كل مبادئ البروتوكول وهو يهتف لاهثًا: «سيدي، نحن نتعرض لهجوم. روبرت دي سابل يحاصر قرية مصياف».

استيقظ المعلم من أحلام اليقظة راغبًا في مواجهة دي سابل وقال: «يريد حربًا إذًا؟ فليكن. لن أحرمه منها. أخبِر الآخرين. يجب أن يستعد الحصن».

عاد بانتباهه إلى الطائر وبرقت عيناه وهو يقول: «أما أنت أيها الطائر، فسينتظر نقاشنا. يجب أن تدافع عن القرية. دمِّر هؤلاء الغزاة. أخرِجهم من ديارنا».

قال الطائر الذي ارتاح لتغير الأحداث المفاجئ: «سأنهي الأمر».

إنه يفضل الهجوم على القرية عن احتمال التعرض للمزيد من الإذلال. لقد جلب لنفسه الخزي في بيت المقدس. والآن جاءته الفرصة للتعويض.

وثب من المنصة التي خلف غرفة المعلم إلى الأرض الحجرية الملساء واندفع خارج البرج. ركض عبر ساحة التدريب وعبر البوابات الرئيسية بينما يتساءل هل لو قُتِل الآن سيجد المهرب الذي يريده؟ هل ستعد هذه ميتة مناسبة؟ ميتة مشرفة ونبيلة؟

تكفي للتكفير عن خطئه؟

استلَّ سيفه وقد اقتربت منه أصوات المعركة. استطاع أن يرى الحشاشين وفرسان الهيكل يتعاركون على التل عند سفح القلعة، بينما يركض سكان القرية أسفل التل تحت وطأة الهجوم. ورأى الجثث تفترش المنحدر.

فجأة تعرض لهجوم. اندفع نحوه فارس هيكل وهو يزمجر. مال الطائر وترك غرائزه تسيطر عليه. رفع سيفه لمواجهة الصليبي الذي

انقض عليه بسرعةٍ وقوة. ارتطم سيفه العريض بنصل الطائر وارتفع صليل السيوف. لكن الطائر كان مستعدًّا. باعد بين قدميه ووقف بوضعيةٍ مثالية، فلم تزحزحه ضربة فارس الهيكل. أزاح سيف غريمه جانبًا مستغلًّا ثقل السيف العريض ضد الفارس الذي تدلت ذراعه بعجز للحظة استغلها الطائر ليتقدم ويغرس نصله في بطنه.

لقد هاجمه فارس الهيكل واثقًا في قتله بسهولة. مثل القرويين الذين ذُبِحوا. لكنه كان مخطئًا، فالنصل في أحشائه الآن. سعل دمًا واتسعت عيناه بألمٍ ودهشة بينما يرفع الطائر النصل للأعلى قاطعًا جذعه. سقط الفارس وتدلت أحشاؤه على الأرض.

الطائر يقاتل الآن بغلٍّ خالص، ويصب غيظه في ضربات سيفه، كأنه يدفع ثمن ذنوبه بدماء أعدائه. بادله خصمه التالي الضربات محاولًا المقاومة بينما يدفعه الطائر للخلف. تحولت وضعيته فورًا من الهجوم إلى الدفاع ثم إلى الدفاع المستميت. حتى وهو يصد الضربات كان يئن متوقعًا الموت.

راوغ الطائر ودار حتى غرس سيفه في حلْق الصليبي، فانفتح وتناثرت دماؤه على صدره، فصبغت رداءه باللون الأحمر مثل الصليب المرسوم على صدره. وقع على ركبتيه ثم سقط للأمام بينما يندفع جندي آخر نحو الطائر والشمس تلمع على سيفه المرفوع. تنحى الطائر جانبًا ثم دار ودفع سيفه عميقًا في ظهر الرجل حتى تصلب جسده للحظةٍ قبل أن يبرز السيف من درع صدره. انفتح فمه بصرخةٍ صامتة بينما يرميه الطائر أرضًا حتى يستعيد سيفه.

هاجمه جنديان معًا ظنًّا منهما أنهما قد يتغلبان على الطائر بالعدد. لم يضعا في حسابهما غضبه. لم يكن يقاتل ببروده المعتاد، بل بنيران

مستعرة في صدره. نيران محارب لا يبالي بسلامته. إنه أخطر محارب على الإطلاق.

رأى حوله المزيد من جثث القرويين الذين قتلهم فرسان الهيكل، فاشتعل غضبه أكثر وصارت ضربات سيفه أشد وحشية. سقط جنديان آخران ضحية نصله، وتركهما يرتجفان على الأرض. لكن ظهر المزيد من الفرسان، وركض القرويون والحشاشون على حدٍّ سواء أعلى المنحدر، ورأى الطائر عباس يأمرهم بالعودة إلى القلعة.

هتف أحد الفرسان: «ادفعوا الهجوم نحو حصن الهمج». كان يركض أعلى التل نحو الطائر ويلوح بسيفه نحو امرأة تهرب: «دعونا نجلب المعركة إلى أعتاب الحشاشين».

طوح الطائر سيفه إلى رقبة الصليبي الذي خرجت آخر كلمةٍ من فمه مجرد حشرجة.

أتى المزيد من فرسان الهيكل من خلف القرويين الهاربين والحشاشين، وتردد الطائر على المنحدر وهو يتساءل إن كانت هذه معركته الأخيرة، يموت مدافعًا عن قومه ويهرب من سجن العار.

لكن لا. لا شرف في ميتةٍ بلا جدوى. انضم إلى المتراجعين إلى الحصن، ووصل مع لحظة إغلاق البوابة. ثم استدار لينظر إلى منظر المذبحة الجارية في الخارج. تشوه جمال مصياف بالجثث الدامية للقرويين والجنود والحشاشين.

نظر إلى نفسه. تلوث رداؤه بدماء فرسان الهيكل، لكنه لم يتأذَّ.

- **الطائر!**

اخترق الهتاف أفكار الطائر. نادى رؤوف مجددًا: «تعال».

شعر بالتعب فجأة، وسأله: «إلى أين سنذهب؟».

- لدينا مفاجأة لضيوفنا. افعل مثلي وستعرف قريبًا.

أشار رؤوف عاليًا إلى متاريس الأسوار. أدخل الطائر سيفه في غمده وتبعه صعودًا على مجموعة من السلالم إلى قمة البرج حيث يجتمع قادة الحشاشين ومن بينهم المعلم. عبر الغرفة ونظر إلى المعلم الذي تجاهله وبدا فمه متصلبًا. أشار رؤوف إلى ثلاث منصات خشبية تبرز من البرج في الهواء، كأنها ترجوه أن يقف عليها. وهذا ما فعل قبل أن يسحب نفسًا عميقًا ويسير بحذرٍ إلى الحافة.

وقف على قمة مصياف واستطاع أن ينظر إلى الوادي. شعر بالهواء يندفع من حوله، ورفرف رداؤه في الرياح. رأى أسراب الطيور تنزلق وتطفو على تيارات الهواء الدافئة. شعر بجسده يرتخي من الارتفاع، لكن المشهد خطف أنفاسه. تلال الريف المتموجة ذات الخضرة الوفيرة. مياه النهر المتلألئة. الجثث المتناثرة على المنحدرات كالأشواك.

وفرسان الهيكل.

احتشد جيش الغزاة أعلى التل أمام برج المراقبة، بالقرب من بوابات الحصن. يترأسهم روبرت دي سابل الذي تقدم ونظر إلى المتاريس حيث وقف الحشاشون، وخاطب المعلم.

زأر قائلًا: «أعد ما سرقته مني أيها الزنديق!».

الكنز. تذكر الطائر الصندوق على مكتب المعلم. بدا كأنه يلمع.

رد المعلم بصوتٍ تردد صداه في الوادي: «إنه ليس من حقك يا روبرت. ارحل من هنا قبل أن تُجبرني على قتل المزيد من جنودك».

رد دي سابل: «أنت تلعب لعبةً خطِرة».

- أؤكد لك أنها ليست لعبة.

- فليكن إذًا.

لم يرتح الطائر لنبرة صوته. وتأكيدًا على هذا استدار دي سابل إلى أحد رجاله وقال: «أحضر الرهينة».

سحبوا حشاشًا من بين صفوفهم. كان مقيدًا ومكممًا وأخذ يتلوى محاولًا التحرر من قيوده بينما يُزمجر بعنف أمام هذا الحشد. ارتفعت صرخاته المكتومة إلى حيث يقف الطائر على المنصة.

دون المزيد من الكلام، أومأ دي سابل إلى جندي يقف بالقرب منه. جذب الجندي شعر الحشاش ليكشف حلقه فمرر سيفه عليه حتى انشق، بعدها ترك جسده يسقط على العشب.

راقب الحشاشون المشهد بأنفاسٍ محبوسة.

تحرك دي سابل ووقف بجانب الجثة ووضع قدمه على ظهر الرجل الميت وشبك ذراعيه مثل محاربٍ منتصر. انتشرت همهمات الاشمئزاز بين الحشاشين بينما ينادي هو المعلم قائلًا: «باتت قريتك خرابًا، ومخزونك لن يستمر للأبد. كم سيمضي من وقت قبل أن ينهار حصنك من الداخل؟ إلى متى سيحافظ رجالك على انضباطهم بعدما تجف الآبار وينفد الطعام؟».

لم يستطع أن يكبح نبرة التفاخر في صوته.

لكن المعلم رد بهدوء: «لا يخاف رجالي الموت يا روبرت، بل يرحبون به، وبالنعيم المصاحب له».

هتف دي سابل: «جيد. سيحصلون عليه إذًا».

كان محقًّا بالطبع. يستطيع فرسان الهيكل فرض حصارٍ حول مصياف ومنع الحشاشين من الحصول على إمدادات. إلى متى سيصمدون قبل أن يضعفوا لدرجة أن يهاجمهم دي سابل بسهولة؟

أسبوعان؟ شهر؟ تمنى الطائر أن تكون خطة المعلم كافية لإنقاذهم من هذه الورطة القاتلة.

همس له رؤوف من المنصة التي على يساره كأنه قرأ أفكاره: «اتبعني وافعل مثلي بلا تردد».

وقف حشاش ثالث على منصة أخرى. كانوا في زاوية خفية عن دي سابل ورجاله. نظر الطائر إلى الأسفل ورأى أكوام قش موضوعة بأسلوب استراتيجي لتخفيف السقوط. بدأ يفهم فيمَ يفكر رؤوف. سيقفزون خلسة بعيدًا عن أعين فرسان الهيكل. لكن لماذا؟

رفرف رداؤه حول ركبتيه. كان صوت حفيفه مريحًا لأذنه، مثل صوت الأمواج أو المطر. نظر إلى الأسفل ونظم أنفاسه مستجمعًا تركيزه واستدعى سلامه النفسي.

سمع المعلم ودي سابل يتبادلان الكلام لكنه لم ينتبه له، فلقد صبَّ كل تركيزه على القفزة. أغمض عينيه، وشعر بسلامٍ داخلي.

قال رؤوف: «الآن»، ثم قفز وتبعه الحشاش الآخر، وأخيرًا الطائر.

قفز.

توقف الزمن وهو يسقط فاردًا ذراعيه. استرخى جسده وتقوس في الهواء برشاقة. كان يعرف أنه وصل إلى درجة من الكمال، كأنه انفصل عن نفسه. ثم هبط بوضعيةٍ مثالية، وخفف القش من السقوط. وكذلك رؤوف. لكن ليس الحشاش الثالث الذي التوت ساقه عند الاصطدام. صرخ الرجل فورًا بألم، فاندفع إليه رؤوف لإسكاته لكيلا يسمعهم فرسان الهيكل. فلكي تنجح الحيلة، يجب أن يظن الفرسان أنهم قفزوا إلى حتفهم.

استدار رؤوف إلى الطائر وقال: «سأبقى معه لأعتني به. ستضطر إلى التقدم دوننا. تلك الحبال ستقودك إلى الفخ. أطلِقها وأمطِر أعداءنا حتى الموت».

بالطبع فهم الطائر ما يقصده الآن. للحظةٍ تساءل كيف جهز الحشاشون فخًّا دون علمه. ترى كم من أسرارٍ أخرى لا يعرفها عن الأخوية؟ شقَّ طريقه برشاقة متبعًا الحبال بامتداد الصدع ثم دار في الطريق الضيق متجهًا إلى مقدمة الجرف خلف برج المراقبة. تسلقه فورًا بسرعة وبرشاقة شاعرًا بعضلات ذراعيه تغني بينما يتسلق الجدران عاليًا حتى وصل إلى قمة برج المراقبة. وهناك تحت ألواح الطابق العلوي، وجد الفخ جاهزًا للإطلاق. جذوع خشب ثقيلة ومشحمة، مكدسة ومكومة على منصةٍ مائلة.

تحرك إلى الحافة بصمت وهو ينظر إلى صفوف فرسان الهيكل. حشود منهم يديرون ظهورهم إليه. هناك أيضًا الحبال التي تربط الفخ مكانه. سحب سيفه وابتسم لأول مرة منذ أيام.

# 7

اجتمع الحشاشون لاحقًا في الفناء شاعرين بلذة الانتصار. سقطت الجذوع من برج المراقبة إلى الفرسان في الأسفل. معظمهم تحطم تحت الموجة الأولى، والآخرون ارتطموا بالموجة الثانية وتكدسوا خلف مَن سبقوهم. منذ لحظات كانوا واثقين من نصرهم. وفجأة شعروا بأجسادهم تُسحق وأوصالهم تُفصل، وباتت قوتهم كلها في فوضى. أمر روبرت دي سابل رجاله بالتراجع بينما استغل رماة الحشاشين موقعهم المرتفع وأمطروهم بالسهام.

الآن أمر المعلم الحشاشين المجتمعين بالصمت، وأشار إلى الطائر بالانضمام إليه عند الشرفة الخارجية لمدخل برجه. بدت عيناه قاسيتين، وبمجرد أن اتخذ الطائر موضعه، استدعى المعلم حارسين ليحيطا به.

نزل الصمت محل الاحتفال. وقف الطائر وظهره للحشاشين، لكنه شعر بكل العيون تنظر إليه. بحلول هذا الوقت باتوا يعرفون جميعًا ما حدث في بيت المقدس. مالك وعباس كانا سيعملان على هذا. مجهود الطائر في المعركة وإطلاقه للفخ لن يشفعا له الآن. كل ما يمكن أن يتمناه هو أن يرحمه المعلم.

قال المعلم بنبرة فخر: «أحسنت عملًا في إبعاد روبرت عن هنا».

تلك النبرة كانت كافية ليأمل الطائر في أنه قد يسامحه ويغفر أفعاله منذ عملية بيت المقدس.

واصل المعلم: «لقد تحطمت قواته. سيمر وقتٌ طويل قبل أن يزعجنا مجددًا. أخبرني، هل تعلم سبب نجاحك؟».

صمت الطائر بينما يدق قلبه بعنف.

أجاب المعلم ضاغطًا على كلماته: «لقد نجحت لأنك استمعت. لو أنك استمعت في هيكل سليمان أيها الطائر، لكنا تجنبنا كل هذا».

حرك المعلم ذراعه في دائرة تضم الفناء وكل ما خلفه، وقد أزيلت جثث الحشاشين وفرسان الهيكل والقرويين من المكان.

قال الطائر محاولًا اختيار كلماته بحذر: «لقد نفذت الأوامر».

قال المعلم بغضبٍ يلمع في عينيه: «لا! بل نفذت رغباتك. أخبرني مالك عن الغرور الذي أظهرته هناك، وعن تجاهلك أساليبنا».

تقدم الحارسان المحيطان به وأمسكا ذراعيه، فتوترت عضلاته. تصلب جسده لكنه لم يقاومهم.

سأل بحذر: «ماذا تفعلان؟».

تورد وجه المعلم وهو يقول: «لدينا قوانين. لن نساوي شيئًا إن لم نلتزم بعقيدة الحشاشين. ثلاثة مبادئ بسيطة يبدو أنك نسيتها. سوف أذكرك بها. الأول والأهم، أبعد نصلك عن...».

إنها محاضرة إذًا. استرخى الطائر، لكنه لم يستطع أن يكبح نبرة الاستسلام المتذمر في صوته وهو يكمل جملة المعلم: «... عن دم البريء».

ضرب كف المعلم وجه الطائر، وتردد صدى الصفعة بين حجارة الفناء. شعر الطائر بخده يحترق.

زمجر المعلم: «احبس لسانك في فمك حتى أعطيك الإذن باستخدامه. ما دمت تعرف هذا المبدأ، فلماذا قتلت الرجل العجوز داخل الهيكل؟ لقد كان بريئًا، ما كان ضروريًّا أن يموت».

لم يرد الطائر. ماذا يمكنه أن يقول؟ لقد تصرفتُ بتهور؟ قتلتُ الرجل العجوز بدافع الغرور؟

صاح المعلم: «إن وقاحتك بلا حدود. فلتجبر قلبك على التواضع أيها الولد وإلا فأُقسم أن أنتزعه منك بيديَّ هاتين».

صمت قليلًا بينما تتحرك كتفاه صعودًا ونزولًا محاولًا السيطرة على غضبه. ثم واصل: «المبدأ الثاني هو ما يمنحنا القوة. اختبئ وسط الزحام. دع الناس يُخْفوك بحيث تندمج بين الحشود. هل تذكره؟ لأنك -حسبما سمعت- اخترت أن تكشف نفسك وتلفت الانتباه قبل أن تضرب ضربتك».

ما زال الطائر صامتًا. شعر بالخزي ينهش أحشاءه.

أضاف المعلم: «المبدأ الثالث والأخير هو الأسوأ بين خياناتك. لا تكشف الأخوية. ومعناه واضح. يجب ألا تجلب تصرفاتك الخطر إلينا سواء بشكل مباشر أو غير مباشر. مع ذلك فإن أنانيتك أسفل بيت المقدس وضعتنا كلنا في خطر. والأسوأ أنك جلبت العدو إلى أعتابنا. كل رجلٍ فقدناه اليوم فقدناه بسببك».

لم يستطع الطائر النظر في عينَي المعلم. ظل رأسه ينظر جانبًا بألم من صفعة المعلم. لكنه نظر أخيرًا عندما سمع المعلم يسحب خنجره.

قال المعلم: «أنا آسفٌ حقًّا. لكن لا يمكنني مسامحة خائن».

*لا، إلا هذا. ليس ميتة خائن.*

اتسعت عيناه بينما تنظران إلى الخنجر في يد المعلم. اليد التي أرشدته منذ الطفولة. أخيرًا نطق: «أنا لست خائنًا».

رفع المعلم خنجره وقال: «أفعالك تشير إلى العكس. لهذا لم تترك لي خيارًا. ارقد في سلام أيها الطائر».

ثم غرس الخنجر في بطن الطائر.

# 8

وهذا ما كان. للحظاتٍ ثمينة بالفعل شعر الطائر بسلام.

ثم.. ثم استفاق وبدأ يستعيد إدراكه لنفسه وما حوله تدريجيًّا.

إنه واقف. كيف يمكنه أن يقف؟ هل هذا هو الموت؟ الحياة الأخرى؟ هل هو في الجنة؟ إن كانت كذلك، فلماذا تشبه مقر المعلم كثيرًا؟ ليس هذا وحسب، بل إن المعلم نفسه موجود. يقف أمامه ويشاهده بنظرةٍ غامضة.

- أنا حي؟

تحسس بيديه مكان الطعنة في بطنه. توقع أن يجد فجوة ويشعر بالدم السائل. لكن لم يجد شيئًا. لا جرح أو دماء. على الرغم من أنه قد رآه بنفسه، وشعر بالطعنة، وبالألم.

*ألم يفعل؟*

بالكاد قال: «لكنني رأيتك تطعنني. شعرت بالموت يأخذني».

رد المعلم بغموض: «لقد رأيت ما أردتك أن تراه. بعدها نمت كالأموات. كأنك دخلت إلى رحِم بانتظار أن تستيقظ وتولد من جديد».

نفض الطائر الضباب عن رأسه وقال: «بهدف ماذا؟».

- هل تذكر لماذا يقاتل الحشاشون أيها الطائر؟

رد وهو ما زال يحاول أن يفيق: «السلام في كل النواحي».

- نعم. في كل النواحي. ليس كافيًا أن ننهي العنف الذي يرتكبه إنسان ضد إنسان. بل هناك أيضًا السلام الداخلي. لا يمكنك تحقيق واحدٍ دون الآخر.

- هذا ما يقال.

هز المعلم رأسه وتلوَّن وجهه مجددًا بينما يعلو صوته: «بل هذا هو الصحيح. لكنك يا بني لم تجد سلامك الداخلي. وهذا يظهر بأساليب بشعة. أنت مغرور وشديد الثقة. ينقصك الانضباط والحكمة.

- ماذا سيحدث لي إذًا؟

- ينبغي عليَّ قتلك بسبب الألم الذي سببته لنا. يرى مالك أن هذا هو العدل. حياتك مقابل حياة أخيه.

توقف المعلم ليعطي الطائر فرصة لكي يستوعب خطورة اللحظة، ثم قال: «لكن هذا سيكون إهدارًا لوقتي ولمهارتك».

سمح الطائر لنفسه أن يسترخي قليلًا. سوف يُعفى عنه. عندها يمكنه التكفير عن أخطائه.

واصل المعلم: «لقد تم حرمانك من ممتلكاتك، ورتبتك. أنت الآن مبتدئ. عدت طفلًا، كما كنت يوم انضمامك للجماعة أول مرة. أنا أمنحك الفرصة للتكفير عن ذنبك. سوف تعمل على استحقاق مكانتك في الأخوية».

*بالطبع*. «أفترض أن لديك خطة».

قال المعلم: «أولًا، عليك أن تثبت لي أنك تتذكر كيف تكون حشاشًا. حشاشًا حقيقيًّا».

سأله الطائر عالمًا بأن المقابل سيكون أصعب بكثير: «هل ستجعلني أقتل أحدًا إذًا؟».

- لا. ليس بعد على الأقل. فأنت عدت تلميذًا الآن.

- لا داعي لهذا. فأنا حشاش محترف بالفعل.

- بل كنت حشاشًا محترفًا. وكان الآخرون يراقبون الأهداف لأجلك. لكن ليس بعد الآن. من الآن فصاعدًا، ستراقبهم بنفسك.

- إن كانت هذه رغبتك.

- إنها كذلك.

- أخبرني ما عليَّ فعله إذًا.

- معي قائمة تضم تسعة أسماء. تسعة رجال يجب أن يموتوا. إنهم يجلبون الوباء ويشعلون الحروب. قوتهم ونفوذهم يعيثان في الأرض فسادًا، ويحرصان على مواصلة الحملات الصليبية. مهمتك أن تعثر عليهم وتقتلهم. وبفعل هذا ستزرع بذور السلام، للمنطقة ولنفسك. عندها ربما تكفر عن ذنبك.

سحب الطائر نفسًا عميقًا وطويلًا. يمكنه فعل هذا. بل أراد أن يفعله.

قال بحذر: «تسع حيوات مقابل حياتي».

ابتسم المعلم قائلًا: «أظنه عرضًا كريمًا. أي أسئلة؟».

- من أين أبدأ؟

- سافِر إلى دمشق. ابحث عن تاجر سوق سوداء يُدعى تامر. اجعله ضحيتك الأولى.

تحرك المعلم إلى قفص الحمام الزاجل وأخرج واحدة حاملًا إياها برفقٍ بين يديه، وقال: «زُرْ مقر الحشاشين في المدينة حين تصل.

سأرسل إليهم حمامة لإبلاغ الرفيق هناك بوصولك. تحدث معه وستجد لديه الكثير من المعلومات».

فتح يديه فانطلقت الحمامة عبر النافذة كأن أحدهم قذفها.

قال الطائر: «إن كنت تراه مناسبًا».

- نعم. بالإضافة إلى أنك لا تستطيع تنفيذ مهمتك دون موافقته.

عارض الطائر بغضبٍ مفاجئ: «ما هذا الهراء؟ لا أحتاج إلى موافقته. هذا إهدارٌ للوقت».

انفعل المعلم قائلًا: «هذا هو الثمن الذي تدفعه مقابل أخطائك. لن تستجيب لي فقط، بل لكل أعضاء الجماعة الآن».

رد الطائر بعد صمتٍ طويل لإظهار استيائه: «فليكن».

قال المعلم: «اذهب إذًا. أثبت أننا لم نفقدك بعد».

صمت قليلًا ثم مد يده إلى شيءٍ تحت مكتبه وأعطى الطائر إياه قائلًا: «خذه».

أخذ الطائر نصله شاكرًا وربطه بإحكامٍ حول معصمه ولفَّ آلية الإطلاق حول إصبعه الصغيرة. اختبر عمل النصل شاعرًا بأنه عاد حشاشًا مجددًا.

# 9

شقَّ طريقه عبر النخيل والإسطبلات والتجار خارج أسوار المدينة حتى وصل إلى بوابات دمشق الضخمة المهيبة. كان يعرف المدينة جيدًا. إنها الأكبر والأهم في سوريا، كما كانت مقرًّا لاثنين من أهدافه في العام الماضي. ألقى نظرةً على الأسوار المحيطة بها ومتاريسها. استطاع أن يسمع الحياة الجارية في الداخل، كأن صداها يتردد عبر الأحجار.

أولًا، فليشق طريقه للداخل. يعتمد نجاح مهمته على قدرته على التحرك بسرية عبر الشوارع المكتظة. مواجهة الحراس لن تكون أفضل بداية. ترجَّل عن حصانه وأمسك بلجامه وأخذ يدرس البوابات التي يحرسها العرب. سيتوجب عليه إيجاد وسيلةٍ أخرى. لكن القول أسهل من الفعل. فدمشق كانت مشهورة بتأمينها المشدد. نظر إلى أسوارها شاعرًا بضآلته. كانت عالية جدًّا وملساء، فلا يمكن تسلقها من الخارج.

فجأة رأى مجموعة من الباحثين فابتسم. لقد شجع صلاح الدين أهل العلم على زيارة دمشق للتعلُّم، فالمدينة تضم الكثير من المدارس. كما كانوا يتمتعون بامتيازاتٍ خاصة، ومسموح لهم بالتجوال دون عائق. تحرك نحوهم وانضم إليهم متصنعًا وضعية تشع وقارًا. وبوجوده بينهم استطاع تجاوز الحراس بسهولة ودخول المدينة الكبيرة تاركًا الصحراء خلفه.

ظل مطأطئًا رأسه في الداخل وهو يتحرك بسرعةٍ لكن بحذرٍ بين الشوارع حتى وصل إلى مئذنة. ألقى نظرة سريعة حوله قبل أن يقفز إلى موطئ قدم ثم يرفع نفسه ويدس يده بين الأحجار الساخنة ليتسلق عاليًا. شعر بمهاراته القديمة تعود إليه، وإن كان لا يتحرك بالسرعة نفسها التي كان عليها سابقًا. مع ذلك شعر بعودتها. لا، بل باستيقاظها. ومعها عاد شعوره القديم بالانتعاش.

انحنى عندما وصل إلى قمة المئذنة. بدا كطيرٍ جارح يحلق فوق المدينة وينظر حوله. رأى قباب المساجد وحدد مكان المآذن التي تخترق الأفق المكون من الأسطح مختلفة الارتفاع. رأى الأسواق والأفنية والأضرحة، وكذلك البرج الذي يحدد موقع مقر الحشاشين.

مجددًا شعر بالانتعاش يغمره. لقد نسي جمال المدن من هذا الارتفاع. نسي شعوره وهو ينظر إلى الأسفل إليها من أعلى نقطة فيها. في تلك اللحظات يشعر بالحرية.

كان المعلم محقًّا. لسنوات كان الآخرون يحددون للطائر أهدافه. يخبرونه أين يذهب، وتكمن مهمته في القتل فقط. لا أكثر ولا أقل. لم يدرك كم افتقد الإثارة التي تميز كونك حشاشًا. ليس القتل والموت، بل هو شعورٌ بداخلك.

مال للأمام قليلًا ونظر إلى الشوارع الضيقة. كان وقت الصلاة فبدأ الزحام يخف. تفحص المظلات والأسقف بحثًا عن نقطةٍ صالحة لهبوطٍ مخفف، ثم لمح عربة قش. ركز نظره عليها وتنفس بعمق. وقف شاعرًا بالنسيم وسمع صوت الأجراس. بعدها قفز ودار برشاقةٍ ثم هبط على الهدف تمامًا. لم يكن هبوطًا مخففًا تمامًا لكنه أكثر أمانًا من المظلات الضعيفة التي قد تتمزق فتوقعه على الكشك أسفلها. أرهف السمع بانتظار أن يهدأ الشارع، ثم خرج من العربة وبدأ يشق طريقه إلى المقر.

وصل إليه عبر الأسطح، حيث قفز إلى ردهةٍ مظللة تضم نافورة ونباتات تحجب الأصوات من الخارج. بدا كأنه دخل عالمًا مختلفًا. تمالك نفسه ودخل.

كان القائد يستريح خلف مكتب الاستقبال، لكنه نهض بمجرد دخول الطائر وقال: «الطائر، تسعدني رؤيتك، سليمًا».

- وأنا أيضًا يا صديقي.

نظر الطائر إلى الرجل ولم يعجبه ما رآه كثيرًا. فلديه أسلوب فظ وساخر. بالتأكيد أبلغوه بما واجهه الطائر مؤخرًا من.. عقبات. وبالنظر إليه، يبدو أنه يخطط لاستغلال ما لديه من سلطة مؤقتة منحه إياها الموقف.

بالفعل بدأ حديثه التالي بابتسامة ساخرة لم يحاول إخفاءها حقًّا: «تؤسفني مشكلاتك».

- لا عليك.

اصطنع القائد اهتمامًا زائفًا وهو يقول: «جاء بعض إخوتك منذ قليل».

*هكذا عرف كل شيءٍ إذًا.*

واصل القائد ببرود: «لو سمعت ما قالوه، لنحرت أعناقهم فورًا بالتأكيد».

قال الطائر: «لا بأس».

ابتسم القائد ابتسامةً واسعة وقال: «نعم، أنت لم تكن جزءًا من العقيدة قط، أليس كذلك؟».

- هل هذا كل شيء؟

شعر الطائر برغبةٍ في صفع ابتسامته الوقحة عن وجهه. إما هذا أو يستخدم نصله لتكبيرها أكثر.

قال القائد وقد احمرَّ وجهه: «آسف. أحيانًا أنسى نفسي».

استقام قليلًا وقد تذكر مكانته أخيرًا وقال: «ما الذي جاء بك إلى دمشق؟».

قال الطائر: «رجلٌ يدعى تامر. المعلم يعارض عمله، ومهمتي هي القضاء عليه. أخبرني أين أجده».

- سيكون عليك رصده.

عارض الطائر: «لكن هذا النوع من الأعمال ينبغي أن يتولاها...». أوقف نفسه متذكرًا أوامر المعلم. عليه أن يعود مبتدئًا. يجري التحقيقات بنفسه، ويعثر على الهدف، وينفذ القتل. أومأ متقبلًا مهمته.

واصل القائد: «ابحث في المدينة. حدِّد خطط تامر ومكان عمله. الاستعداد يحدد المنتصر».

- حسنًا، لكن ماذا يمكنك أن تخبرني عنه؟
- إنه يجني رزقه من عمله تاجرًا في السوق السوداء. لذلك ينبغي أن تتجه إلى منطقة السوق.
- أفترض أنك تريد مني العودة إليك بعدما أنتهي.
- عُد إليَّ وسأعطيك علامة المعلم. عندها ستعطينا حياة تامر.
- كما تريد.

ارتاح الطائر لمغادرة المقر الخانق، وانطلق عبر الأسطح. استنشق هواء المدينة مجددًا بينما يتوقف لينظر إلى الشارع الضيق في الأسفل. نسيمٌ خفيف يتلاعب بالمظلات. نساءٌ يتحركن حول أكشاك لبيع مصابيح زيت ملمعة، ويتحدثن بصخب. وعلى مقربة يتجادل رجلان. لكن لم يسمع الطائر السبب.

أدار انتباهه للمبنى المقابل وعبر الأسطح. من هناك استطاع رؤية مسجد الباشا وموقع الحدائق ذات التصميم الهندسي في الجنوب. لكن ما يحتاج إلى تحديد مكانه هو...

هناك. سوق السلاح الضخم، حيث يمكنه البدء بالاستعلام عن تامر، وفقًا لكلام قائد المقر. يعرف القائد أكثر مما يكشف بالطبع، لكنه تلقَّى تعليمات مشددة بعدم إخبار الطائر. يتفهم هذا بالطبع، فالمبتدئ عليه التعلم بالطريقة الصعبة.

تراجع خطوتين ثم حرك ذراعيه لينفض عنهما التيبُّس، ثم سحب نفسًا عميقًا وقفز.

وصل إلى الجانب الآخر بأمان، وظل منحنيًا لحظات يستمع إلى الصخب الدائر في الشارع بالأسفل. شاهد مجموعة من الحراس وهم يقودون حمارًا يجر عربةً مائلة من ثقل وزن البراميل الخشبية التي تحملها. هتف الحراس وهم يزيحون المارة من طريقهم: «أفسِحوا الطريق. أفسحوا الطريق. معنا مؤن لقصر الوزير. سيقيم سعادته أبو النقود حفلًا آخر».

كتم المواطنون استياءهم وهم يتنحون جانبًا.

شاهد الطائر الحراس يمرون في الأسفل. سمع اسم أبو النقود، مَن يسمونه شاهبندر التجار في دمشق. قد يكون خاطئًا لكن تلك البراميل الخشبية تبدو كأنها تحمل نبيذًا.

لا يهم، فعمل الطائر في مكانٍ آخر. استقام وانطلق راكضًا من سطحٍ لآخر بلا توقف تقريبًا. شعر بدفعةٍ من الطاقة والقوة مع كل قفزة. لقد عاد لعمل ما يجيده.

بدا السوق من أعلى مثل حفرة فوضوية محشورة بين الأسطح، لذلك كان العثور عليه سهلًا. إنه أكبر مركز تِجاري في دمشق، يقع وسط المنطقة

الفقيرة في المدينة، في الشمال الشرقي، ويحيط به من كل الجهات مبانٍ من الطين والخشب. لذلك تتحول دمشق إلى مستنقع عند هطول المطر. كانت مزيجًا من العربات والأكشاك وطاولات التجار. ارتفعت الروائح إلى أنف الطائر في موقعه العالي. عطور وزيوت وتوابل ومعجنات. يمتلئ المكان بالزبائن والبائعين والتجار الذين يثرثرون أو يتحركون بسرعة بين الزحام. أهل المدينة إما يقفون أو يتحدثون أو يسرعون من مكانٍ لآخر. لا يوجد وسط في هذا المكان على ما يبدو. راقبهم قليلًا قبل أن يتسلق نزولًا من السطح ويندمج وسط الحشود، ويستمع.

يستمع إلى كلمةٍ واحدة.

تامر.

اجتمع ثلاثة تجار في الظل، يتحدثون بخفوت لكن يُحركون أيديهم كثيرًا. هم من قالوا الاسم. اقترب منهم خلسة وأدار ظهره إليهم بينما تتردد كلمات المعلم في عقله. «*لا تتواصل بصريًّا أبدًا. فلتبدُ مشغولًا. كن مسترخيًا*».

- لقد استدعانا لاجتماعٍ آخر.

استمع الطائر إلى كلامهم، لكنه لم يستطع معرفة قائل كل جملة. من الذي يشيرون إليه؟ غالبًا تامر. استمع الطائر وهو يحفظ مكان اللقاء.

- ما الأمر هذه المرة؟ تحذيرٌ آخر؟ أم إعدام آخر؟

- لا. لديه عملٌ لنا.

- مما يعني أننا لن نتلقى أجرًا.

- لقد تجاهل قواعد نقابة التجار. وأصبح يتصرف بحرية.

بدؤوا يتناقشون عن صفقةٍ كبيرة، بل الأضخم على الإطلاق. هذا ما همس به أحدهم قبل أن يصمتوا فجأة. على مقربة وقف منادٍ بلحية

سوداء مُشذَّبة على منصته، وحدق بالتجار بعينين داكنتين مظلمتين، في تحذيرٍ صامت.

اختلس الطائر نظرة من تحت قلنسوته فوجد الرجال الثلاثة قد شحبت وجوههم. ركل أحدهم التراب بصندله، والآخران غادرا كأنهما تذكرا شيئًا مهمًّا فجأة. لقد انتهى اجتماعهم.

قد يكون هذا المنادي أحد رجال تامر. من الواضح أن تاجر السوق السوداء هذا يحكم السوق بقبضةٍ من حديد. تحرك الطائر بينما بدأ المنادي بالكلام وجمع الجمهور.

أعلن بصوتٍ عالٍ: «لا أحد يعرف تامر كما أعرفه. تعالوا واسمعوا القصة التي سأرويها. عن تاجر شهير بلا مثيل».

إنها الحكاية التي يرغب الطائر في سماعها بالتأكيد. اقترب أكثر وهو يتقمص دور المستمع المهتم، بينما تدور الحشود من حوله.

واصل المنادي: «حدثت القصة قبل معركة حطين مباشرةً. أوشكت مؤن العرب على النفاد، وكانوا بحاجةٍ ماسة إلى إمدادات. لكن ما من نجدةٍ في الطريق. في ذلك الحين كان تامر يقود عربة بضائعه ما بين دمشق وبيت المقدس. لكن كان العمل راكدًا في الآونة الأخيرة. بدا أن لا أحد في بيت المقدس يشتهي ما يبيعه من فاكهةٍ وخضروات من المزارع القريبة. وهكذا غادر شمالًا وهو يتساءل عن مصير بضاعته التي سُرعان ما ستفسد بالتأكيد. ولكانت تلك نهاية القصة ونهاية حياة ذلك الرجل المسكين. لكنْ كان للقدر رأيٌ آخر.

بينما يقود تامر عربته شمالًا، مر بقائد العرب ورجاله الجياع. لحسن حظ الطرفين أن كلًّا منهما لديه ما يريده الآخر.

وهكذا أعطى تامر للرجل المؤن. وبعد انتهاء المعركة، أجزل القائد العطاء للتاجر ألف ضعف.

يقول البعض أنه لولا تامر لانقلب رجال صلاح الدين ضده. ربما فاز بهذه المعركة بسبب ذلك الرجل».

انتهى من حديثه وترك الجمهور ينصرف. تنحى عن المنصة وعلى وجهه ابتسامة خبيثة وتوغل في السوق. ربما سيذهب إلى منصةٍ أخرى ليعيد الحديث نفسه مادحًا تامر. تبعه الطائر محافظًا على مسافةٍ آمنة متذكرًا كلام معلمه مجددًا: «*ضع عقبات بينك وبين هدف التتبع. لا تجعله يراك إن نظر خلفه فجأة*».

استمتع الطائر بالمشاعر التي أثارتها فيه هذه المهارات وهي تعود إليه. إنه يحب قدرته على عزل الناس من حوله والتركيز على هدف التتبع. توقف فجأة. فأمامه اصطدم المنادي بامرأة تحمل جرة فتحطمت. بدأت تتشاجر معه ومدت يدها تطلب تعويضًا. لكنه لوى شفتيه بقسوة ورفع يده ليضربها. شعر الطائر بجسده يتوتر، لكن المرأة تراجعت بخوف. زمجر الرجل وأنزل يده وواصل السير وهو يركل قطع الجرة المكسورة. عاد الطائر للتحرك ومر بالمرأة التي جلست على الأرض تنتحب وتسب وهي تمسك شظايا جرتها.

خرج المنادي عن الشوارع الرئيسية وتبعه الطائر. دخلا حارة ضيقة شبه مهجورة، جدرانها الطينية الداكنة تكاد تطبق عليهما. افترض أنه طريق مختصر للمنصة التالية. ألقى الطائر نظرةً خلفه ثم تقدم بضع خطواتٍ سريعة وأمسك كتف المنادي. وأداره وغرس أصابعه أسفل قفصه الصدري.

عندها انقلب المنادي فورًا وتعثَّر بينما يشهق طلبًا للهواء، وأخذ فمه يُفتح ويُغلق مثل سمكةٍ سقطت على الأرض. ألقى الطائر نظرة سريعة ليتأكد من عدم وجود شهود. ثم تقدم ودار على قدمٍ واحدة وركل حلق المنادي.

سقط على ظهره متعثرًا، والتفَّ ثوبه حول ساقيه. رفع يديه إلى حلقه وتدحرج على الأرض. ابتسم الطائر وتحرك للأمام. قال الطائر لنفسه إن الأمر كان سهلًا، سهلًا جـــ...

فجأة تحرك المنادي بسرعةٍ خاطفة، فنهض وركل الطائر في صدره ليرد له الضربة. ترنح الحشاش للخلف متفاجئًا بينما تقدم نحوه الخصم بفمٍ مشدود وقبضة مرفوعة. لمعت عيناه لعلمه أنه ضرب الطائر الذي تفادى لكمته، لكنه سرعان ما أدرك أنها خدعة وتلقى اللكمة الحقيقية بقبضته الأخرى.

كاد الطائر يسقط وهو يتذوق طعم الدماء ويسب نفسه. لقد استخف بخصمه، وهذه غلطة مبتدئ بالفعل. نظر المنادي حوله بلهفة بحثًا عن أفضل مهرب. نفض الطائر الألم عن وجهه وتقدم رافعًا قبضتيه ثم وجَّه لكمة إلى صدغ المنادي قبل أن يتمكن من الهرب. تبادل الاثنان الضربات في الحارة بضع لحظات. كان المنادي أصغر حجمًا وأسرع حركة، ولكم الطائر في أنفه. ترنَّح الحشاش وطرفَ بعينيه مبعدًا الدموع التي شوشت رؤيته. شعر المنادي باقتراب النصر، فتقدم وطوح قبضتيه بلكماتٍ جامحة. لكن الطائر تنحى جانبًا وانخفض ثم أطاح بساقَي المنادي ليختل توازنه ويسقط على الأرض. أخذ يلهث وهو راقدٌ على ظهره. دار الطائر وانقضَّ بركبته بين ساقَي المنادي مباشرةً، وارتاح لسماع صرخات ألمه. ثم وقف وأخذت كتفاه تهتزان بشدة بينما يتمالك نفسه. ظل المنادي يتلوى بصمتٍ في التراب، وفمه مفتوح بصراخٍ صامت بينما يضع يديه بين ساقيه. عندما استطاع أن يشهق ليتنفس، انحنى عليه الطائر وقرَّب وجهه منه.

همس الطائر بشراسة: «يبدو أنك تعرف الكثير عن تامر. أخبرني بخططه».

زمجر المنادي بألم: «لا أعرف سوى القصص التي أحكيها. لا شيء آخر».

غرف الطائر حفنة ترابٍ بيده وترك حباتها تتسرب من بين أصابعه وهو يقول: «خسارة. هذا يعني أنه ليس لديَّ سبب لأتركك تعيش. ليس لديك ما تقدمه في المقابل».

رفع المنادي يدًا مرتجفة وقال: «مهلًا، مهلًا. أعرف شيئًا واحدًا».

- أكمل.

- إنه مشغول مؤخرًا بمتابعة تصنيع الكثير من الأسلحة.

- وما المشكلة؟ إنها لصلاح الدين على الأغلب. هذا لا يساعدني؛ أي لا يساعدك أيضًا.

ثم مد يده إلى الرجل الذي قال: «لا، انتظر، اسمع». دارت عينا المنادي ونزل العرق عن حاجبه: «ليست لصلاح الدين. إنها لشخصٍ آخر. الشعار الذي تحمله هذه الأسئلة مختلف. غير مألوف. يبدو أن تامر يساند طرفًا آخر. لكن لا أعرف من هو».

سأله الطائر: «هل هذا كل شيء؟».




telegram @
yasmeenbook

- نعم، نعم. لقد أخبرتك كل ما أعرفه.

- حان الوقت لترتاح إذًا.

- لا.

أخرس هتافه صوت نصل الطائر في صدر المنادي، وشقَّ رنينه سكون الحارة مثل جرةٍ تتحطم. أمسك الطائر الرجل وهو يحتضر والنصل يثبته. نزف الدم من فمه وزاغت عيناه. قتل سريع ونظيف.

أرقده الطائر على الأرض وأغلق عينيه ثم وقف. سحب النصل إلى مكانه ودفع الجثة خلف كومةٍ من البراميل كريهة الرائحة، ثم استدار وغادر الحارة.

# 10

- الطائر. أهلًا، أهلًا.

ابتسم قائد المقر وهو يسير نحوه. تأمله الطائر للحظةٍ ولاحظ أنه جفل قليلًا تحت نظرته. هل تفوح منه رائحة الموت؟ هل اشتمها فيه قائد المقر؟

- لقد نفذت ما طلبته. أعطني العلامة.

- الأهم فالمهم. أخبرني ما تعرفه.

لقد أزهق روحًا للتو، لذلك لا يضر إن أضاف واحدة أخرى لحصيلة اليوم. كان يتوق ليضع هذا الرجل في مكانه. لكن لا. عليه أن يلعب دوره، مهما بدا سخيفًا.

فكر في التجار الذي يتحدثون همسًا، وفي الرعب الذي اعتلى وجوههم عندما رأوا منادي تامر، وقال: «يحكم تامر سوق السلاح. إنه يجني ثروته من بيع الأسلحة والدروع. ويدعمه الكثيرون في هذا العمل؛ حدادون وتجار وممولون. إنه تاجر الموت الأساسي في البلاد».

أومأ الرجل الآخر الذي يعرف كل هذا بالفعل، وسأله بغطرسة: «وهل لديك وسيلة لتخلصنا من هذا البلاء؟».

- سينعقد اجتماعًا في سوق السلاح لمناقشة صفقةٍ مهمة. يقولون إنها الأكبر في تاريخ تامر. سيكون مشغولًا بعمله، وعندها أضرب ضربتي.

- تبدو خطتك محكمة. أمنحك الإذن.

مد يده تحت مكتبه وأخذ علامة المعلم. وهي ريشة من إحدى طيور المعلم المحبوبة. وضعها على المكتب بينهما وقال: «نفذ أمر المعلم».

أخذ الطائر العلامة وخبأها بحرصٍ في ردائه.

***

بعد شروق الشمس بقليل، غادر المقر متجهًا إلى سوق السلاح. حين وصل إلى السوق بدت كل العيون متجهة إلى ما بدا كمنصة طقوس في المنتصف.

سرعان ما أدرك السبب. فهناك وقف التاجر تامر وخلفه حارسان بدروعٍ لامعة. كان متحكمًا بالساحة، واقفًا أمام رجلٍ يرتجف. كان يرتدي عمامة بنقش مربعات، وثوبًا أنيقًا وأربطة ساقَين. كشف عن أسنانه تحت شاربه الداكن.

دار الطائر حول دائرة الحشود بينما يبقي عينيه على ما يحدث. ترك التجار أكشاكهم وأتوا للمشاهدة. توقف أهل دمشق مؤقتًا بعدما كانوا دائمًا يسارعون إلى وجهاتهم أو ينغمسون في ثرثرتهم.

قال الرجل الذي يرتجف أمام تامر: «لو ألقيت فقط نظرةً على...».

قاطعه «تامر» بغضب: «لا تهمني حساباتك. الأرقام لا تغير شيئًا. لقد فشل رجالك في تلبية الطلب. مما يعني أنني خذلت عميلي».

فكر الطائر: *عميل؟ من قد يكون؟*

ابتلع التاجر ريقه. دارت عيناه بين الحشود بحثًا عن خلاص، لكن لم يجد. وقف حراس السوق بوجوهٍ خالية من التعابير وأعين عمياء بينما يشاهد الجمهور بترقب. اشمأز الطائر منهم جميعًا. من الناس الذين

يشاهدون بصمتٍ وانتظار مثل الطيور القَمَّامة. ومن الحراس الذين لا يفعلون شيئًا. لكن بالأخص من تامر.

توسل التاجر: «نحن بحاجةٍ للمزيد من الوقت».

ربما أدرك أن فرصته الوحيدة تكمن في إقناع تامر بالرحمة.

عاد تاجر السوق السوداء يقول: «هذا عذر الكسالى والعاجزين، فأيهم أنت؟».

رد التاجر وهو يلوح بيديه نفيًا: «ولا أي منهم».

قال تامر: «ما أراه يثبت العكس». رفع قدمه واتكأ على سورٍ قصير وأضاف: «الآن أخبرني، ماذا تنوي أن تفعل لكي تحل مشكلتنا؟ فتلك الأسلحة تحت الطلب الآن».

تلعثم التاجر قائلًا: «لا أرى حلًّا. رجالي يعملون ليلًا ونهارًا. لكن.. عميلك يطلب الكثير. كما أن الوجهة المطلوبة.. طريقها صعب».

ضحك تامر قائلًا: «ليتك كنت تستطيع تصنيع الأسلحة بالمهارة نفسها التي تختلق بها الأعذار».

نظر إلى الحشود الذين ضحكوا ردًّا عليه، بدافع الخوف وليس لفكاهته.

أصر الرجل الأكبر سنًّا: «لقد بذلت ما في وسعي».

أخذ العرق يسيل بغزارة من تحت عمامته، واهتزت لحيته الشيباء.

قال تامر: «لكنه ليس كافيًا».

حاول التاجر معارضته: «ربما أنت مَن يطلب الكثير إذًا».

كانت مجازفة متهورة. اختفت ابتسامة تامر الذي كان يتسلى مع الجمهور، ونظر إلى الرجل العجوز بعينين باردتين ثم قال بصوتٍ يثير الرجفة: «الكثير؟ لقد منحتك كل شيء. لولاي لظللت تعزف الناي

للأفاعي مقابل بعض القطع النقدية. كل ما طلبته في المقابل هو أن تلبي الطلبيات التي أرسلها إليك. وفي النهاية تقول إنني أطلب الكثير؟».

سحب خنجره ولمع نصله. تململ الحشد بتوتر. نظر الطائر إلى الحراس الذين وقفوا عاقدين أذرعهم وسيوفهم في أغمدتها ووجوههم خالية من التعبير. لم يجرؤ أحد في السوق على الحركة، كأنما أصابتهم تعويذة.

خرج صوتٌ خافٍ من حلق التاجر. ركع على ركبتيه شابكًا يديه في تضرع. ارتسم التوسل على وجهه، ولمعت عيناه بالدموع.

نظر تامر إلى هذا المخلوق البائس الراكع أمامه، وبصق عليه. طرف التاجر بعينيه لينفض البصاق.

زمجر تامر: «هل تجرؤ على إهانتي؟».

قال العجوز بخوف: «الرحمة يا تامر. لم أتعمد الإهانة».

زمجر تامر: «كان عليك التزام الصمت إذًا».

رأى الطائر التعطش للدماء في عينيه، وأدرك تمامًا ما سيحدث. بالفعل شق تامر صدر الرجل بطرف خنجره، تاركًا فجوة في ثوبه سرعان ما اصطبغت بالدماء. سقط التاجر على كعبيه مطلقًا صرخة شقت السوق: «لا! توقف!».

قال تامر متهكمًا: «أتوقف؟ لقد بدأت للتو».

تقدم وغرس خنجره عميقًا في بطن الرجل ودفعه على الأرض حيث صرخ كحيوانٍ جريح بينما يطعنه تامر مجددًا وهو يهتف: «لقد أتيت إلى سوقي».

طعنة أخرى: «ووقفت أمام رجالي».

طعنة رابعة. بدا مثل صوت تقطيع اللحم. ما زال الرجل العجوز يصرخ.

- والآن تجرؤ على إهانتي؟

طعنة أخرى. كان يتبع كل كلمة بطعنة: «يجب أن تعرف مقامك».

توقف التاجر عن الصراخ. لم يعد سوى جثة دامية محطمة ملقاة في السوق. تقدم أحد رجال تامر ليزيل الجثة، لكن تامر منعه وهو يلهث: «لا».

مسح لحيته بظهر يده وأضاف: «اتركها». ثم استدار للجمهور وقال: «ليكن هذا درسًا لكم. فكروا مرتين قبل أن تخبروني باستحالة عمل شيء. والآن عودوا للعمل».

تركوا جثة الرجل العجوز مكانها، واقترب كلبٌ فضولي يشمها. عاد الجمهور لمتابعة أشغالهم، وعاد العمل إلى السوق تدريجيًّا. وخلال بضع دقائق بدا كأن شيئًا لم يكن. نسي الجميع الرجل العجوز.

لكن الطائر لم ينسَ. أرخى قبضتيه وسحب نفسًا طويلًا بطيئًا ليتحكم بغضبه. حنى رأسه قليلًا وأخفى عينيه بقلنسوته وتسلل عبر الحشود نحو تامر الذي كان يسير في السوق وخلفه حارساه. اقترب منه الطائر وسمعه يتحدث مع التجار. جميعهم نظروا إليه بأعين واسعة من الرعب، ووافقوا مباشرةً على كل أوامره.

قال تامر لتاجرٍ بعصبية: «لا يمكنني بيع هذا. ذوبه واصنعه مجددًا. ولو خرج بهذه الجودة السيئة مجددًا، سوف أذيبك أنت».

اتسعت عينا التاجر وأخذ يومئ بطاعة.

- لا أفهم ما تفعله طوال اليوم. كشكك ملآن بالبضائع، لذلك ينبغي أن تكون محفظتك ملأى بالنقود. لماذا لا تستطيع بيع هذه

البضاعة؟ هل الأمر صعب؟ ربما لا تبذل جهدًا كافيًا. هل تحتاج تحفيزًا؟

كان التاجر يومئ قبل حتى أن يسمع السؤال، فغيَّر الحركة بسرعة من الإيماء إلى هز الرأس نفيًا بخوفٍ مماثل. واصل تامر التحرك ودارت الحشود حوله. ماذا عن حارسيه؟ هل الآن هي الفرصة المناسبة؟ مع خوف السوق من تامر، أرخى حارساه حذرهما. وقفا خلف كشكٍ آخر يطلبان هدايا من أجل زوجتيهما. تامر لديه دائمًا ضحايا لإرهابهم.

انسلَّ الطائر بينه وحارسيه. توتر قليلًا حين شعر ببعض المقاومة من آلية نصله المتصلة بإصبعه الصغيرة. تامر يدير ظهره إليه الآن وهو يهين تاجرًا آخر.

- أنت من توسلت إليَّ لأجل تلك المكانة. وأقسمت أنه لا أحد يجيد هذا العمل مثلك. عليَّ أن...

تقدم الطائر و.. صليل.. أطلق نصله وهو يحيط تامر بإحدى ذراعيه، بينما يدفع النصل أعمق بالذراع الأخرى.

أصدر تامر صوتًا مختنقًا لكنه لم يصرخ، وتلوى للحظةٍ قبل أن يرتخي جسده. نظر الطائر إلى عينَي التاجر المرعوبتين، ورأى الرجل حائرًا بين الصراخ أو... لكنه أدار ظهره وتحرك بعيدًا.

أرقد الطائر تامر على الأرض بين كشكين ليكون بعيدًا عن نظر حارسيه الغافلين.

ارتجفت عينا تامر.

قال الطائر بهدوء: «ارقد في سلام».

قال تامر وهو يشهق: «سوف تدفع ثمن هذا أيها الحشاش». سال خطٌّ رفيع من الدم من أنفه وهو يضيف: «أنت وكل جماعتك».

- يبدو أنك أنت من يدفع الثمن الآن يا صديقي. لن تتربح من المعاناة بعد الآن.

أطلق تامر ضحكة متحشرجة جوفاء وقال: «هل تظنني تاجر موت أتشبث بالحرب؟ يا لي من هدفٍ غريب!. لمَ أنا بالذات، وهناك الكثيرون يفعلون المثل؟».

سأله الطائر: «هل تظن نفسك مختلفًا؟».

- أنا كذلك بالفعل. فأنا أخدم قضية أكثر نبلًا من الربح المادي. مثل إخوتي.

- إخوتك؟

ضحك تامر بضعفٍ مجددًا وقال: «ها.. تظنني وحيدًا. لستُ سوى قطعة. رجل يلعب دوره. ستعرف الآخرين قريبًا. لن يتغاضوا عن فعلتك».

- جيد. لأنني أتطلع لإنهاء حياتهم أيضًا.

قال تامر: «يا للغرور! سوف يدمرك يا فتى».

ثم مات.

ردد الطائر بهيبة وهو يغلق عينَي الرجل: «يجب أن يموت الناس ليحدث تغيير».

أخرج ريشة المعلم من ردائه ويغمسها بدم تامر. ألقى نظرة على الحارسين ثم غادر مختفيًا بين الحشود. وعندما سمع الصراخ من خلفه كان قد ذاب بينهم كالشبح.

# 11

تامر هو أول الأهداف التسعة. شعر المعلم بالرضا وهو ينظر إلى الريشة المصبوغة بالدم على مكتبه. ومدح الطائر قبل أن يخبره بهدفه التالي.

حنى الطائر رأسه بطاعة وغادر مكتب المعلم. في اليوم التالي جمع مؤنه وانطلق مجددًا، لكن هذه المرة إلى عكا. مدينة يُحكِم الصليبيون قبضتهم عليها مثلما يُحكِم رجال صلاح الدين قبضتهم على دمشق. إنها مدينة دمرتها الحرب.

لقد أخذوا عكا بشق الأنفس. أعاد المسيحيون الاستيلاء عليها بعد حصارٍ طويل ودامٍ استمر عامين. لعب الطائر دوره وساعد بقطع الماء عن المدينة لأن فرسان الهيكل سمموه.

لكن لم يستطع فعل شيءٍ بخصوص التسمم. نشرت الجثث الغارقة في الماء الأمراض بين المسلمين والمسيحيين على حدٍّ سواء داخل وخارج أسوار المدينة. نفدت المؤن ومات الآلاف جوعًا. ثم وصل المزيد من الصليبيين لبناء المزيد من آلات الحصار وأطلقوا نحو الأسوار حتى امتلأت بالفجوات. دافع العرب بقوة لكسب الوقت حتى إصلاح التصدعات. إلى أن أنهك جيش ريتشارد قلب الأسد المسلمين وعرضوا

الاستسلام. عندها استولى الصليبيون على المدينة وأخذوا رجال الحامية رهائن.

بدأت مفاوضات بين صلاح الدين وريتشارد لتحرير الرهائن. ولم يعكر صفوها إلا خلاف بين ريتشارد والفرنسي كونراد دي مونفرا لأنه رفض تسليم الرهائن الذين احتجزتهم القوات الفرنسية.

عاد كونراد إلى مدينة صور، وانطلق ريتشارد نحو يافا حيث ستلتقي قواته بقوات صلاح الدين. وترك ويليام شقيق كونراد مسؤولًا عن المدينة.

أمر ويليام دي مونفرا بقتل أَسرى المسلمين. فقطع رأس ما يقارب ثلاثة آلاف مسلم.

وهكذا وجد الطائر نفسه يتحرى في مدينةٍ دمرتها الأحداث الأخيرة من حصار ومرض ومجاعة وقسوة ومذابح. مدينة ذاق أهلها المعاناة حتى أَلِفوها. تخفي أعينهم البؤس، وتتهدل أكتافهم حزنًا. أما في المناطق الفقيرة، فواجه أسوأ مظاهر المعاناة. أجساد ملفوفة بالقماش ومصفوفة في الشوارع. حالات السكر والعنف تملأ الموانئ. المنطقة الوحيدة التي لا يفوح منها اليأس والموت هي منطقة تمركز الصليبيين في الحي الجنوبي، حيث أقام ريتشارد في قلعته وويليام في جناحه. من هناك أعلن الصليبيون عكا عاصمة لبيت المقدس، واستخدموها لتخزين المؤن قبل أن يتجه ريتشارد بجيشه إلى يافا تاركًا مسؤولية المدينة لويليام. حتى الآن تفاقمت مشكلات المدينة تحت حكمه. وهذا ما ظهر بكل وضوح، وكان يخنق الطائر في أثناء سيره في المدينة. حتى إنه سعد بانتهاء تحرياته وعودته إلى مقر الحشاشين. ها هو القائد جبل يجلس محتضنًا حمامة بلطف. نظر إلى الطائر وهو يدخل.

قال بسرور: «الطائر. أخبرتني العصفورة أنك ستزورني».

ابتسم لدعابته ثم فتح يديه وأطلق الحمامة. لكنها نزلت على المكتب ونفشت ريش صدرها وبدأت تسير ذهابًا وإيابًا كأنها حارس. شاهدها جبل بتسلية، ثم اعتدل في جلسته ليواجه زائره.

- مَن البائس المسكين الذي اختاره المعلم ليتذوق نصلك أيها الطائر؟

- أمرني المعلم بإعدام جارنييه دي نابلس.

قال جبل: «قائد فرسان الإسبتارية؟».

أومأ الطائر ببطءٍ وقال: «نعم. وقد حددت بالفعل متى وكيف سأقتله».

بدا جبل مبهورًا وسأله بنيةٍ طيبة: «شارك معرفتك معي إذًا».

- إنه يعيش ويعمل في المستشفى التابع لجماعته، في الشمال الشرقي من هنا. تدور شائعات كثيرة عن الوحشية التي تجري بين جدرانها.

أومأ جبل بتفكير بينما يخبره الطائر ما يعرفه، وفكر في كلامه جيدًا ثم سأله أخيرًا: «ما هي خطتك؟».

- يقضي جارنييه معظم وقته في جناحه الخاص في المستشفى. من آنٍ لآخر يغادر لتفقد مرضاه. سأهجم بينما يقوم بجولاته التفقدية.

- من الواضح أنك فكرت في الأمر جيدًا. أمنحك الإذن.

أعطاه علامة المعلم وهو يضيف: «نظِّف عكا من قذارته أيها الطائر. ربما يساعدك هذا في تنظيف سجلك».

أخذ الطائر العلامة ونظر إلى جبل بحدة. هل يعرف كل الحشاشين بهذا الخزي؟ ثم غادر عبر أسطح المدينة حتى لمح المستشفى. توقف هناك يلتقط أنفاسه ويستجمع أفكاره وهو ينظر إليها.

أبلغ الطائر جبل بنسخةٍ مُلخصة لما عرفه. لقد أخفى شعوره الخالص بالاشمئزاز عن قائد المقر. عرف أن دي نابلس هو قائد فرسان الإسبتارية. تأسست تلك المنظمة في بيت المقدس بهدف رعاية الحجاج المرضى. ولديهم قاعدة في واحدة من أفقر مناطق عكا.

وفقًا لما عرفه الطائر، فإن دي نابلس كان يفعل أي شيء غير تقديم الرعاية.

في منطقة الإسبتاريين، سمع اثنين من المنظمة يقولون إن قائدهم يبعد المدنيين العاديين عن المستشفى، حتى كاد الناس يرتكبون أعمال شغب. قال أحدهما أنه يخشى تكرار الفضيحة التي وقعت في مدينة صور.

سأله صديقه: «أي فضيحة؟».

مال الرجل على مرافقه ليُنهي كلامه، واضطر الطائر لإرهاف سمعه بشدة: «قال جارنييه ذات مرة إن هذه المدينة هي مسقط رأسه، لكنه نُفي. يقولون إنه أجرى تجارب على سكانها».

بدا الاشمئزاز على وجه مرافقه وهو يسأله: «أي نوع من التجارب؟».

- لا أعرف التفاصيل، لكنني أشعر بالقلق. هل عاد لتجاربه؟ ألهذا يحبس نفسه في حصن الإسبتارية؟

لاحقًا قرأ الطائر لفافة سرقها من أحد مساعدي دي نابلس. تكشف اللفافة أنه ليس لدى ذلك الإسبتاري أي نية في علاج المرضى. يُمَدُّ بعناصر من بيت المقدس ليجري عليهم اختبارات لصالح زعيم مجهول

بهدف إثارة حالات معينة لدى عينات الاختبار. وتامر الذي قتله مؤخرًا، كان مسؤولًا عن تمويل العملية بالأسلحة.

هناك جملة لفتت نظره في الرسالة: «*يجب أن نسعى لنعيد امتلاك ما سُلِب منا*». ما معنى هذا؟ أخذ يفكر بينما يواصل بحثه. سمع أن القائد يسمح للمجانين بالتجوال في أراضي المستشفى، واكتشف مواعيد تغيير ورديات الرماة الذين يغطون الممرات أعلى المستشفى. كما عرف أن دي نابلس يحب الخروج في جولاته دون حارس، وغير مسموح بالدخول إلا للرهبان.

وهكذا بعدما جمع كل المعلومات المطلوبة، زار الطائر جبل ليأخذ علامة المعلم.

# 12

تحرك خارج المبنى الملاصق لحصن الإسبتارية. وكما توقع، رأى حارسًا من الرماة وهو يسير ذهابًا وإيابًا، وبين حينٍ وآخر يلقي نظرة على الساحة بالأسفل، لكنه في الأساس يراقب الأسطح. نظر الطائر إلى الشمس. ابتسم لنفسه وهو يفكر في أنه قد حان الوقت الآن وتأكيدًا لذلك ذهب الرامي إلى أحد السلالم ونزل.

ظل الطائر منخفضًا. قفز من السطح إلى الممر وتدحرج بصمت ثم نظر عبر الحافة إلى الساحة بالأسفل. هناك بئر في المنتصف. مبنية من حجارة ملساء رمادية. لكنها كانت عاريةً من النقوش بخلاف مباني عكا المزينة عادةً. هناك العديد من الحراس الذين يرتدون العباءات السوداء الثقيلة الخاصة بفرسان الإسبتارية، وعلى صدرها صليب أبيض، بالإضافة إلى مجموعة من الرهبان. يتحرك بينهم مَن يبدون مرضى، فقد كانوا حفاة عراة. بؤساء مساكين يتجولون بشرود، بتعابير مبهمة وأعين زائغة.

عبس الطائر. حتى مع عدم حراسة الممر، كان النزول إلى الساحة خلسة مستحيلًا. سار إلى جدار المدخل حتى يستطيع النظر إلى الشارع في الخارج. هناك صخرة بيضتها أشعة الشمس، جلس عليها المرضى وعائلاتهم يتوسلون إلى الحراس ليسمحوا لهم بالدخول. أما

الذين ذهبت عقولهم فكانوا يتجولون بين الحشود ويلوحون بأذرعهم في الهواء بينما يثرثرون بهراءٍ وبذاءات.

وهناك مجموعة من الباحثين، ابتسم الطائر لرؤيتهم. كانوا يتحركون بين الحشد كأنه ليس موجودًا، غافلين عن المعاناة والاضطرابات من حولهم. بدوا ذاهبين في اتجاه المستشفى. استغل الفوضى السائدة ونزل إلى الشارع خلسة ثم انضم إلى مجموعة الباحثين وخفض رأسه ناظرًا إلى قدميه. بين حينٍ وآخر يخاطر باختلاس نظرةٍ سريعة ليتفقد محيطه. وكما توقع، إنهم ذاهبون إلى المستشفى حيث تنحى الحراس جانبًا سامحين لهم بدخول الساحة.

تجعد أنف الطائر. لقد حمل إليه الشارع في الخارج رائحة المدينة، من خبز وعطور وتوابل. أما هنا فاشتمَّ رائحة المعاناة والموت وفضلات البشر. من مكانٍ ما خلف الأبواب المغلقة، جاءت سلسلة من صرخات الألم، أعقبها أنين خافت. بعد ذلك انفتحت الأبواب بعنف وخرج منها مريض اندفع بجنون إلى الساحة.

أخذ يصرخ: «لا! النجدة! ساعدوني!». كان وجهه مجعدًا من الرعب وعيناه متسعتين. «ساعدوني، أرجوكم! يجب أن تساعدوني!».

جاء حارسٌ خلفه. كانت لديه عين مرتخية، كأن عضلات جفنه مقطوعة. أسرع خلف الرجل المجنون الهارب وأمسكه. ثم انضم إليه حارسٌ آخر وبدأ في ضرب المجنون باللكمات والركلات حتى أخضعاه على ركبتيه.

شد الطائر على فمه واعتصر قبضتيه بينما يشاهد الحارسين يضربان الرجل. تحرك مرضى آخرون ليروا المشهد بشكلٍ أوضح. لم تُظهر وجوههم سوى اهتمامٍ بسيط وهم يترنحون قليلًا.

صرخ المجنون بينما تنهال عليه الضربات: «الرحمة! أتوسل إليكم. الرحمة. كفى!».

ثم توقف. نسي ألمه فجأة حين انفتحت أبواب المستشفى، ووقف على أعتابها رجل لا يمكن إلا أن يكون جارنييه دي نابلس.

كان أقصر مما توقع الطائر. حليق. ذو شعرٍ أبيض قصير، وعينين غائرتين، وفم قاسٍ يميل طرفاه للأسفل. مما منحه مظهرًا مريضًا. كان يحمل شعار الإسبتارية الأبيض على ذراعيه ويضع صليبًا حول عنقه. لكن مهما كان الرب الذي يعبده، فمن الواضح أنه تخلى عنه. هذا ما رآه الطائر. كان يرتدي مئزرًا متسخًا ملطخًا بالدماء.

نظر نظرةً مخيفة إلى الرجل المتوسل الذي يمسكه الرجل ذو العين الخاملة والحارس الآخر. رفع ذو العين الخاملة قبضته ليواصل ضربه.

أوقفه دي نابلس آمرًا: «كفى يا صغيري. طلبت منك استعادته لا قتله».

خفض ذو العين الخاملة قبضته على مضض بينما تقدم دي نابلس مقتربًا من الرجل المجنون الذي أطلق أنينًا وتراجع مثل حيوانٍ فزع.

ابتسم دي نابلس واختفت قسوته وهو يخاطب المجنون بنبرةٍ تكاد تكون رقيقة: «لا بأس، لا بأس. كل شيء سيكون على ما يرام. أعطني يدك».

هز المجنون رأسه قائلًا: «لا، لا! لا تلمسني. ليس مجددًا».

عبس دي نابلس كأن كلام الرجل آلمه وقال ببساطة: «انفضَّ عنك الخوف وإلا فلن أستطيع مساعدتك».

- تساعدني؟ مثلما ساعدت الآخرين؟ لقد سلبتَ أرواحهم. لكن ليس روحي. لا. لن تسلب روحي. أبدًا، أبدًا، أبدًا. ليس روحي، ليس روحي، ليس روحي.

تبددت نبرة الرفق من صوت دي نابلس وهو يصفع المجنون قائلًا: «تمالك نفسك». لمعت عيناه الغائرتان غضبًا وتراخى رأس الرجل. «هل تظنني سعيدًا بهذا؟ هل تظنني أريد أذيتك؟ لكنك لا تترك لي خيارًا».

فجأة جذب المجنون نفسه من الحارسين وحاول الهرب إلى الحشد الذي يشاهد الحدث وصرخ: «كل كلمة رفق منه تقابلها صفعة من يده». اقترب من الطائر بينما يطارده الحارسان: «كلها أكاذيب وخداع. لن يرضى حتى ينحني الجميع له».

أمسكه الحارس ذو العين الخاملة وسحبه إلى دي نابلس حيث أطلق أنينًا تحت نظرة قائد الفرسان الباردة.

قال دي نابلس ببطء: «ما كان عليك فعل هذا». ثم استدار إلى الحارس ذي العين الخاملة وأمره: «أعِده إلى غرفته. سأعود إليه بمجرد أن أتفقد الآخرين».

هتف المجنون: «لا يمكنك احتجازي هنا! سأهرب مجددًا».

توقف دي نابلس وقال: «لا، لن تهرب». ثم استدار للحارس ذي العين الخاملة وأمره: «اكسر ساقيه. كلتيهما».

ابتسم الحارس ذو العين الخاملة بينما يحاول المجنون المقاومة. بعدها سمع الجميع صوت كسرٍ مخيفًا بينما يدهس الحارس الضخم ساقيه بالتوالي. صرخ الضحية، ووجد الطائر نفسه يتقدم للأمام غير قادرٍ على تمالك نفسه أمام هذه الوحشية.

انتهى الأمر فجأة وفقد الرجل وعيه. لا بدَّ أن الألم كان أشد من احتماله. سحبه الحارسان بعيدًا بينما يشاهده دي نابلس وقد عادت النظرة المشفقة إلى وجهه وقال كأنما يحدث نفسه: «آسفٌ يا صغيري». ثم استدار للحشد وهتف: «أليس لديكم ما تفعلونه؟».

حدق بنظرةٍ مخيفة إلى الرهبان والمرضى الذي يسيرون ببطء. استدار الطائر لينضم لهم، ورأى دي نابلس يفحص الحشود بنظره بدقة كأنه يبحث عن شخصٍ أرسِل لقتله.

جيد. سمع الطائر صوت باب المستشفى يُغلق بينما يغادر قائد الفرسان الساحة. فليشعر بالخوف. فليشعر ببعضٍ ما يذيقه للآخرين. منحته الفكرة بعض الراحة وهو ينضم إلى جماعة الباحثين الذين يعبرون الباب الثاني. يقود هذا الباب إلى الجناح الرئيسي المفروش بالحصير الذي لم يستطع كبح رائحة المعاناة والفضلات البشرية. قاوم الطائر رغبته في التقيؤ بينما يلاحظ الكثير من الباحثين يرفعون أثوابهم لتغطية أنوفهم. من هنا يأتي الأنين. رأى الطائر أسِرَّة المستشفى التي تحمل رجالًا يزمجرون ويصرخون بألمٍ من آنٍ لآخر. أبقى رأسه محنيًّا واختلس النظر من تحت قلنسوته. رأى دي نابلس يقترب من سرير فيه رجلٌ ضعيف مقيد بشرائط جلدية.

سأله دي نابلس: «كيف تشعر؟

قال المريض بألم: «ماذا فعلت.. بي؟».

- نعم، تشعر بالألم. ستتألم في البداية. إنه مقابلٌ بسيط. ستوافقني الرأي في النهاية.

حاول الرجل أن يرفع رأسه وهو يقول: «أنت.. وحش».

ابتسم دي نابلس باستمتاعٍ وقال: «لقد وصفوني بما هو أسوأ».

تحرك إلى القفص الخشبي التالي الذي يضم سريرًا آخر وألقى نظرة على المريض... لا، ليس مريضًا. هذا ما أدركه الطائر. هؤلاء البؤساء المساكين مجرد عينات اختبار. إنهم **تجارب**. قاوم ليكبح غضبه مجددًا. ألقى نظرةً حوله. معظم الحراس متمركزون عند الطرف الآخر للجناح. كما يوجد في الساحة الخارجية بالضبط، العديد من المرضى الشاردين

يتجولون في الأنحاء، ورأى الرهبان نفسهم الذين يتعلقون بكل كلمة ينطقها دي نابلس بينما يبقون على مسافةٍ منه من باب الاحترام ويتحدثون فيما بينهم بينما يقوم قائد الفرسان بجولاته.

لو أنه سينفذ مهمته -وهذا ما سيفعله حتمًا- فيجب أن يسرع.

لكن دي نابلس تحرك إلى سريرٍ آخر وابتسم إلى الرجل الراقد فيه وقال برفق: «يقولون إنك تستطيع السير الآن. مدهش».

بدا الرجل مرتبكًا وهو يقول: «لقد مضى.. وقتٌ طويل. كدت أنسى.. كيف».

بدا دي نابلس مسرورًا بحق وهو يقول: «رائع».

- لا.. أفهم. لمَ ساعدتني؟

أجاب دي نابلس وهو يواصل سيره: «لأن لا أحد آخر كان سيفعل».

قال الرجل في السرير التالي: «أنا مدينٌ لك بحياتي. أنا تحت أمرك. شكرًا. شكرًا على تحريري».

رد دي نابلس: «شكرًا لأنك سمحت لي».

تردد الطائر للحظة: هل كان مخطئًا؟ أليس دي نابلس وحشًا؟ ثم نفض شكوكه وفكر في صرخات المجنون المعذبة وهم يكسرون ساقيه، وفي المرضى الشاردين الذين يجوبون المستشفى كالأموات. حتى لو كان هناك أمثلة للشفاء هنا، فهناك أضعافها من الوحشية.

وصل دي نابلس إلى آخر سرير في الجناح. سيغادر خلال لحظات وستختفي فرصة الطائر. عقد عزمه وألقى نظرةً خلفه. ما زال الحراس مشغولين في آخر القاعة. خرج من بين جماعة الباحثين واقترب من دي نابلس بينما يميل على مريضه.

انطلق نصل الطائر وهو يغرسه في جسد دي نابلس كاتمًا صرخته وهو يتقوس للخلف بألم. أرقد الحشاش جسد الطبيب المطعون على الأرض بهدوء وهو يهمس: «تخلَّ عن حِملك الآن».

طرف دي نابلس بعينيه ونظر إليه، إلى وجه الحشاش. لكن لم يرَ الطائر خوفًا في العينين المحتضرتين، بل رأى قلقًا.

- نعم، سأرتاح الآن، صحيح؟ فالحلم الأبدي يناديني. لكن قبل أن أغمض عينيَّ، يجب أن أعرف ماذا سيحدث لأطفالي؟

*أطفاله؟*

لم يستطع الطائر إخفاء نبرة الاشمئزاز في صوته وهو يقول: «هل تقصد الأشخاص الذين جعلتهم يعانون من تجاربك الوحشية؟ سيتحررون ويعودون إلى بيوتهم».

ضحك دي نابلس بجفاء وهو يقول: «بيوتهم؟ أي بيوت؟ المجاري؟ المواخير؟ السجون التي أخذناهم منها؟».

قال الطائر: «لقد أخذت هؤلاء الناس دون إرادتهم».

شهق دي نابلس وقال: «نعم، تقصد ما تبقى من إرادتهم. هل أنت بهذه السذاجة؟ هل سترضي طفلًا بكَّاءً لكي يكف عن نحيبه؟ ماذا لو قال: «أريد اللعب بالنار يا أبي»؟ بمَ ستجيب؟ تفضل؟ عندها ستكون مسؤولًا عن الحروق التي ستصيبه».

قال الطائر محاولًا فهم الرجل المحتضر: «لكن هؤلاء ليسوا أطفالًا، بل رجال ونساء بالغون».

- بالجسد فقط وليس العقل. وهذا هو الضرر الذي أسعى لإصلاحه. أعترف أن تقدمي قد أُبطِئ مع غياب الأداة الأثرية التي **سرقتها** منا. لكن هناك أعشاب. خلطات ومستخلصات. إن حراسي دليلٌ

على عملي. لقد كانوا مجانين قبل أن أعثر عليهم وأحررهم من سجن عقولهم. وبموتي سيعودون مجانين.

- هل تؤمن حقًّا أنك تساعدهم؟

ابتسم دي نابلس وقد بدأت الحياة تخبو من عينيه، وقال: «ليس ما أومن به، بل ما أعرفه يقينًا».

لقد مات. وضع الطائر رأسه على الحجر، وأخرج ريشة المعلم وغمسها بدمه هامسًا: «فليرحمك الموت».

في اللحظة نفسها صرخ الرهبان. نهض الطائر تاركًا الجسد، ورأى الحراس يتحركون نحوه بتثاقل من آخر الجناح. سحبوا سيوفهم بينما أخذ يقفز ويركض إلى الباب البعيد الذي تمنى بلهفة أن يؤدي إلى الساحة الخارجية.

فتح الباب وسعد برؤية الساحة الخارجية أمامه.

لكنه لم يكن مسرورًا برؤية الحارس ذي العين الخاملة وهو يندفع عبر الباب المفتوح رافعًا سيفه العريض.

سحب الطائر سيفه أيضًا. بنصله في يد وسيفه في اليد الأخرى، واجه ذا العين الخاملة وتلاقت السيوف. لوهلةٍ كان الرجلان متساويَين. كان الطائر قريبًا كفاية ليرى الجلد المشوه حول عين الفارس. ثم دفعه ذو العين الخاملة بعيدًا ودفع سيفه للأمام فورًا ليقابل سيف الطائر. لكنه غيَّر اتجاهه بسرعة حتى كاد الطائر ألا يتفاداه. ابتعد الحشاش برشاقة ليضع مسافة بينه وبين ذي العين الخاملة الذي اتضح أنه سياف أمهر مما توقع. كان ضخمًا أيضًا، وأوردة رقبته بارزة من طول سنوات حمله للسيف الضخم. من خلفه سمع الطائر وصول باقي الحراس، لكن ذا العين الخاملة أشار إليهم بالتوقف.

زمجر الفارس الضخم قائلًا: «إنه لي».

إنه مغرور وشديد الثقة بنفسه. ابتسم الطائر من سخرية الموقف. تقدم الطائر ملوحًا بسيفه. صد ذو العين الخاملة الضربة وهو يبتسم ويزمجر. قفز الطائر إلى يساره مهاجمًا إياه من الجانب الآخر، جانب عينه المصابة، نقطة ضعفه. وشق عنقه.

انفتح عنق الفارس واندفع الدم من جرحه بينما يخرُّ راكعًا على ركبتيه. سمع الطائر هتافًا متفاجئًا من خلفه، فبدأ يركض، واصطدم بمجموعة من المجانين الذين تجمعوا للمشاهدة. ثم انطلق عبر الساحة الخارجية متجاوزًا البئر والبوابة المقوسة إلى عكا.

توقف فاحصًا الأسطح. ثم اندفع إلى كشك. لوح التاجر الغاضب بقبضتيه بينما يتسلق الطائر الجدار من خلفه إلى الأسطح. ظل يركض ويقفز تاركًا خلفه كابوس المستشفى، وذاب وسط المدينة. لكنه ظل يفكر في كلمات دي نابلس الأخيرة. بالأخص **الأداة الأثرية** التي ذكرها. فكر الطائر في الصندوق الذي على مكتب المعلم. لكن لا. ما علاقة الإسبتارية بكل هذا؟

لكن إن لم يكن هذا، فماذا إذًا؟

# 13

بعد أيام وصل إلى المعلم وأبلغه: «جارنييه دي نابلس مات».

تهللت أسارير المعلم وقال: «ممتاز. ما كنا لنتمنى نتيجةً أفضل من هذه».

قال الطائر مترددًا: «مع ذلك...».

- ماذا؟

- أصر الطبيب أن عمله كان نبيلًا. وبالنظر إلى مَن كانوا أسراه، بدا العديد منهم ممتنًّا له. ليس كلهم، إنما عددٌ كبير منهم. وهذا يجعلني أتساءل. كيف تمكن من قلب العدو إلى صديق؟

ضحك المعلم وقال: «القادة دائمًا ما يجدون وسيلة لكسب طاعة الآخرين. وهذا ما يجعلهم قادة. حين تفشل الكلمات، يستخدمون المال. وحين لا يفي بالغرض، يلجؤون إلى وسائل حقيرة. الرشوة، والتهديد، وغيرها من أساليب الخداع. اسمع أيها الطائر. هناك نباتات، أعشاب من بلادٍ بعيدة، يمكنها أن تُفقد الرجل صوابه. لكن المتعة التي تشعره بها قوية لدرجة أنها تستعبده».

أومأ الطائر متذكرًا المرضى الشاردين، والرجل المجنون.

- هل تظن أن هؤلاء الرجال تعرضوا للتخدير؟ أو التسميم؟

- نعم، إن كان الأمر كما تصفه حقًّا. لقد اتهمني أعداؤنا بفعل المثل.

ثم أعطى الطائر مهمته التالية، وتساءل الطائر لماذا ابتسم المعلم عندما طلب منه إكمال بحثه ثم إبلاغ الرفيق في مقر الحشاشين في بيت المقدس.

لكن بمجرد أن دخل المقر، أدرك السبب. هذا لأن المعلم شعر بالتسلية من فكرة لقاء الطائر ومالك مرة أخرى.

***

وقف الحشاش من خلف المكتب بينما يدخل الطائر. للحظةٍ تبادل الاثنان النظر دون أن يخفي أحدهما ازدراءه للآخر. ثم استدار مالك ببطء ليُري الطائر مكان ذراعه الخالي.

بهت الطائر. بالطبع، لقد تضرر بشدة من قتاله مع رجال دي سابل. حتى أفضل جراحي مصياف لم يستطيعوا إنقاذ ذراع مالك اليسرى، واضطروا لبترها.

ابتسم مالك ابتسامة تجمع بين المرارة والانتصار الذي جاء بثمنٍ غالٍ. تذكر الطائر نفسه. تذكر أنه لا يحق له التعامل مع مالك إلا بتواضعٍ واحترام. حنى رأسه معترفًا بخسائر الرجل؛ أخوه، وذراعه، ومكانته.

قال الطائر أخيرًا: «عليك الأمان والسلام يا مالك».

قال مالك باحتقار: «إن وجودك هنا يحرمني الاثنين». لديه كل الحق في معاملة الطائر بازدراء، ومن الواضح أنه ينوي هذا.

- ماذا تريد؟.

- طلب مني المعلم أن...

قاطعه مالك ساخرًا: «أن تنفذ بعض المهام لتكفر عن ذنبك؟ قل ماذا عرفت إذًا».

- هذا ما عرفته. الهدف هو طلال الذي يتاجر في البشر. يختطف مواطني بيت المقدس ويبيعهم عبيدًا. يقع مقره في مستودع داخل البرج الحصين في الشمال من هنا. في هذه اللحظة يحضر قافلة للسفر. سأهجم بينما يتفقد مخزونه. لو استطعت تجنُّب رجاله، لن يشكل طلال أي صعوبة.

قال مالك باشمئزاز: «أي صعوبة؟ استمع لنفسك. يا للغرور».

وبخ الطائر نفسه بصمت. مالك محق. تذكر عندما استخفَّ بالمنادي في دمشق وكاد يهزمه.

سأله دون أن يبدي أفكارًا: «هل انتهينا؟ هل أنت راضٍ عما جمعته؟».

قال مالك وهو يعطيه الريشة: «لا. لكن يجب أن يفي بالغرض».

أومأ الطائر. نظر إلى كُم مالك الفارغ وكاد يقول شيئًا، لكنه أدرك أن ما من كلمات كافية للتكفير عن فشله. لقد كلف مالك الكثير ولا يمكنه أن يطمع في عفوه.

استدار وغادر المكتب. سيلاقي هدفٌ آخر نصلَ الطائر.

# 14

بعد ذلك بقليل كان الطائر يتسلل إلى المستودع حيث تُجهَّز الشحنة. نظر حوله ولم يرتح لما وجده.

لم يجد حراسًا أو مساعدين.

تقدم خطوتين ثم توقف. لا. فيمَ يفكر؟ الوضع برُمته في هذا المستودع يبدو خاطئًا. كان على وشك أن يستدير ويغادر، حين انغلق الباب فجأة، وسمع صوت المزلاج المألوف.

أطلق سبَّةً وسحب سيفه.

تقدم وبدأ يشحذ حواسه تدريجيًّا لتتأقلم مع الظلام والرطوبة ورائحة المشاعل و...

شيءٌ آخر. شم رائحة لحوم، لكنها بدت للطائر أقرب للبشر منها للحيوانات.

ألقى لهيبُ المشاعل الضعيف الضوءَ على الجدران الداكنة الملساء، ومن مكانٍ ما سمع صوت قطرات ماء. بعدها سمع صوت أنينٍ خافت.

اعتادت عيناه الضوء تدريجيًّا، فمال للأمام ورأى صناديق وبراميل ثم.. قفصًا. اقترب أكثر وكاد يجفل مما رآه. فهناك رجلٌ بداخله. رجل يرتجف يثير الشفقة، يجلس ضامًّا ساقيه إلى صدره وينظر إلى الطائر بعينين حزينتين دامعتين. رفع يده بارتجافٍ وقال: «ساعدني».

ومن خلفه سمع الطائر صوتًا آخر، فاستدار ورأى رجلًا آخر. كان معلقًا من الجدار بقيودٍ تربط يديه وكاحليه. ارتخى رأسه على صدره، وتدلى شعره القذر على وجهه. لكن شفتيه كانتا ترتجفان كأنهما تتلوان صلاة.

ذهب الطائر نحوه ثم سمع صوتًا عند قدميه. نظر إلى الأسفل فرأى شبكة حديدية مثبتة في الأرضية. ينظر إليه عبرها عبدٌ آخر بوجهٍ مرعوب، ويمد أصابعه الهزيلة عبر قضبانها متوسلًا للطائر. وفي أعماق ظلام هذا الجب، رأى الحشاش المزيد من الأجساد المظلمة وسمع المزيد من أصوات القطع وأصوات البشر. للحظةٍ بدا له أن الغرفة تمتلئ بتوسلات المساجين.

- ساعدني، ساعدني.

تلك الأصوات المتوسلة المتواصلة جعلته يغطي أذنيه. فجأة سمع صوتًا أعلى يقول: «ما كان عليك القدوم إلى هنا أيها الحشاش».

*إنه طلال بالطبع.*

استدار الطائر بسرعة إلى مصدر الجلبة، ورأى ظلالًا تتحرك في شرفةٍ تعلوه. أهم رماة؟ توتر جسده وانحنى واستعدَّ بسيفه. حاول أن يجعل من نفسه أصغر هدفٍ ممكن.

لكن لو أراد طلال قتله، لكان ميتًا الآن بالفعل. فقد دخل إلى فخ تاجر العبيد بقدمه. غلطة أحمق، مبتدئ. لكن لم يفت الأوان بعد.

قال طلال ساخرًا: «أنت لست من النوع الذي يستمع. كما أنك تكشف جماعتك».

زحف الطائر للأمام محاولًا اكتشاف مكان طلال. من الواضح أنه فوقه، لكن أين؟

ضحك الصوت الطافي بلا جسد وواصل: «عرفت بوجودك منذ دخلت هذه المدينة. هذا هو مجال سطوتي».

سمع من أسفل أصوات بكاء، فنظر ورأى المزيد من الشبكات الحديدية، ويطل عبرها المزيد من الوجوه القذرة الدامعة التي تنظر إليه من الظلام.

- ساعدني.. أنقذني..

هناك المزيد من الأقفاص والعبيد من الرجال والنساء. متسولون وعاهرات وسكارى ومجانين.

قال الطائر: «ها هم العبيد، لكن أين النخاسون؟».

تجاهله طلال قائلًا: «تأمل عظمة عملي».

أضيئت المزيد من الأضواء لتكشف وجوهًا مرعوبة وصارخة.

انفتح أمام الطائر بوابة ثانية تسمح له بولوج غرفةٍ أخرى. صعد درجًا وسار إلى قاعةٍ واسعة تعلوها شرفات من كل الاتجاهات. رأى ظلالًا متحركة فأحكم قبضته على سيفه.

قال: «ماذا الآن أيها النخاس؟».

كان طلال يحاول إخافته. صحيح أن بعض الأشياء تخيف الطائر، لكن لا يستطيع تاجر العبيد فعل أيٍّ منها. إنه واثقٌ من هذا.

صرخ طلال: «لا تنادني هكذا. أنا فقط أريد مساعدتهم. كما حصلت أنا على المساعدة من قبل».

ما زال الطائر يسمع أنين العبيد الخافت من الغرفة التي خلفه. وشك في أنهم قد يعتبرون هذا مساعدة. قال في الظلام: «أنت لا تعطف عليهم بسجنهم هكذا».

ظل طلال مختفيًا وهو يقول: «سجنهم؟ أنا أبقيهم بأمان لتحضيرهم إلى الرحلة التي تنتظرهم».

قال الطائر ساخرًا: «أي رحلة؟ إنها حياةٌ من العبودية».

- أنت لا تعرف شيئًا. كان من الحماقة إحضارك إلى هنا. ظننت أنك قد ترى وتفهم.

- أفهم ما يكفي. تنقصك الشجاعة لمواجهتي. اخترت الاختباء في الظلال. كفى كلامًا وأظهر نفسك.

- أها.. تريد رؤية الرجل الذي أحضرك إلى هنا؟

سمع الطائر حركة في الشرفات، وهتف: «أنت لم تحضرني إلى هنا، بل أتيت بنفسي».

ترددت صوت ضحكات من الشرفات من فوقه.

قال طلال ساخرًا: «حقًّا؟ من فتح لك الباب؟ مَن أفسح لك الطريق؟ هل اضطررت لقتال أي رجل في طريقك؟ لا. أنا من سهلت لك الطريق».

تحرك شيءٌ على السقف الذي يعلو الشرفات، وألقى دائرة الضوء على الأرض الحجرية.

هتف طلال من أعلى: «تقدم إلى الضوء، وسأمنحك معروفًا أخيرًا».

قال الطائر لنفسه مجددًا أنه لو أراد طلال قتله، لأمطر رماتُه جسده بالسهام. تقدم إلى الضوء، عندها ظهر رجالٌ مقنعون من ظلال الشرفات، وقفزوا للأسفل وأحاطوا به بصمت. نظروا إليه ببرود وسيوفهم تتدلى بجانبهم بينما صدورهم تعلو وتهبط.

ابتلع الطائر ريقه. هناك ستة رجال. تذكر ما قاله بخصوص عدم ملاقاته أي صعوبة. هذا غير صحيح.

سمع صوت خطوات في الأعلى، ونظر إلى الشرفة حيث خرج طلال من الظلال ووقف ينظر إليه. كان يرتدي ثوبًا مخططًا وحزامًا عريضًا. وكان يحمل قوسًا على ظهره.

فرد يديه وابتسم كأنه يرحب بضيفٍ في منزله: «ها أنا أقف أمامك. ماذا تريد؟».

أشار إليه الطائر بسيفه: «انزل. لنسوي المسألة بشرف».

رد طلال كأنه يشعر بالإحباط من الطائر: «لماذا ينتهي كل شيءٍ بالعنف؟». ثم أضاف: «يبدو أنني لا أستطيع مساعدتك أيها الحشاش، فأنت لا تريد مساعدة نفسك. ولا أستطيع السماح لك بتهديد عملي. أنت لا تترك لي خيارًا. يجب أن تموت».

لوح لرجاله.

رفعوا سيوفهم.

ثم هجموا.

زمجر الطائر ووجد نفسه يبارز اثنين في آنٍ واحد ويدفعهما للخلف، ثم يوجه انتباهه للثالث مباشرةً. انتظر الآخرون دورهم. سرعان ما فهم أن إستراتيجيتهم هي الهجوم اثنين في كل مرة.

يمكنه تدبر هذا الأمر. أمسك واحدًا، وسعد حين رأى عينيه تتسعان بصدمةٍ من فوق قناعه. ثم ألقاه على رجلٍ خامس. ارتطم الاثنان بسقالة تحطمت تحت ثقلهما. استغل الطائر تفوقه وأخذ يطعن بسيفه. سمع صرخة وحشرجة موت من الرجل المسجى على الأرض.

تجمع مهاجموه مجددًا وتبادلوا النظر بينما يحاصرونه ببطء. دار معهم رافعًا سيفه وهو يبتسم ويكاد يستمتع بوقته. خمسة قتلة مدربين مقنعين ضد حشاش وحيد. لقد ظنوه فريسةً سهلة. هذا ما رآه على وجوههم. لكن بعد مناوشة واحدة، لم يعودوا واثقين.

اختار واحدًا منهم لينفذ خدعةً علمه إياها المعلم حين يواجه عدة خصوم في آنٍ واحد.

ثبت نظره على حارسٍ أمامه مباشرةً.

*لا تتجاهل الآخرين، لكن ركز على واحد. اجعله هدفك. واجعله يعرف أنه هدفك.*

ابتسم الطائر بينما تذمر الحارس.

ثم *اقتله.*

هجم الطائر مثل الأفعى على الحارس الذي كان رد فعله بطيئًا جدًّا، وحدق بنصل الطائر بينما يشق صدره، ثم أطلق حشرجة وهو يخر راكعًا. سحب الطائر سيفه من جسده بصوت يشبه تقطيع اللحوم، ثم أدار انتباهه إلى الرجل التالي.

*اختر أحد خصومك.*

بدا الحارس مرعوبًا. لم يبدُ مثل قاتلٍ الآن عندما بدأ سيفه يهتز. هتف بشيءٍ ما بلهجةٍ لم يفهمها الطائر، ثم تقدم بأسلوبٍ أخرق آملًا في مبادرة الطائر بالهجوم. لكنه تنحى جانبًا وضرب بطن الرجل بالسيف، وشاهد بانتصار أمعاءه الزلقة تدلى من جرحه. من الأعلى حثَّ طلال رجاله على الهجوم على الرغم من سقوط واحدٍ آخر وهجوم الاثنين الباقيين في آنٍ واحد. لم يبد الرجال مخيفين الآن، سواء بأقنعة أم لا. بل بدوا كما هم تمامًا، رجال خائفون على وشك الموت.

أسقط الطائر واحدًا آخر والدم يندفع من عنقه. استدار آخر حارس على عقبيه وركض بحثًا عن ملاذ بين الشرفات. لكن الطائر وضع سيفه في غمده ورمى سكينين لامعتين في ظهر الرجل الهارب فسقط من على السلم. لا مجال للهرب.

سمع الطائر صوت خطوات في الأعلى. إن طلال يهرب. انحنى ليستعيد سكاكينه وصعد على السلم حتى وصل إلى الطابق الثاني في الوقت المناسب ليرى طلال يصعد السلالم المؤدية إلى السطح.

طارده الحشاش ووصل إلى فتحة في سقف المستودع. أطل برأسه لكنه أعادها للداخل في الوقت المناسب ليتفادى سهمًا رشق بالخشب الذي بجواره. رأى الرامي على سطحٍ بعيد يستعد لإطلاق سهمٍ آخر. خرج من الفتحة بسرعة وتدحرج على السطح بينما يطلق سكينين ما زالتا مخضبتين بدماء الضحية السابقة.

صرخ الرامي وسقط. اخترقت سكينٌ عنقَه، والأخرى صدره. رأى الطائر طلال يعبر جسرًا بين المباني ثم يقفز إلى سقالة ومنها إلى الشارع. لوى عنقه ورأى الطائر يتبعه، فانطلق يركض.

بدا النصر في متناول الطائر بالفعل. كان سريعًا، ولا ينظر خلفه باستمرار ليرى إن كان هناك من يتبعه، على عكس طلال. مما يعني أنه لا يصطدم بمشاة غافلين. نساء يصرخن ويوبخنه، ورجال يسبونه ويدفعونه.

كل هذا أبطأ تقدمه في الشوارع والأسواق، لذلك سرعان ما فقد تقدمه. وحين استدار رأى الطائر الخوف في عينيه.

صرخ طلال وقال: «اهرب الآن بينما تستطيع. فحراسي سيصلون قريبًا».

ضحك الطائر وواصل الركض.

صرخ طلال: «لو استسلمت الآن فسأتركك تعيش».

لم يرد الطائر وواصل المطاردة. تحرك عبر الحشود برشاقة، وتفادى البضائع التي أوقعها طلال خلفه ليبطئ تقدمه. اقترب الطائر من طلال، وأوشكت المطاردة على الانتهاء.

أدار طلال رأسه مرة أخرى ورأى المسافة بينه وبين الطائر تتقلص، فحاول التوسل إليه مجددًا.

هتف طلال بيأس: «اثبت مكانك واسمعني. ربما يمكننا عقد اتفاق».

لم يرد الطائر، بل شاهد طلال وهو يستدير. كاد تاجر العبيد أن يصطدم بامرأة يختفي وجهها خلف عدة قوارير تحملها. لم يكن أيهما منتبهًا للطريق.

هتف طلال: «أنا لم أؤذك. لماذا تصر على ملاحقتي؟».

يبدو أنه نسي أنه منذ دقائق قد أرسل ستة رجال لقتل الطائر.

تقطعت أنفاسه وتشابكت الأذرع والسيقان في لحظة. لقد اصطدم طلال بحاملة القوارير بالفعل، وتحطم الزجاج حولهما.

حاول طلال أن ينهض لكنه كان بطيئًا ووصل الطائر إليه.. صليل.. أطلق نصله المتعطش في جسد الرجل بينما يركع بجواره. اندفع الدم من أنف وفم طلال. وبجانبهما حاملة القوارير التي كانت تحاول النهوض ووجهها أحمر من الغضب وعلى وشك أن تنقض على طلال. لكن بمجرد أن رأت الطائر ونصله والدم المندفع من طلال، غيرت رأيها وركضت وهي تولول. نظر إليهم المارة عن بُعد عندما شعروا بوجود اضطرابٍ ما. في بيت المقدس -حيث اعتادت المدينة على الصراعات- يفضل السكان عدم الوقوف والنظر إلى أحداث العنف خوفًا من التورط فيها.

مال الطائر على طلال وقال: «لا مفر لك الآن. أفصِح عن أسرارك لي».

رد طلال: «لقد لعبت دوري أيها الحشاش. الأخوية ليست ضعيفة حتى يوقفها موتي».

تذكر الطائر تامر. هو أيضًا تحدث عن آخرين في أثناء موته. هو أيضًا ذكر أخوة.

- أي أخوية؟

استطاع طلال أن يرسم ابتسامة وهو يقول: «المعلم ليس الوحيد الذي يملك خططًا للأراضي المقدسة. هذا هو كل ما ستعرفه مني».

- لقد انتهينا إذًا. فلتطلب المغفرة من ربك.

ضحك طلال بضعفٍ وقال: «لا يوجد آلهة أيها الحشاش. حتى لو كان هناك إله، فلقد تخلى عن الرجال والنساء الذين ضممتهم».

- ماذا تعني؟

- المتسولون. العاهرات. المدمنون. مرضى الجذام. هل يبدون لك عبيدًا ملائمين؟ إنهم لا يصلحون لأبسط الأعمال الذهنية حتى. لا، لم آخذهم لأبيعهم، بل لأنقذهم. مع ذلك أنت مستعد لقتلنا جميعًا. لمجرد أنك مأمور بذلك.

قال الطائر بحيرة: «لا، أنت تتربح من الحرب. من الأموات والمحطمين».

- هذا ما تظنه بغرورك. هل تغلق عقلك؟ يقولون إن هذا ما يجيده قومك. ألا ترى سخرية الموقف؟

نظر إليه الطائر. تذكر ما حدث مع دي نابلس. هددت كلمات الرجل المحتضر بتغيير كل ما يعرفه عن الهدف. بل ما ظن أنه يعرفه على الأقل.

رسم طلال ابتسامة أخيرة وهو ينظر إلى ارتباك الطائر الواضح ويقول: «لا، ليس بعد على ما يبدو. لكنك ستفعل».

ثم مات.

مد الطائر يده ليغمض عينيه وهو يتمتم: «أنا آسف».

غمس العلامة بدمه ووقف ثم اندمج مع الحشود وترك جثة طلال تلطخ الرمال من خلفه.

# 15

كان الطائر في أثناء سفره يعسكر عند الآبار أو برك المياه أو الينابيع، أي مكان يضم ظلًّا ومياه. وذلك حتى يستطيع أن يرتاح ريثما تتغذى مطيته على العشب دون أن تكون مقيدة. عادةً ما تكون تلك هي البقعة الخضراء الوحيدة على مرمى البصر، لذلك لا توجد فرصة لحصانه بالشرود بعيدًا.

تلك الليلة وجد ينبوعًا محاطًا بسورٍ وقُبة حتى لا تبتلع الصحراء الماء الثمين. شرب حتى ارتوى، ثم استلقى في مخيمه يستمع إلى قطرات الماء على الجانب الآخر من السور الخشن. فكر في طلال وهو يحتضر، وعاد بذاكرته أكثر إلى الجثث التي تملأ ماضيه. إن حياته يسودها الموت.

اختبره أول مرة في طفولته وقت الحصار. الحشاشون، والعرب، ووالده بالطبع. لقد رُحِم من مشاهدة المنظر رأفة به. لكنه سمع الصوت. سمع ضربة السيف ثم ارتطام الرأس بالأرض. وعندما اندفع إلى الباب الفرعي للبوابة لينضم إلى والده، منعته يدان.

أخذ يتلوى ويصرخ: «دعني أذهب! دعني أذهب!».

- لا يا بني.

رأى الطائر وجه أحمد -العميل الذي ضحى والد الطائر بحياته لينقذه- نظر إليه الطائر بعينين تشتعلان بالكراهية. لم يهتم أن أحمد

خرج من محنته محطمًا ودامیًا وبالكاد يقف على قدميه. بالإضافة إلى أن روحه تحمل عار استسلامه لاستجواب العرب. لم يهتم سوى بتضحية والده و...

- **إنه ذنبك!**

هكذا صرخ وتلوى وجذب نفسه بعيدًا عن أحمد الذي وقف مطأطئًا رأسه يتلقى كلمات الولد كأنها لكمات.

- إنه ذنبك.

كررها الطائر باحتقار ثم جلس على العشب الجاف ودفن رأسه بين يديه راغبًا في عزل نفسه عن العالم. على بُعد بضع خطوات، وقف أحمد منهكًا ومحطمًا، ثم وقع على الأرض هو أيضًا.

خارج جدران القلعة، غادر العرب تاركين جسد والد الطائر مقطوع الرأس لكي يستعيده الحشاشون. تاركين جراحًا لن تُشفى أبدًا.

في ذلك الوقت كان الطائر يقيم في الغرفة نفسها التي تشاركها مع والده، بجدرانها الرمادية والبقع على الأرضية ومكتب بسيط بين سريرين، أحدهما كبير والآخر صغير. عندها انتقل إلى السرير الكبير ليستطيع أن يشم رائحة والده. كما أنه كان يتخيله أحيانًا في الغرفة، يجلس على المكتب ويقرأ، أو يكتب، أو يعود متأخرًا ليلًا ويوبخ الطائر لأنه لم ينم بعد، ثم ينفخ شمعته قبل أن ينام. أصبح الخيال هو كل ما يملكه. الطائر اليتيم. لم يبقَ له سوى الخيالات والذكريات. قال المعلم إنه سيستدعيه في الوقت المناسب حين يخططون لمستقبله. وحتى ذلك الوقت إن احتاج شيئًا فما عليه سوى الذهاب إليه بصفته المعلم.

أما أحمد فكان يعاني الحمى. في بعض الليالي كان هذيانه يتردد بين جدران القلعة. من آنٍ لآخر كان يصرخ بألم، وأحيانًا أخرى باضطراب.

ذات ليلة كان يصرخ بكلمةٍ واحدة مرارًا وتكرارًا. نهض الطائر من السرير وذهب إلى النافذة بعدما ظن أنه سمع اسم والده.

**عمر.**

إنه كذلك فعلًا. سماع الاسم كان بمنزلة صفعة.

**عمر. عمر.**

تردد صدى الصرخة في الساحة الخالية.

لا، ليست خالية. دقق النظر فرأى هيئة طفل من سنه، يقف مثل التمثال وسط ضباب الصباح الباكر الذي خيم على ساحة التدريب. إنه عباس. بالكاد كان يعرفه الطائر. عباس سفيان، ابن أحمد سفيان. وقف الولد يستمع إلى هذيان والده المعذب. وربما يتلو صلاة صامتة لأجله. راقبه الطائر للحظات معجبًا بوقفته الصامتة. ثم أغلق الستائر وعاد إلى سريره كاتمًا أذنيه بيديه حتى لا يسمع أحمد ينادي اسم والده. حاول أن يشم رائحة والده في السرير، لكنه أدرك أنها بدأت تخبو.

قالوا إن حمى أحمد قد هدأت في اليوم التالي، وأنه عاد إلى غرفته، وإن كان ما زال رجلًا محطمًا. سمع الطائر أنه يرقد في سريره بينما يعتني به عباس. وظل هكذا يومين.

في الليلة التالية استيقظ الطائر على صوت في غرفته. استيقظ في سريره وأخذ يطرف بعينيه وهو يسمع خطوات تتحرك إلى المكتب. وضع الشخص شمعة ألقت ظلالًا على الجدران الحجرية. ظن أنه والده، فالنعاس لم يفارقه بعد. لقد عاد والده من أجله. جلس مبتسمًا ومستعدًّا للترحيب به وليتلقى التأنيب لأنه مستيقظ. أخيرًا استيقظ من هذا الحلم الفظيع الذي مات فيه والده وتركه وحيدًا.

لكن الرجل في غرفته لم يكن والده، بل أحمد.

كان أحمد واقفًا عند الباب مرتديًا عباءته البيضاء، ووجهه شاحبٌ كقناع. ارتسم على وجهه تعبير يكاد يوحي بالسلام والهدوء. ابتسم قليلًا حين نهض الطائر، كأنه لا يريد إخافة الصبي. لكن عينيه كانتا غائرتين ومحاطتين بهالاتٍ سوداء، كأن الألم قد حفرهما حتى استخلص منهما الحياة. أما يداه فحملتا خنجرًا.

قال: «أنا آسف».

لم يقل غيرها. كانت كلماته الأخيرة. لأنه في اللحظة التالية سحب خنجره على حلقه فاتحًا شقًّا كبيرًا في عنقه.

سال الدم على ردائه، وفار في شكل فقاعات حول جرح عنقه. سقط الخنجر من يده على الأرض، وابتسم وهو يقع على ركبتيه بينما ينظر إلى الطائر الذي اعتراه الخوف وعجز عن إبعاد نظره عن أحمد الذي سال دمه حتى تصفى. وقع الرجل الميت على عقبيه أخيرًا، كاسرًا تلك النظرة المروعة عندما مالت رأسه جانبًا. لكن الباب منعه من السقوط على ظهره. ظل لحظات في تلك الوضعية، تائبًا راكعًا. ثم وقع للأمام في النهاية.

لم يعرف الطائر كم بقي جالسًا هناك ينتحب بخفوت ويستمع إلى دمائه الكثيفة تسيل على الأرضية الحجرية. أخيرًا تمالك شجاعته وخرج من السرير وأخذ الشمعة محاولًا تفادي الرعب النازف الراقد على الأرض. فتح باب غرفته الذي أطلق أزيزًا خافتًا عندما احتكَّ بقدم أحمد. بمجرد أن خرج من الغرفة أطلق ساقيه للريح. انطفأت الشمعة لكنه لم يهتم. ظل يركض حتى وصل إلى غرفة المعلم.

أمره المعلم في اليوم التالي: «لا تخبر أحدًا بهذا».

كان قد أعطى للطائر مشروبًا حارًّا ساخنًا، ثم قضى باقي ليلته في غرفة المعلم حيث نام بعمق. أما المعلم نفسه فكان في مكانٍ آخر يعتني بجثة أحمد. وإثباتًا لذلك عاد إليه المعلم في اليوم التالي وجلس بجوار

سريره وقال: «سنخبر الجماعة أن أحمد رحل في ظلام الليل. وسندعهم لاستنتاجاتهم. لا يمكن أن نترك عباس يحمل عار انتحار والده. ما فعله أحمد مخزٍ. وهذا الخزي قد ينتقل إلى أهله».

قال الطائر: «لكن ماذا عن عباس أيها المعلم؟ ألن نخبره الحقيقة؟».

- لا يا بني.

- لكن يجب على الأقل أن يعرف أن أباه...

كرر المعلم بصوتٍ أعلى: «لا يا بني. لا أحد سيخبر عباس، بما فيهم أنت. سأعلن غدًا أنكما أصبحتما مبتدئين في الجماعة، وستكونان أخوين في كل شيءٍ إلا الدم. ستتشاركان غرفة. ستتدربان وتدرسان وتأكلان معًا. كأخوين. ستعتنيان بعضكما ببعض، وتحميان بعضكما بعضًا من الأذى، سواء كان جسديًّا أو أي نوع. واضح؟».

- نعم أيها المعلم.

لاحقًا ذلك اليوم سُجِّل الطائر وعباس في غرفةٍ واحدة. غرفة بسيطة مكونة من سريرين من القش وحصيرة ومكتب صغير. لم يحب أحدهما الوضع، لكن عباس قال إنه سرعان ما سيغادر عندما يعود والده. في الليل كان يتشنج وينادي والده في أثناء نومه، بينما الطائر في السرير المجاور يظل مستيقظًا خوفًا من أن يعاوده كابوس أحمد.

وكان يحدث بالفعل. ظل يحلم بأحمد يأتيه ليلًا حاملًا خنجرًا يلمع تحت ضوء الشمعة الراقص، ثم ينحر عنقه ببطء وهو يبتسم.

استيقظ الطائر. كانت الصحراء باردة وتحيط به من كل جانب. أوراق النخيل تحتك بعضها ببعض بفعل النسيم، والماء يقطر من خلفه. مسح جبهته بيده وأدرك أنه كان يتعرق. عاد يستلقي وتمنى أن يتمكن من النوم حتى الفجر على الأقل.

# الجزء الثاني

# 16

قال المعلم في اليوم التالي: «أحسنت عملًا. مات ثلاثة من التسعة. لهذا أشكرك». ثم اختفت ابتسامته وأضاف: «لكن لا تفكر في الاحتفال بالنصر، فعملك قد بدأ للتو».

قال الطائر بوقار: «أنا تحت أمرك أيها المعلم».

كان منهكًا لكن ممتنًّا لأنه بدأ يكفر عن ذنبه في نظر المعلم. لقد لاحظ تغييرًا في نظرة الحراس. فقبل هذا كانوا ينظرون إليه باحتقار، أما الآن فبدؤوا يحترمونه على مضض. لا بدَّ أن صيت نجاحاته قد ذاع. كما أن المعلم بدأ يبتسم له، وأشار إليه بالجلوس: «اجلس».

واصل المعلم: «تشجع الملك ريتشارد بانتصاره في عكا وبدأ يستعد للتحرك جنوبًا نحو بيت المقدس. بالتأكيد صلاح الدين يدرك هذا، لذلك يجمع رجاله قبل قلعة أرسوف المحطمة».

تذكر الطائر صلاح الدين وتوتر جسده. تذكر ذلك اليوم، والعرب عند بوابات الحصن.

قال مقترحًا فكرة قتل قائد العرب: «هل تريد مني قتل الاثنين وإنهاء حربهما قبل أن تشتعل؟».

قال المعلم بحدة: «لا». نظر المعلم إلى الطائر بتمعن حتى شعر أنه يقرأ أفكاره: «لو فعلت هذا ستتبعثر قواتهم وستتعرض المملكة

لعشرة آلاف جندي متعطشٍ للدماء وبلا هدف محدد. ما زال يفصل بين الجيشين عدة أيام. ولن يقاتلا في أثناء سيرهما. لذلك يجب أن تهتم بالتهديدات الفورية. الرجال الذين يتظاهرون بالحكم في غيابهما».

أومأ الطائر، ونفض رغبة الانتقام ليومٍ آخر.

- أعطني أسماءهم وسأمنحك دماءهم.

- سأفعل. أبو النقود، أغنى أغنياء دمشق. مجد الدين، الحاكم الوصي على بيت المقدس. ويليام دي مونفرا، حاكم عكا.

كان يعرف هذه الأسماء. فكل مدينة تحمل بصمة قائدها الفتاكة.

سأله الطائر وهو يتساءل إن كانت جرائمهم تخفي أكثر مما تفصح: «وما جرائمهم؟».

فرد المعلم يديه وقال: «الجشع. الغرور. قتل الأبرياء. سِرْ بين أهالي المدن وستعرف أسرار خطاياهم. كُن متأكدًا أن هؤلاء الرجال هم عقبة في طريق السلام الذي نسعى لتحقيقه».

قال الطائر بطاعة: «سيموتون إذًا».

أمره المعلم: «عد إليَّ بعد قتل كل واحدٍ منهم، ربما نفهم نواياهم بشكلٍ أفضل. وانتبه لنفسك أيها الطائر. فأعمالك الأخيرة قد جذبت انتباه الحراس. سيصبحون أشد ارتيابًا مما كانوا».

***

هذا ما حدث بالفعل. فبعد عدة أيام، وصل الطائر إلى مقر عكا واستقبله جبل قائلًا: «لقد انتشرت أخبار أفعالك أيها الطائر».

أومأ بصمت.

- يبدو أنك صادقٌ في رغبتك بالتكفير عن ذنبك.

- أفعل ما بوسعي.

- وأحيانًا تجيده. هل أفترض أنك أتيت بسبب العمل؟

- نعم. هدفي هو ويليام دي مونفرا.

- إذًا الحي الجنوبي هو وجهتك. لكن احذر، فهذا القطاع من المدينة هو مقر الملك ريتشارد الخاص، وهو تحت حراسةٍ مشددة.

- ماذا تعرف عن الرجل نفسه؟

- أصبح ويليام وصيًّا على بيت المقدس في أثناء غياب الملك في الحرب. يظن الناس أنه اختيار غريب، نظرًا إلى العداء بين ريتشارد وكونراد ابن ويليام. لكنني أظن أن ريتشارد ذكي.

- لماذا؟

ابتسم جبل وقال: «ريتشارد وكونراد يختلفان في معظم الأمور. يحترمان بعضهما بعضًا في العلن، لكن هناك إشاعات بأنهما يضمران الشر لبعضهما سرًّا. وهناك مسألة أَسرى عكا من جيش العرب». هز رأسه بأسف وواصل: «بعدها عاد كونراد إلى مدينة صور، وأجبر ريتشارد ويليام على البقاء هنا كضيفه».

- تعني رهينته؟

مال الطائر لموافقة جبل في الرأي. بدت حركة ذكية من ريتشارد بالفعل.

قال جبل: «أيًّا كان ما تسميه. المهم أن وجود ويليام سيمنع كونراد من التهور».

- أين تقترح أن أبدًا بحثي؟

فكر جبل وقال: «من قلعة ريتشارد، في الجنوب الغربي من هنا. أو بالأحرى، من السوق الذي أمامها».

- جيد. لن أزعجك أكثر.

- لا يوجد إزعاج.

ثم عاد للاعتناء بطيوره.

شعر الطائر أنه رجلٌ لا يحمل همًّا. ولقد حسده على هذا على الأقل.

# 17

فكر الطائر في أن جبل كان محقًّا بينما كان يشق طريقه في الشوارع الحارة المزدحمة التي تفوح فيها رائحة البحر، حتى وصل أخيرًا إلى سوق القلعة. لقد ازداد عدد الحراس كثيرًا منذ زيارته الأخيرة، ربما بمقدار الضعف. بعضهم يرتدي ألوان زِيِّ الصليبيين ودروعًا كاملة. مع ذلك أكثر ما يعرفه عن الحراس هو أنهم يحبون النميمة. لذلك كلما ازداد عددهم، كثرت المعلومات التي ستنسكب من ألسنتهم. جلس على مقعدٍ وبدا كأنه يتأمل جمال القلعة الضخمة براياتها المرفرفة، أو ببساطة ينتظر مرور الوقت. على مقربةٍ منه حاول أحد فناني الشوارع جذب الجمهور إليه، ثم هز كتفيه وبدأ يرمي كراتٍ ملونة في الهواء. تظاهر الطائر بمشاهدته بينما كان يستمع إلى حديثٍ بين جنديين صليبيين يثرثران كالنساء عن مهارة ويليام في المبارزة.

بينما يشاهد الطائر، لاحظ أن أحد الجنديين انتبه لراهب طويل يرتدي عباءة بنية ذات قلنسوة. وكان الراهب يشير إليه خلسة. أومأ الجندي بسرية وودع زميله وتحرك عبر السوق. راقب الطائر ما يحدث من تحت قلنسوته، ثم تبع الرجلين وهما يتحركان بعيدًا عن الضجة والجلبة ليتحدثا. وقف الطائر بالقرب منهما وأرهف سمعه بينما يتحدث الراهب.

- ربما ليس من الحكمة أن نضم ويليام، فهو عجوز ومغرور.

قال الجندي: «جيشه كبير وسنحتاج إليه. سأزور باقي الأخوة الآن. تأكد أن يحصلوا على كل ما يحتاجون إليه».

وافقه الراهب: «نعم. يجب ألا يسقطوا».

- لا تخف. قال الزعيم إن لديه خطة. إنه الآن يفكر في خطة لتحويل خسائرنا لصالحه إن لزم الأمر.

تساءل الطائر عما سمعه. زعيم؟ أخوة؟ *مَن يرأس هؤلاء الرجال؟ يبدو أن عكا لديها الكثير من الأسرار.*

سأل الراهب: «علامَ ينوي؟».

- كلما قل ما تعرفه كان أفضل. نفِّذ التعليمات. أوصل هذه الرسالة إلى الزعيم.

أعطى الجنديُّ الراهب الرسالة.

ابتسم الطائر وحرك أصابعه ليستعد. قام من جلسته وتبعه. بعد عملية سرقة ناجحة، حصل على الرسالة وجلس مجددًا ليقرأها.

*أيها الزعيم*

*العمل مستمر في الحي الجنوبي في عكا، على الرغم من شكنا في قدرة ويليام على المتابعة حتى النهاية. فهو يأخذ واجباته بجدية مفرطة، وقد يرفضه الناس حين يحين الوقت. من دون مساعدة الكنز، لن نتمكن من إشعال ثورة أو استدعاء الملك من الميدان. عندها ستضيع خطتك سدى. لا يمكننا استعادة ما سُرق منا إلا إذا اتحد الطرفان. ربما يمكنك تجهيز شخصٍ آخر*

*ليتولى مكانه، من باب الاحتياط فقط. نحن قلقون من أن عميلنا في الميناء بدأ يزداد تردده. لقد بدأ يتحدث عن إبعاد نفسه بالفعل. مما يعني أننا لا نستطيع الاعتماد عليه إن سقط ويليام. أبلِغنا بقرارك حتى نستطيع تنفيذه. نحن أوفياء للقضية.*

طوى الرسالة ووضعها في ردائه. سيُري المعلم إياها. ربما لا. شعر الطائر أن المعلم ليس صريحًا معه بخصوص أهدافه. ربما هذا جزءٌ من اختباره. ربما.

مرَّ بجانبه مجموعة من الخدم المسرعين. ضحك لاعب الكرات لأنه حصل على جمهورٍ أكبر الآن. على مقربة، وقف خطيبٌ تحت ظل شجرة، وأخذ يتحدث بالسوء عن الملك ريتشارد.

بعدها التفت الطائر إلى شاب ذي لحية سوداء مُشذَّبة، بدا أنه يتوسل للناس لكي يسمعوه. في الوقت نفسه راقب الطائر اثنين من حراس المدينة يقفان على مسافةٍ قريبة.

قال الشاب: «لا يهتم ويليام دي مونفرا بأهل عكا». انتبه الطائر للشاب وحرص على ألا تتقابل أعينهم. «بينما نتضور جوعًا، لا يعوز رجاله شيء في الداخل. يزدادون وزنًا من ثمرة تعبنا. قال إنه أحضرنا إلى هنا لنعمر. لكن مع بُعدنا عن وطننا وملكنا المعظم، لم تعد نواياه واضحة. إنه يخطف أولادنا ويرسلهم لمحاربة جيشٍ متوحش. إن موتهم محتوم. حتى بناتنا يأخذهنَّ لخدمة جنوده ولتدنيس شرفهن. ثم يراضينا بأكاذيب وأعذارٍ واهية عن مستقبلٍ أفضل لأرضٍ مباركة. ماذا عن الآن؟ ماذا عن اليوم؟ إلى متى سنحتمل؟ هل هذه تدابير القدر

أم أفعال رجل أناني يريد أن ينهب كل شيء؟ انتفِضوا يا أهالي عكا. انضموا إلى اعتراضنا».

قالت امرأة مارة: «اصمت».

وأشارت إلى حارسين كانا ينظران إلى الشارع، ربما شعرا بالجلبة الدائرة.

وافقتها أخرى وقالت للشاب بحدة: «أنت أحمق».

ابتعد الشاب ملوحًا بيده باستسلام. لا أحد في عكا يرغب في إثارة غضب ويليام. أو هذا ما بدا.

همست امرأة أخرى وهي تبتعد: «كلماتك ستوصلك إلى حبل المشنقة».

راقب الطائر الشاب وهو يلقي حوله نظرة حذرة ثم ينزل بين الحشود وينضم إلى رجلٍ آخر ويسأله: «كم رجلًا جمعت إلى قضيتنا؟».

أجاب رفيقه: «أخشى أنهم كلهم خائفون. لا أحد يلبي النداء».

- يجب أن نحاول. لنجد سوقًا أخرى أو ميدانًا آخر. يجب ألا نستسلم.

ألقيا نظرة أخرى على الحراس، ثم غادر. راقبهما الطائر راضيًا لأنه عرف كل ما يحتاج إليه عن ويليام دي مونفرا.

ألقى نظرةً أخيرة على القلعة التي تطل بضخامتها على السوق الذي يمثل القلب النابض لعكا. في مكانٍ ما فيها، يقبع هدفه. وبموت ويليام، سيتحرر أهل عكا من بعض الطغيان والخوف. كلما أسرع، كان أفضل. حان الوقت لزيارة جبل مجددًا.

***

كان قائد المقر في مزاجٍ مرح كالعادة. لمعت عيناه وهو يحيي الطائر.

قال الطائر: «فعلتُ ما طلبت. سلحت نفسي بالمعرفة. أعرف ما عليَّ فعله لكي أصل إلى مونفرا».

- تحدث إذًا وسأحكم.

- يتحكم ويليام بجماعة كبيرة، والكثير من الرجال يمتثلون لأوامره. لكنه ليس بلا أعداء. هو والملك ريتشارد لا يتفقان.

رفع جبل حاجبه وقال: «هذا صحيح. لم يكونا مقربين قط».

- هذا لصالحي. لقد أزعجته زيارة ريتشارد. بمجرد مغادرة الملك، سيتراجع ويليام إلى حصنه ليفكر. سيكون ذهنه مشغولًا. عندها سأهجم.

- هل أنت واثق؟

- بقدر ما يمكنني. ولو تغيرت الظروف، فسأتأقلم معها.

ناوله جبل الريشة وقال: «أعطيك الإذن إذًا. اقضِ على دي مونفرا حتى تتحرر هذه المدينة».

قال الطائر: «سأعود بعد إنجاز المهمة».

# 18

عاد الطائر إلى القلعة متوقعًا إياها أن تكون كما تركها. لكن هناك اختلافًا ما. شعر بشيءٍ وهو يتحرك بين الشوارع مقتربًا منها. شيءٌ في الأجواء. إنه الحماس والترقب. سمع ثرثرةً بخصوص زيارة ريتشارد. إنه في الحصن الآن يتحدث مع دي مونفرا. هذا ما قاله المواطنون. من الواضح أن الملك غاضبٌ منه بسبب معاملته للثلاثة آلاف أسير الذين كانوا موجودين عندما أعاد الصليبيون الاستيلاء على المدينة.

شعر الطائر بالإثارة رغمًا عنه. إن سمعة ريتشارد قلب الأسد تسبقه. شجاعته. قسوته. لذلك فرؤيته مباشرةً ستكون مثيرة.

تحرك في السوق الذي اشتد ازدحامه بعدما انتشر خبر وصول ريتشارد. كل أهالي عكا يرغبون في رؤيته، بغض النظر عن رأيهم في الملك الإنجليزي.

همست امرأة: «ها هو آتٍ».

شعر الطائر بأنه يتحرك بقوة الدفع. ولأول مرة منذ دخل المدينة، استطاع أن يرفع رأسه. فالحشود كفيلة بإخفائه عن الأعين. بالإضافة إلى أن الحراس كانوا مشغولين بوصول الملك الوشيك ولن يهتموا به.

تقدمت الحشود للأمام دافعةً معها الطائر. ترك نفسه للزحام لكي يحمله ويوصله إلى البوابات الحجرية المزينة، حيث ترفرف رايات

الصليبيين في النسيم، كأنها هي أيضًا متحمسة لرؤية ريتشارد. أنذر الحراس الحشود لكي يتراجعوا للخلف. فبدأت الصفوف الأمامية تنادي للصفوف الخلفية لكي يتوقفوا عن الدفع. مع ذلك وصل المزيد من الناس وتدافعوا إلى المنصة المنصوبة أمام البوابة الرئيسية. شكَّل المزيد من الحراس حاجزًا حول المدخل. بعضهم أمسك مقبض سيفه بتحفز، وآخرون لوحوا برماحهم بتهديد وهم يزمجرون في الحشد المتذمر المتزايد: «تراجعوا».

فجأة صدرت جلبة من بوابات الحصن التي بدأت ترتفع. لوى الطائر عنقه ليرى. أولًا سمع حوافر خيول، ثم رأى خوذات حراس الملك. بعدها ركع الحشد. جاراهم الطائر لكنه ظل يركز بصره على وصول الملك.

استقر ريتشارد قلب الأسد على جوادٍ مهيب مرتديًا رداءه الفاخر وفاردًا كتفيه ورافعًا ذقنه. بدا وجهه مجهدًا، كأنه يحمل آثار كل معركة خاضها وكل صحراء عبرها. أما عيناه فكانتا متعبتين لكن لامعتين. حوله حراسه على خيولهم. سار بجانبه رجلٌ آخر. عرف الطائر من همسات الناس أنه ويليام دي مونفرا. كان أكبر سنًّا من الملك، وتنقصه الضخامة والقوة، لكنه يبدو مرنًا. خمن الطائر أنه قد يكون مبارزًا ماهرًا بالفعل. بدت على وجهه نظرة استياء وهو يسير بجوار الملك. ضئيل في ظله. غافل عن الحشود المحيطة بهما. شارد في أفكاره.

كان الملك يتحدث بصوتٍ عالٍ حتى يسمعه كل مَن بالسوق: «ثلاثة آلاف إنسان يا ويليام. أخبرتموني أنكم ستأسرونهم للمقايضة على إطلاق أسرانا».

ردَّ دي مونفرا: «ما كان العرب ليُنفذوا جانبهم من الاتفاق، وأنت تعلم هذا. لقد أسديت إليك معروفًا».

زأر قلب الأسد قائلًا: «يا له من معروف كبير! الآن سيزدادون إيمانًا بمعتقداتهم وسيقاتلون بضراوةٍ أشد».

توقفا.

قال دي مونفرا: «أعرف عدونا جيدًا. لن يتشجعوا، بل سيخافون».

نظر إليه ريتشارد باحتقارٍ وقال: «أخبرني، ما أدراك أنت بنوايا أعدائنا؟ أنت يا من هجرت ميدان المعركة لتلعب بالسياسة».

ابتلع دي مونفرا ريقه وقال: «فعلت ما كان صائبًا، وعادلًا».

- لقد أقسمت على تنفيذ مشيئة الرب يا ويليام. لكن هذا ليس ما أراه هنا. لا. بل أرى رجلًا تلاعب بها.

بدا دي مونفرا متوترًا. ثم لوح بذراعه حوله كأنه يذكر الملك أن حديثهما مسموع، وقال: «كلماتك قاسية يا سيدي. لقد تمنيتُ أن أكون قد كسبت ثقتك الآن».

- أنت الوصي على عكا يا ويليام. وليتك لتحكم نيابةً عني. أي ثقة تريدها أكثر من هذه؟ ربما تريد تاجي أيضًا.

قال مونفرا: «هذا ليس موضوعنا». لم يرغب في التعرض للإحراج أمام الناس، فأضاف: «لكن أنت دائمًا...».

زمجر ريتشارد: «بقدر ما يسعدني إهدار يومي في مراشقتك بالكلمات، لديَّ حرب لأخوضها. سنواصل كلامنا لاحقًا».

قال دي مونفرا بأدب: «لن أؤخرك إذًا جلالتك».

نظر ريتشارد بشراسةٍ إلى مونفرا مرة أخيرة ليُذكِّر رجله المتمرد من الذي يرتدي التاج. ثم غادر وتبعه رجاله.

بدأ الحشد ينفض واستدار دي مونفرا ليقول شيئًا لأحد حراسه. أرهف الطائر سمعه.

- أخشى أنه لا مكان لأمثاله في العالم الجديد. ابعث برسالةٍ تقول إنني أريد التحدث مع القوات. يجب أن نحرص على أن يؤدي الجميع دورهم. حذرهم بأن أي تقصير سيقابله عقابًا قاسيًا. لست في مزاجٍ جيدٍ اليوم.

ثم استدار إلى باقي رجاله وقال: «اتبعوني».

فجأة اندفعت جموع من الناس نحو الحصن، ليس فقط حراس دي مونفرا، بل أيضًا تجار يأملون في عقد صفقات. انضم إليهم الطائر بينما ترتطم أجولة البضائع به. اندمج مع الزحام حتى شقَّ طريقه عبر البوابات قبل أن يسيطر الحراس على الوضع ويغلقونها. أما في الداخل فكان الجنود المنزعجون يوجهون التجار إلى ساحة، ليعرضوا فيها بضاعتهم بالتأكيد. لكن الطائر لمح دي مونفرا يسير في الممر السفلي نحو منطقةٍ داخلية معزولة. تنحى جانبًا وحشر نفسه في فجوة بين الجدار ومبنى داخلي. حبس أنفاسه متوقعًا أن يسمع هتافًا من حارس حاد البصر رآه وهو يتسلل. لكنه سعد بوجود مواطئ للتشبث في أحجار السور، فبدأ بالتسلق.

رماة.

بالطبع. لقد كان سعيدًا بنفسه لمراوغته الحراس بالأسفل، لدرجة أنه نسي التفكير فيمن بالأعلى. اختلس نظرةً أخرى من فوق حافة السطح وانتظر حتى يدير الرجل ظهره. يريده أن يكون في منتصف السطح، حتى لا يسقط إلى ساحة الحصن فينطلق الإنذار. عندما وصل الحارس إلى النقطة المنشودة، هجم الطائر بسكينه الذي لمع في ضوء الشمس وانغرس في ظهر الحارس، فزمجر وسقط. لكن ليس عبر الحافة، لحسن الحظ. دفع الطائر نفسه لأعلى فوق السطح، ثم انحنى وسار بينما يبقي عينيه على رامٍ آخر بعيد، حتى يختبئ بسرعة إن استدار.

أسفله مباشرةً يسير دي مونفرا في الحصن بينما يهتف بالأوامر والإهانات لكل من يجرؤ على الوقوف بالقرب منه.

وصل الطائر إلى الرامي التالي. وبرمية سكين سقط ميتًا على السطح. ألقى الطائر عليه نظرة وهو مارٌّ بجانبه محنيًا جسده، ورأى جسده توقف عن الارتعاش.

تخلص من الرامي الثالث فأصبح السطح كله تحت إمرته. لديه طريق للهروب حين تنتهي مهمته. الآن عليه تنفيذها.

في الأسفل مردي مونفرا عبر بوابة داخلية، وراقبه الطائر يوبخ الحارس على بعض المخالفات البسيطة. ثم اتجه إلى ساحة منطقة محصنة تبدو كملاذٍ داخلي له. راقبه الطائر من السطح. ظل متخفيًا من الحراس، لكن لا أحد ينظر إلى الأعلى أساسًا. لم يحتاجوا إلى هذا. أو هكذا ظنوا.

جلس دي مونفرا حول طاولة في طرف الساحة. وقال: «أيها الرجال، تجمعوا. اسمعوا كلماتي».

التفوا حوله ولاحظ الطائر أنهم يرتدون زيًّا موحدًا كانوا مختلفين عن الجنود الذين في المنطقة الخارجية. فهؤلاء بدَوا أكثر نضجًا وحنكة في المعارك. لو صحَّ تخمين الطائر، فهؤلاء هم قوات دي مونفرا الخاصة. لن يرتكب الخطأ السابق ويستهين بهم.

واصل دي مونفرا كلامه في الساحة: «نحن متهمون بالفشل في واجبنا. إنه لا يعترف بقيمة جهودنا في القضية».

قال أحدهم: «للأسف».

قال آخر باحتقار: «إنه لا يعرف شيئًا».

قال دي مونفرا: «هدوء. هدوء. التزموا الصمت. كلامه خاطئ، لكنه يحمل بعض الصواب أيضًا. حين تجوب هذه الأراضي، من السهل أن تجد أخطاء وترى خللًا. أخشى أننا أصبحنا مقصرين ومتقاعسين».

ابتسم الطائر في الأعلى. فوسيلة دخوله هي خير دليل عن تقصير رجال دي مونفرا وتقاعسهم. أما بالنسبة للرماة الناعسين، فحدِّث ولا حرج.

سأل أحد رجال دي مونفرا: «لمَ تقول هذا؟».

تذمروا جميعًا، فاستغل الطائر صوت الجلبة ليغطي على صوت قفزته من جانبٍ لآخر لكي يتموضع فوقه تمامًا. تحرك بحذرٍ شديد بين جدران الساحة. الآن يمكنه رؤية ما لا يراه معظم الرجال بالأسفل. جاء المزيد من الحراس من باب في الطرف الآخر من الساحة. كانوا يسحبون رجُلين يرتديان ملابس الصليبيين لكنهما كانا سجينين.

هتف دي مونفرا: «أرى كيف تتدربون. ينقصكم الإيمان والتركيز. أنتم تثرثرون وتراهنون. والمهمات الموكلة إليكم إما لا تنجزونها أو تؤدونها دون المستوى. هذا ينتهي اليوم. لن أحتمل إهانة أخرى من ريتشارد. سواء أدركتم هذا أم لا -وعليكم إدراكه بالفعل- لقد جلبتم لنا العار. المهارة والتفاني هما ما جعلانا نربح عكا. وسنحتاج إليهما للحفاظ عليها. يبدو أنني تساهلت معكم كثيرًا. لكن ليس بعد الآن. ستتمرنون بمستوى أقسى ولوقتٍ أطول. حتى لو عنى هذا تجاهل الأكل أو النوم. وإن فشلتم في هذه المهمات، سأريكم معنى الانضباط. أحضروهما».

وصل الطائر إلى موقعه دون أن يلمحه أحد. أصبح فوق رأس دي مونفرا الأصلع مباشرةً، حتى إنه رأى الرذاذ يتناثر من فمه وهو يهتف برجاله. لو رفع أحدهم رأسه لأي سبب، فقد يراه. لكنهم يصبون انتباههم الآن على المنطقة أمام طاولة دي مونفرا حيث جر رجاله الجنديين اللذَين يعتري وجهيهما الخوف والخزي.

قال دي مونفرا: «لو اضطررت أن أجعل من بعضكم عبرة، فسأفعل». التفت للسجينين وقال: «أنتما متهمان بالتهتك والسكر في أثناء الخدمة. ما دفاعكما؟».

تمتما بالتوسلات والأعذار ولعابهما يسيل من الرعب.

نظر إليهما شزرًا ثم أشار بيده ليأمر بإعدامهما.

شق الجنود حلقيهما، وقضيا لحظاتهما الأخيرة في رؤية دمائهما على الأرضية الحجرية. نظر إليهما دي مونفرا وهما يحشرجان ويلوحان بأيديهما على الأرض، مثل سمكةٍ تحتضر.

قال دي مونفرا بنبرةٍ تكاد تكون حزينة: «إهمال الواجب مثل وباءٍ معدٍ. لذلك يجب استئصاله وتدميره لنمنع انتشاره. مفهوم؟».

تمتموا جميعًا: «نعم يا سيدي».

- جيد جدًّا. عودوا لواجباتكم. آمنوا بهدفكم. كونوا أقوياء. حافظوا على تركيزكم. عندها سننتصر. لكن إن فشلتم، ستنضمون إليهما. تأكدوا من هذا. انصراف.

لوح لهم بالانصراف، فسعد الطائر لأنه يريد إبعاد رجاله عن المكان. راقب دي مونفرا وهو يتصفح الأوراق على الطاولة ويزفر بحنق. من الواضح أن مزاجه السيئ في أوج نشاطه. زحف الطائر للأمام أقرب ما يستطيع إلى حافة السطح. رأى جسد الجنديين اللذَين ما زالا ينزفان. أما عن بُعد، فمعظم الرجال إما تجمعوا عند البوابة أو غادروا إلى الساحة الخارجية. بالتأكيد كانوا حريصين على الابتعاد عن دي مونفرا بقدر الإمكان.

كان دي مونفرا في الأسفل يتمتم باستياء وهو ما زال يتصفح الأوراق، لا يستطيع إيجاد ما يبحث عنه. زمجر عندما أفلتت منه بعض الأوراق

وسقطت على الأرض. كان على وشك أن يطلب أحد مساعديه، لكنه غيَّر رأيه وانحنى ليأخذها بنفسه. ربما سمع صوت النصل في اللحظة التي قفز فيها الطائر من السطح إلى عنقه.

بعدها وقف الطائر جاثمًا على قائد عكا، يغطي فمه بيده حتى لا ينبه الآخرين في الساحة. يعلم أن لديه بضع لحظاتٍ فقط. همس له: «استرح الآن. لقد انتهت خططك».

قال بصوتٍ أجش: «وماذا تعرف عن عملي؟».

- أعرف أنك كنت ستقتل ريتشارد وتمنح عكا لابنك كونراد.

- كونراد؟ إن ابني أحمق، لا يصلح لقيادة رجاله، فما بالك بمملكة. وريتشارد؟ ليس أفضل منه. إنه معميٌّ بإيمانه بأمورٍ معنوية. عكا لا تنتمي إلى أيٍّ منهما.

- إلى مَن إذًا؟

- المدينة ملكٌ لشعبها.

قاوم الطائر الشعور المعتاد بأن عالمه يتغير جذريًّا.

- كيف تدعي أنك تتحدث باسم الشعب؟ لقد سرقتَ طعامهم. أخذتهم للتجنيد الإجباري بلا رحمة. أجبرتهم على خدمتك.

ردَّ دي مونفرا ببساطة كأنها أمور بديهية ينبغي أن يفهمها الطائر: «كل ما فعلته كان لإعدادهم للعالم الجديد. سرقتُ طعامهم؟ لا. لقد أخذته حتى أوزعه عليهم حين تأتي الأوقات الصعبة. انظر حولك. إن منطقتي خالية من الجريمة، بخلاف التي ترتكبها أنت وقومك. والتجنيد الإجباري؟ لم أدربهم على القتال، بل على مميزات النظام والانضباط. تلك الأفعال لا تمتُّ للشر بصلة».

قال الطائر بغير اقتناع: «مهما بدت نواياك نبيلة في نظرك، فأفعالك قاسية ولا يمكن السماح باستمرارها».

قال دي مونفرا: «سنرى مدى صحة أعمالك أنت. أنت لا تُحرر المدن كما تظن، بل تهلكها. لن تلوم إلا نفسك في النهاية. أنت يا من تتحدث عن النوايا الطيبة...».

لم يكمل جملته.

قال الطائر وهو يغمس الريشة بدمه: «كلنا متساوون في الموت».

تسلَّق الجدار من خلفه إلى السطح، وقفز إلى المنطقة الخارجية، ثم رحل بعيدًا كأنه لم يكن هناك من الأساس.

# 19

شعر الطائر بثقل المهمة على كاهله. كان متعبًا ومنزعجًا بشدة. أنهكه الترحال الطويل في كل رحلة، لكن المعلم أمره بزيارته بعد كل عملية قتل. وفي كل زيارة كان المعلم غامضًا، يطلب منه التفاصيل لكنه يحجب عنه الكثير.

وهذا ما ثبت في لقائهما التالي.

قال المعلم: «وصلتني أخبار نجاحك. أقدم لك امتناني وامتنان المملكة. إن تحرير هذه المدن من حكامها الفاسدين سيعزز قضية السلام بالتأكيد».

سأله الطائر: «هل أنت واثقٌ حقًّا؟».

من جانبه تبددت ثقة الطائر كثيرًا.

- الوسائل التي يحكم بها هؤلاء الرجال تنعكس على الشعب. عندما تُنظف المدن من الفساد، فأنت تشفي قلوب سكانها وعقولهم.

قال الطائر مفكرًا في الأهداف التي قتلها: «أعداؤنا يخالفونك الرأي».

- ماذا تعني؟

- كل رجلٍ قتلته قال كلامًا غريبًا لي. إنهم ليسوا نادمين. بدوا واثقين من نجاحهم حتى وهم على شفا الموت. هناك رابطٌ يجمعهم، لكنهم لا يعترفون بهذا مباشرةً. أنا واثق.

نظر إليه المعلم بتمعنٍ وقال: «أيها الطائر، هناك فرقٌ بين ما نسمع أنه الحقيقة وبين ما **نرى** أنه الحقيقة. معظم الناس لا يتعبون أنفسهم بالتمييز. فالأمر أسهل هكذا. لكن بصفتك حشاشًا، فمن طبيعتك أن تلاحظ الفرق وتشك».

ألح الطائر بالسؤال: «ماذا يربط بين هؤلاء الرجال إذًا؟».

كان الطائر على يقين أن المعلم لديه كل الأجوبة.

- وأيضًا بصفتك حشاشًا، فمن **واجبك** أن تُخمد تلك الأفكار وتثق بمعلمك. لأنه لا يمكن تحقيق سلامٍ حقيقي دون نظام. والنظام يتطلب سلطة.

لم يستطع الطائر كبح نبرة الاستياء في صوته وهو يقول: «لكنك تدور في دوائر أيها المعلم. تأمرني أن أكون واعيًا ثم تطلب مني ألا أكون. أيهما أفعل؟».

قال المعلم بغموض: «سيُجاب السؤال حين لا تحتاج إلى سؤاله».

أدرك الطائر أنه لن يصل إلى نتيجة، فقال: «أفترض أنك استدعيتني إلى هنا لهدفٍ آخر غير إلقاء محاضرة».

قال المعلم: «نعم».

وجههُ المعلم إلى دمشق مجددًا. الهدف التالي على قائمة القتل هو الشخص المدعو أبو النقود. لكن أولًا يجب التفاوض مع قائد المقر الفظ.

***

- الطائر، صديقي. أهلًا وسهلًا. مَن الذي أتيت لقتله اليوم؟

عبس الطائر لرؤية قائد مقر دمشق الوقح، لكنه يتعمد ألا تكون وقاحته كافية لإشعال غضبه. إنه ماهرٌ في حساب المدى الذي يصل إليه. ربما لو أحسن استخدام مهاراته لما أمضى أيامه خلف مكتبٍ في

المقر. قد ينبهه الطائر إلى هذه الحقيقة ذات يوم. أما الآن فلديه عمل. هدف جديد.

- اسمه أبو النقود. ماذا تعرف عنه؟

هتف قائد المقر بانبهارٍ واضح: «شاهبندر التجار في دمشق. أثرى أثرياء المدينة. هدفٌ مثير، وخطِر. أحسدك أيها الطائر. لكن ليس في الجزء الذي تعرضت فيه للضرب والتجريد من الرتب... إنما أحسدك على كل شيءٍ آخر... بخلاف أيضًا الأشياء الفظيعة التي يقولها باقي الحشاشين عنك. كذلك بخلاف تعرضك للفشل والكراهية. بعيدًا عن هذا، أحسدك كثيرًا».

تخيل الطائر كيف سيبدو عنقه والنصل مغروسٌ فيه.

- لا يهمني كلام الآخرين وأفكارهم. أتيت لأداء مهمة. لذلك أسألك مجددًا، ماذا تعرف عن شاهبندر التجار؟

- لا أعرف سوى أنه رجلٌ فاسدٌ بالتأكيد، بما أن المعلم قد أرسلك إليه. إنه لا يتعامل إلا مع دائرته. ينعم برفاهية منطقة الأثرياء. إنه رجلٌ مشغول، دائمًا لديه أعمال. أنا واثق أنك إن قضيت بعض الوقت مع أمثاله فستعرف كل ما تريد معرفته عنه.

وهو ما فعله الطائر بالضبط. ذهب إلى المسجد الأُموي وسوق ساروجة وقلعة صلاح الدين، حيث عرف أن الأهالي يكرهون أبو النقود، وأنه فاسد، ويختلس من المال العام ويحول معظمه في دفعات إلى بيت المقدس إلى ويليام دي مونفرا. ابتسم الطائر ابتسامة مخيفة عند هذه النقطة.

مر بمدرسة الكلاسة وصادف بعض الباحثين الذي يخطبون في الناس. أمل أن يسمع شيئًا يخص أبو النقود. لم يكونوا يتحدثون عنه، لكنه استمع إليهم بأي حال عندما أربكه حديثهم.

قال الأول: «أيها المواطنون. سلموا كتاباتِكم. ضعوها في كومةٍ أمامي. الاحتفاظ بأيٍّ منها يُعد خطيئة. صدقوا كلماتي. حرِّروا أنفسكم من أكاذيب وفساد الماضي».

كان الطائر على وشك المواصلة، لكنه ظل مكانه. فهناك ما جذبه في جملة حرِّروا *أنفسكم من أكاذيب وفساد الماضي*. هل يمكن أن يتعلق الأمر بالمنظمة الجديدة الذي ظل يسمع عنها؟

تحدث باحثٌ آخر الآن: «لو أنكم تقدرون السلام وتريدون إنهاء الحرب، تخلوا عن كتبكم ولفائفكم ومخطوطاتكم، فهي تغذي لهيب الجهل والكراهية».

ضاق الطائر بما سمعه ولم يعجبه. *تخلوا عن كتبكم*. لماذا؟

نفض الفكرة عن رأسه الآن، وواصل التحقيق بشأن شاهبندر التجار. نادرًا ما يغادر أبو النقود جناحه. لكنه سيفعل هذا المساء لكي يحضر حفلة هو مضيفها ومقيمها. قال الكثيرون أنه يفعل هذا لكي يتفاخر بأمواله أمام المواطنين. حتى إنه أمر بإحضار الخمر خلافًا لعقيدته. لو أن هذه الحفلة كباقي حفلاته، فهي فرصة الطائر للهجوم. لقد سمع عن وجود سقالة خارج شرفة جناح أبو النقود. قرر الطائر أنه الوقت المثالي ليحضر حفلًا.

# 20

كانت الاحتفالات في أوجها بينما يدور الطائر حول ساحة القصر. بدا منظره مريبًا بردائه المتسخ الرث مقارنةً بأزياء الضيوف. ارتدى معظمهم أبهى حلة. أزياؤهم مطرزة بدقة بأغلى الخيوط. وعلى عكس غالبية سكان دمشق، بدا هؤلاء في أتم صحة وعافية. يتحدثون بصوتٍ يعلو على صوت الموسيقى، ويضحكون بصخب. المشروبات متوفرة بسخاء، والخدم يتحركون بين الضيوف لتقديم الخبز والزيتون والمشهيات على صوانٍ ذهبية.

نظر الطائر حوله. لا توجد نساء سوى الراقصات. ربما ستة أو سبعة. يتمايلن ببطء على أنغام العود والربابة مع العازفين الجالسين تحت شرفةٍ كبيرة. رفع الطائر نظره إلى حارسٍ يقف شابكًا ذراعيه وينظر بفتور إلى هذه التفاهات. قرر الطائر أن تلك هي شرفة أبو النقود. بدأ إيقاع الموسيقى يعلو، لكن خَفَت صوت العود حين طغى عليه قرع الطبول التي هدفت لإشعال حماس الضيوف ورفع مستوى ترقبهم. اضطرت الراقصات إلى تسريع حركاتهن حتى لمعت أجسادهن بالعرق تحت أزيائهن الحريرية. أما الضيوف فألهبوا كفوفهم بالتصفيق مع الطبول التي ظل إيقاعها يتزايد ويرتفع حتى انتشرت الذبذبات في الهواء. فجأة ظهر أبو النقود بالأعلى.

سمع الطائر أوصافًا خرافية عن مظهر الرجل. مثل بدانته، فهو بحجم ثلاثة رجال عاديين. الحلي اللامعة التي يرتديها دائما، وملابسه الفاخرة، وعمامته المزينة بالجواهر؛ كل هذا لم يكن مبالغات نتيجة غضب الشعب. بل تفاجأ أن تلك النميمة لم توفه حقه. إن حجمه وحليه وملابسه كانوا أكبر وأفخم مما تخيل. شاهد الطائر أبو النقود وقد وقف يمضغ ما يأكله أيًّا كان، والدهن يلمع حول فمه. بينما يسير بطول الشرفة وينظر إلى ضيوفه بالأسفل، تموج لغده وهو يبتلع ما تبقى من طعامه. انفتح رداؤه مُظهرًا صدره العاري، مساحة كبيرة من اللحم الذي يلمع بالعرق.

فجأة صفق بيديه فتوقفت الموسيقى والأحاديث.

قال: «أهلًا وسهلًا. أشكركم جميعًا على مشاركتي هذه الأمسية. تفضلوا بالأكل والشرب. استمتعوا بالملذات التي أقدمها لكم».

ثم أشار بيده فنبضت النافورة التي في وسط الساحة بالحياة. اندفع منها ما ظن الطائر في البداية أنه ماء ملون. ثم رأى فورانًا غريبًا، فأدرك ماهيته. إنها شحنة الخمر التي سمع عنها. ها هي. شاهد رجلين يقتربان من النافورة ويملآن كأسيهما بالسائل الفوار، ثم يتبادلان نخبًا ويتراجعان. جاء المزيد من الضيوف لملء كؤوسهم بينما وقف الخدم يوزعون الكؤوس على كل مَن يريد. بدا أن شاهبندر التجار أراد من كل ضيوفه أن يشربوا من النافورة. انتظر حتى تراجع الحشد ثم أكمل كلامه.

سألهم وهو يرفع حاجبه: «أرجو أن يكون كل شيء قد نال رضاكم».

بالتأكيد. ارتفعت الكؤوس وهتافات الموافقة. الخمر يجعل الكلام يجري على اللسان بسهولة.

قال أبوَ النقود بابتسامة أظهرت بقايا الطعام بين أسنانه: «جيد جدًّا. يسرني رؤيتكم سعداء. هذه أوقاتٌ صعبة يا أصدقائي، وعلينا الاستمتاع بالرفاهية ما دام يمكننا».

رأى الطائر بالقرب منه الرجلين الذي ملآ كأسيهما في البداية قد عادا من زيارة أخرى للنافورة ويكتمان ضحكهما بينما أبو النقود يواصل كلامه: «إن الحرب تهدد بهلاكنا جميعًا. صلاح الدين يقاتل بشجاعة لأجل ما يؤمن به، وأنتم تدعمونه دائمًا دون قيد أو شرط. إن كرمكم هو ما يساعد في استمرار حملته».

لاحظ الطائر أن الشرفات التي في أحد الجوانب بدأت تمتلئ بالحراس. أمعن النظر فوجدهم رماة. كان واثقًا أنه الوحيد الذي لاحظ هذا.

بالقرب منه، كان الرجال يتجرعون الخمر بينما عاد أبو النقود للكلام: «لهذا أقدم لكم نخبًا. لكم يا أصدقائي الأعزاء الذين أوصلتمونا إلى حيث نحن الآن. أرجو أن تحصلوا على ما تستحقون. نخبكم».

مع الهتاف الأخير تجرع رواد الحفل الخمر بشراهة من كؤوسهم.

قال أبو النقود وهو يعلوهم: «يا للطفكم. لم أظنكم بهذا اللطف قط. أنتم يا من تسرعتم في الحكم عليَّ بكل قسوة».

شعر الضيوف بالتغيير المفاجئ في نبرته، فتمتموا بارتباك.

- لا تدَّعوا الجهل. هل تظنون أنني أحمق؟ أنني لم أسمع الكلام الذي تهمسون به عني خلف ظهري؟ بلى. وأخشى أنني لا أستطيع نسيانه. لكن هذا ليس سبب دعوتي إليكم الليلة. لا. أريد أن أتحدث أكثر عن الحرب، وعن دوركم فيها.

- أنتم تتبرعون بمالكم بكل استعداد، مع علمكم أنه يتسبب في موت الآلاف. أنتم لا تعرفون حتى سبب حربنا. تقولون إنه لحرمة الأراضي المقدسة، أو نوايا أعدائنا الشريرة. لكنها مجرد أكاذيب تقولونها لأنفسكم. لا. كل هذه المعاناة سببها الخوف والكراهية. يزعجكم أنهم مختلفون كما يزعجكم أنني مختلف.

نظر الطائر إلى الرماة في الشرفات وشعر بالقلق، فتحرك جانبًا ليتفقد الشرفات على الجانب الآخر من الساحة. اصطف الرماة هناك أيضًا. كذلك في الشرفات التي في الخلف. لم يسحبوا أقواسهم. ليس بعد بأي حال. لكن لو صح تخمين الطائر، فسرعان ما سيفعلونها في أي لحظة. إنهم يغطون الساحة بالكامل. اقترب من أحد الجدران المحيطة. على مسافةٍ قريبة بدأ رجل يبصق ويسعل، ودخل رفيقه في نوبة ضحك.

واصل أبو النقود من شرفته: «التعاطف. الرحمة. التسامح. تلك كلمات جوفاء في نظركم. لا تعني شيئًا للغزاة الكفرة الذي جاؤوا لنهب أرضنا بحثًا عن الثروة والمجد. لهذا أقول كفى. لقد كرست نفسي لقضيةٍ أخرى. قضية ستصنع عالمًا جديدًا يعيش فيه الناس معًا بسلام».

صمت، ولاحظ الطائر توتر الرماة. إنهم على وشك إطلاق النار. التصق بالجدار. ما زال الرجل يسعل. انحنى على نفسه واحمرَّ وجهه. تحول صديقه من القلق إلى السعال أيضًا.

أنهى أبو النقود حديثه: «من المؤسف أنكم لن تعيشوا لتشهدوا هذا».

بدأ المزيد من الضيوف بالسعال. أمسك بعضهم ببطنه. بالطبع. علم الطائر أنه سم. سقط بعض الضيوف على ركبهم. رأى رجلًا بدينًا برداءٍ ذهبي يسيل لعابه بينما تدور عيناه في محجريهما ويسقط على الأرض ميتًا. استعدَّ الرماة بأقواسهم. نصف الضيوف على الأقل كانوا يحتضرون. لكن هناك الكثيرين لم يشربوا الخمر، وأخذوا يسرعون إلى المخارج.

أمر شاهبندر التجار: «اقتلوا كل مَن يحاول الهرب».

فأمطرهم الرماة بالسهام.

ترك الطائر المجزرة خلفه، وتسلق الجدار إلى الشرفة وتسلل خلف أبو النقود. كان بجواره حارس قتله الطائر بضربة نصل. سقط الرجل وهو يتلوى بعنقٍ مشقوق يندفع منه الدم على أرضية الشرفة. استدار أبو النقود

ورأى الطائر، فتغير تعبير وجهه. كان يبتسم باستمتاع وهو يشاهد المذبحة الجارية في الحفل بالأسفل. والآن ارتاح الطائر لرؤية الخوف على وجهه.

يليه الألم، بينما يغرس نصله في عنقه فوق الترقوة مباشرةً.

شهق الرجل الضخم وانهار على أرضية الشرفة الملساء.

قال الطائر: «لقد سرقت أموال الناس الذين تدعي أنك تقودهم. وأرسلتها بعيدًا لهدفٍ مجهول. أريد أن أعرف أين أرسلتها ولماذا».

قال أبو النقود ساخرًا: «انظر إليَّ. إن طبيعتي في حدِّ ذاتها إهانة للشعب الذي أحكمه. وهؤلاء النبلاء بالكاد يكتمون هتافات الكراهية».

سأله الطائر: «هل يتعلق الأمر بالانتقام إذًا؟».

- لا. ليس الانتقام، بل الضمير. كيف يمكنني تمويل حرب لخدمة الرب نفسه الذي يصفني بالخطيئة؟

- إن لم تكن تخدم قضية صلاح الدين، فمَن إذًا؟

ابتسم أبو النقود وقال: «ستعرفهم مع الوقت. بل أظنك تعرف بالفعل».

شعر الطائر بالحيرة مجددًا وسأله: «لمَ السرية إذًا؟ ولم هذه الأفعال البشعة؟».

- وهل تختلف كثيرًا عن أعمالك؟ أنت تقتل الرجال والنساء بإيمانٍ تام أن موتهم سيحسن حياة مَن على قيد الحياة. شرٌّ صغير لتحقيق خيرٍ عظيم؟ نحن متشابهان.

هز الطائر رأسه نفيًا: «لا، بل نحن مختلفان تمامًا».

- لكنني أرى الشك في عينيك.

قال وهو على شفا الموت: «لا يمكنك إيقافنا. سنبني عالمنا الجديد».

مات، وسال خيط دمٍ من فمه.

قال الطائر وهو يغمس الريشة بالدم: «استمتع بالصمت».

قرر أنه بحاجةٍ إلى رؤية المعلم. يجب أن ينتهي هذا الشك.

# 21

قال المعلم: «تعال أيها الطائر. أود معرفة أخبار تقدمك».

رد الحشاش: «لقد نفذتُ أوامرك».

نظر إليه المعلم بتمعنٍ وقال: «جيد جدًّا. لكنني أشعر أن أفكارك شاردة. قل ما لديك».

هذا صحيح. شردت أفكار الطائر في أمر آخر في أثناء رحلة العودة. والآن لديه الفرصة ليزيحه من تفكيره.

- كل رجلٍ ترسلني لقتله يخبرني بكلامٍ غريب. وكلما أتيت إليك لأطلب إجابات، تمنحني ألغازًا في المقابل. لكن كفى.

ارتفع حاجبا المعلم متفاجئًا من أن الطائر يحدثه بهذا الأسلوب، وقال: «ومن أنت حتى تقول كفى؟».

ابتلع الطائر ريقه ثم استجمع نفسه وقال: «أنا الشخص الذي يقوم بالقتل. لو أردتني أن أواصل، فعليك مصارحتي مباشرةً».

- احذر أيها الطائر، فنبرتك لا تعجبني.

ردَّ الطائر بنبرةٍ أعلى مما توقع: «وخداعك لا يعجبني».

تجهم وجه المعلم وقال: «لقد منحتك فرصةً لاستعادة شرفك الضائع».

عارضه الطائر: «لم يضِع بل أنت من سلبته، ثم أرسلتني لأستعيده كأنني كلبٌ حقير».

سحب المعلم سيفه واشتعلت عيناه وهو يقول: «يبدو أنني سأحتاج إلى شخصٍ غيرك. خسارة. كانت مهاراتك واعدة».

- أظن أنه لو كان لديك غيري لأرسلته من البداية.

تساءل الطائر إن كان يبالغ في استفزاز معلمه، لكنه واصل بأي حال: «قلت إن سؤالي سيُجاب حين لا أحتاج إلى سؤاله. لذلك لن أسأل. لكنني أطالبك بإخباري بما يربط هؤلاء الرجال».

وقف مستعدًّا لطعنة المعلم، لكن متمنيًا أن يرى حياته أكثر قيمة من قتله. كان يعلم أنها مخاطرة.

بدا أن المعلم يفكر في اختياراته. تردد سيفه وانعكس الضوء على نصله، ثم أعاده إلى غمده واسترخى قليلًا. أخيرًا قال: «كلامك صحيح. هؤلاء الرجال مرتبطون، بعهد دم لا يختلف عن عهدنا».

- مَن هم؟

ردد المعلم شعارًا باللاتينية: «Non nobis, Domine, non nobi».

*ليس لأجلنا يا إلهي.*

بالطبع. قال الطائر وقد ميَّز الشعار: «فرسان الهيكل».

رد المعلم: «أظنك فهمت الآن القوة الحقيقية لروبرت دي سابل».

- كل هؤلاء الرجال، بما فيهم حكام المدن وقادة الجيوش؟

- كلهم يدينون بالولاء لقضيته.

قال الطائر مفكرًا: «لم تكن أعمالهم منفردة بذاتها، أليس كذلك؟ بل هي خطة متكاملة. ماذا يريدون؟».

رد المعلم ببساطة: «الغزو. إنهم يريدون الأراضي المقدسة. ليس باسم الرب، بل لأنفسهم».

- ماذا عن ريتشارد؟ وصلاح الدين؟

- كل مَن يعارض فرسان الهيكل سينتهي أمره. وكن واثقًا أنهم يستطيعون تحقيق هذا.

قال الطائر بعزمٍ وقد شعر بحملٍ ينزاح عن كاهله: «يجب إيقافهم إذًا».

- لهذا نقوم بعملنا، لنحقق مستقبلًا دون هؤلاء الرجال.

سأل الطائر المعلم: «لماذا أخفيت الحقيقة عني؟».

- لكي تكشف الستار بنفسك. المعرفة تسبق التصرُّف، مثلما تفعل في أي مهمة. المعلومات التي تعرفها بنفسك أكثر قيمة من المعلومات التي تأتيك بسهولة. بالإضافة إلى أن سلوكك لم يشجعني على الثقة بك.

حنى الطائر رأسه وقال: «فهمت».

- لم تتغير مهمتك أيها الطائر، بل سياق فهمِك لها وحسب.

- وبعد معرفتي للحقيقة، سأتمكن من فهم فرسان الهيكل الباقين بشكلٍ أفضل.

أومأ المعلم وسأله: «هل من شيءٍ آخر تريد معرفته؟».

حل الطائر لغز الأخوية التي تنتمي إليها أهدافه. لكن هناك شيءٌ آخر: «ماذا عن الكنز الذي استعاده مالك من هيكل سليمان؟ بدا روبرت مستميتًا لاستعادته».

قال المعلم: «كل شيءٍ سيتضح في أوانه أيها الطائر. مثلما انكشف لك تورُّط فرسان الهيكل، ستنكشف أيضًا طبيعة كنزهم. الآن اطمئن أنه معنا وليس معهم».

للحظةٍ فكر الطائر في الإلحاح عليه بالسؤال، لكنه غيَّر رأيه. لقد كان محظوظًا مرة، ويشك في أنها قد تتكرر: «حسنًا، إن كانت هذه رغبتك».

- إنها كذلك.

هدأت الأجواء في الغرفة بينما يستدير الطائر للمغادرة. وجهته التالية هي بيت المقدس.

- مهلًا أيها الطائر.

- نعم؟

- كيف عرفت أنني لن أقتلك؟

- بصراحة أيها المعلم، لم أعرف.

# 22

الطائر الأحمق. الطائر المغرور. لقد وقع في مشكلة. مجد الدين يرقد ميتًا عند قدميه، والأرضية الخشبية تصطبغ بدمه ببطء. أما خلفه فيوجد المتهمون، مربوطين في أوتاد ومعلقين، يتدلون بعجز وينزفون. بدأت الساحة تخلو من المشاهدين، لكن ليس من حراس مجد الدين الذي اندفعوا نحوه مقتربين من المنصة. بدؤوا بصعود السلالم على الجانبين بينما يمنعونه من القفز من الأمام. حاصروه ببطء بنظراتٍ مشتعلة وسيوفٍ مرفوعة. حتى لو كانوا خائفين، فلم يظهر عليهم على الإطلاق. لقد اغتال حشاشٌ قائدَهم في حائط مبكى بيت المقدس، لكنهم لم يرتبكوا أو يفزعوا كما أمل الطائر. لم يدب فيهم خوفٌ غريزي من الحشاش الذي يقف أمامهم بنصلٍ يسيل منه دم مجد الدين. بل دب فيهم عزم ورغبة في الانتقام.

مما يعني أن الأمور لم تسِر حسب الخطة.

إلا مع أول حارس اندفع إليه مزمجرًا ليختبر قوة الطائر. تراجع الحشاش وصد ضربات الحارس العربي. ارتفع صليل السيوف في الساحة شبه الخالية. اندفع الحراس نحوه. نظر خلفه ورأى آخرين متجهين إليه، فرد على الحارس بضربة مجبرًا إياه على التراجع بسرعة للدفاع عن نفسه. كاد يرتطم بأحد الأجساد المعلقة على الأوتاد. نظر الطائر إلى الأسفل ورأى فرصته قادمة مع هجمة جامحة بهدف إفزاع

الخصم. تلاقت النصال، وتراجع الجندي العربي رغمًا عنه وداس على بركة من الدماء، كما خطط الطائر تمامًا. انزلقت قدم الجندي فأرخى دفاعه لثانية استغلها الطائر ليطعنه في صدره. عندها أطلق حشرجة ومات. سقط جسده على المنصة الخشبية واعتدل الطائر ليواجه المزيد من المهاجمين. أخيرًا لمح في أعينهم الشك وربما بعض الخوف. لقد اختبروا مهارة الحشاش، وأثبت تفوقه.

لكن ما زال الحراس يفوقونه عددًا، وبالتأكيد سيأتي المزيد منهم عندما يشعرون بالجلبة. سرعان ما ستنتشر أخبار ما حدث في الساحة في أنحاء بيت المقدس. سيعرف الجميع أن الحاكم الوصي على المدينة قد ذُبِح على منصة الإعدام الخاصة به، وأن حراسه يطاردون الحشاش المسؤول. تخيل الطائر ساخرًا سعادة مالك بهذه الأخبار.

وإن كان قد بدا مختلفًا حين زاره الطائر آخر مرة. لم يرحب به بذراعين مفتوحتين بالطبع، لكن العدائية الواضحة قد اختفت وحلَّ محلها الضجر. ونظر إلى الطائر بعبوس بدلًا من الغضب.

زفر وسأله: «لماذا تزعجني اليوم؟».

ارتاح الطائر لأنه ليس مضطرًّا إلى مجادلته، فأخبره بهدفه مجد الدين.

أومأ مالك وقال: «ترك غياب صلاح الدين المدينة دون قائد مناسب. فنصب مجد الدين نفسه لهذا الدور. حصل على مبتغاه بالخوف والترهيب. هذا المنصب ليس من حقه».

قال الطائر: «هذا الوضع سينتهي اليوم».

- تتحدث ببساطةٍ شديدة. نحن لا نتحدث عن تاجر عبيد بسيط. إنه يحكم بيت المقدس، لذلك فهو محمي بشدة. أقترح أن تخطط لهجومك بدقة. فلتعرف أكثر عن فريستك.

أكد له الطائر: «لقد فعلت بالفعل. يقيم مجد الدين إعدامًا عامًّا بالقرب من هنا. سيكون تحت حراسةٍ مشددة بالطبع، لكن أستطيع تولي الأمر. أعرف ماذا أفعل».

سخر مالك قائلًا: «لهذا ستظل مبتدئًا في نظري. لا يمكن أن تعرف كل شيء، بل تشتبه فقط. يجب أن تتوقع نسبة خطأ أو غفلة. توقع أيها الطائر. كم مرة عليَّ تذكيرك بهذا؟».

- كما تريد. هل انتهينا؟

- ليس تمامًا. أحد المحكوم عليهم بالإعدام هو أخٌ لنا في الجماعة. يريد المعلم إنقاذه. لا تقلق بشأن عملية الإنقاذ نفسها لأن رجالي سيتولون أمرها. لكن يجب أن تحرص على ألا يعدمه مجد الدين.

- لن أمنحه الفرصة.

حذره مالك وهو يغادر: «لا تُفسد الأمر أيها الطائر».

أخذ الطائر يفكر في هذا بينما يسير إلى حائط المبكى.




telegram @
yasmeenbook

# 23

بينما يقترب من حائط المبكى، رأى الطائر الحشود بدأت تجتمع. رجال ونساء وأطفال وكلاب وماشية أيضًا. يأتون من كل الشوارع المحيطة بالميدان باتجاه ساحة الإعدام.

انضم إليهم الطائر وسار في شارعٍ أخذ يمتلئ بالمارَّة المتحمسين الذاهبين في الاتجاه نفسه. استمع إلى المنادي وهو يشعل حماس الجمهور للحدث الوشيك، وإن كان لا يحتاج إلى هذا.

قال المنادي: «انتبهوا. مجد الدين حاكم بيت المقدس المحبوب سيحضر إعدامًا عامًّا في الجهة الغربية لهيكل سليمان. مطلوب حضور كل المدنيين القادرين. أسرعوا! تعالوا واشهدوا على مصير أعدائنا».

يعرف الطائر ماذا سيحدث، ويأمل في تغيير النتيجة.

كان حراس الميدان يحاولون السيطرة على الجمهور المحتشد، فيمنعون البعض ويُدخلون البعض. تمهل الطائر في الخلف يشاهد الجموع المتدافعة عند البوابة بينما تضغط عليه الأجساد وهو واقفٌ في الشارع. اندفع الأولاد عبر أرجل المشاهدين ليتسللوا إلى الساحة. ثم لمح مجموعةً من الباحثين، وبدأ الناس يفسحون لهم الطريق. حتى الكلاب بدا أنها شعرت بالهيبة المنبعثة من هؤلاء الرجال الوقورين. هندم الطائر رداءه واندمج مع الجموع. انتظر مرور الباحثين ثم تسلل

بينهم. في تلك اللحظة أمسكت يدٌ بكُمه. نظر إلى الأسفل فرأى طفلًا متسخًا ينظر إليه بتساؤل. زمجر فيه فخاف الولد وابتعد.

في الوقت المناسب تمامًا لأنهم وصلوا إلى البوابات، حيث تنحى الحراس جانبًا لإفساح الطريق للباحثين، ودخل الطائر الساحة معهم.

تحيط الجدران الحجرية الخشنة بالساحة من كل الجهات. وفي آخرها منصة مرتفعة عن الأرض عليها مجموعة أوتاد. كانت خالية حاليًّا، لكن ليس لوقتٍ طويل. سار مجد الدين حاكم بيت المقدس على المنصة. ومع ظهوره دوى صخبٌ شديد وتعالت الهتافات عند المدخل وفقد الحراس السيطرة وتدفق الناس. ترك الطائر التيار يحمله حتى أصبح قريبًا جدًّا من المنصة ومجد الدين المهيب الذي يتمشى عليها بانتظار امتلاء الساحة. كان يرتدي عمامةً بيضاء ورداءً طويلًا مزخرفًا. تحرك بغضب، كأن روحه تكاد تخرج من جسده.

إنها على وشك هذا فعلًا.

زأر قائلًا: «صمتًا! آمركم بالسكوت».

مع بداية العرض، اندفع الناس مرةً أخيرة وحملوا الطائر معهم. رأى حراسًا متمركزين على سلالم المنصة من الجانبين. اثنان عند كل طرف. ورأى المزيد أمام المنصة ليمنعوا الحشد من التسلق والصعود. لوى عنقه فرأى آخرين يحيطون بالساحة. على الأقل هؤلاء سيَصعُب عليهم التحرك بين الحشود، لكن هذا سيمنحه ثوانٍ فقط حتى يقتل الهدف ويتخلص من أقرب الحراس. الحراس الأربعة على الجانبين هم الأقرب. وربما مَن يقفون تحت المنصة أيضًا.

هل يستطيع أن يهزمهم جميعًا خلال ثوانٍ؟ عشرة مقاتلين عرب تقريبًا؟ الطائر الذي هاجم روبرت دي سابل في هيكل سليمان ما كان

ليشك بهذا. أما الآن، فلقد أصبح أكثر حذرًا. كان يعلم أن محاولة القتل المباشر ضربًا من الجنون وستؤدي إلى حتمية الفشل.

بمجرد أن قرر الانتظار، قاد الحراس طابورًا من أربعة مساجين إلى الأوتاد على المنصة، وبدؤوا في ربطهم. في طرف الطابور وقفت امرأة متسخة الوجه تبكي. بجانبها رجلان يرتديان أسمالًا. وأخيرًا يقف الحشاش. رأسه مرتخٍ، وآثار الضرب واضحة عليه. همس الناس باستياء.

هتف مجد الدين: «اسمعوني يا أهل بيت المقدس». أسكت صوته الحشود التي تحمست مع وصول السجناء. «أقف أمامكم اليوم لألقي تحذيرًا». صمت قليلًا ثم واصل: «هناك ساخطون يعيشون بينكم، ويزرعون بذور السخط لتضليلكم».

تمتم الحشد حول الطائر بحماس.

واصل مجد الدين: «أخبروني، هل هذا ما تريدون؟ أن تغرقوا في مستنقع الخداع والخطيئة؟ أن تعيشوا في خوف؟».

صرخ مشاهد خلف الطائر: «لا».

كان انتباه الطائر منصبًّا على الحشاش، أخيه في الجماعة. رأى خيطًا من اللعاب الممتزج بالدماء يسيل من فمه إلى الخشب. حاول أن يرفع رأسه، فلمح الطائر وجهه المغطى بكدماتٍ زرقاء منتفخة. ثم عاد رأسه يرتخي مجددًا.

ابتسم مجد الدين ابتسامة ملتوية تدل على أن هذا الوجه لم يعتد الابتسام. ثم سأل الحشد واثقًا من الإجابة: «هل تريدون بعض الإثارة إذًا؟».

هتف الحشد بالموافقة. لقد جاؤوا متعطشين للدماء، ويعرفون أن الحاكم الوصي سيروي عطشهم.

هتف صوتٌ بينما هدأت الصيحات: «أرشدنا».

قال مجد الدين: «يسعدني إخلاصكم». ثم استدار إلى السجناء وأشار إليهم بذراعه قائلًا: «يجب استئصال هذا الشر. عندها فقط يمكننا أن نأمل في الخلاص».

فجأة صدرت بعض الجلبة أمام المنصة، وهتف شخصٌ ما: «هذه ليست عدالة».

رأى الطائر رجلًا يرتدي أسمالًا يهتف في مجد الدين: «أنت تحرف كلام الرسول عليه الصلاة والسلام».

كان معه رفيق يرتدي ملابس بالية أيضًا ويوبخ الحشد: «جميعكم تشاركونه الجريمة بسكوتكم».

استغلَّ الطائر الجلبة ليقترب أكثر. عليه أن يصعد من الطرف الذي يوجد به الحشاش المربوط في الوتد. لا يمكنه المخاطرة بأن يستخدموه درعًا أو رهينة.

هتف الرجل الأول في الحشد: «لعنة الله عليكم».

لكن لم يساندهما أحد. لا من الحشد ولا من الحراس الذين بدؤوا يتحركون نحوهما. ركض الرجلان بمجرد رؤية الحراس قادمين. أخرجا خناجر ولوَّحا بها وهما ينطلقان في محاولةٍ عقيمة نحو المنصة. أطلق الرماة على أحدهما. أما الثاني فطارده حارسان ولم يستطع رؤية الثالث الذي شقَّ بطنه بسيفه.

استلقيا يحتضران على التراب. أشار إليهما مجد الدين وقال: «أرأيتم كيف يكون الفساد معديًا؟». ارتجفت لحيته السوداء بغضب: «أرادا زرع الخوف والشك فيكم. لكنني سأحميكم».

استدار إلى المساجين البؤساء الذين تمنوا أن تنجح محاولة اغتياله، لكنهم شاهدوه برعب وهو يسحب سيفه.

أشار مجد الدين بسيفه إلى كلٍّ منهم بدءًا من المرأة، وقال: «هؤلاء الأربعة دنستهم الخطيئة. العاهرة، واللص، والمقامر، والزنديق. فلينزل عليهم العقاب الإلهي».

الزنديق هو الحشاش. استعد الطائر وبدأ يقترب من درج المنصة. أبقى عينيه على مجد الدين وهو يسير إلى المرأة أولًا. العاهرة. لم تستطع أن تبعد عينيها عن السيف الذي يحمله إلى جانبه ببساطة، فأخذت تنوح بهستيريا.

صاح مجد الدين بصوتٍ يعلو على بكائها: «غانية! باغية. عاهرة. تختلف الأسماء والخطيئة واحدة. خالفت تعاليم الرسول عليه الصلاة والسلام. دنست جسدها لمصالحها الشخصية. كل رجل لمسها صار ملعونًا للأبد».

هتف الحشد باستياءٍ منها. تحرك الطائر بضع خطوات نحو درج المنصة. راقب الحراس ولاحظ أن انتباههم منصبٌّ على مجد الدين. جيد.

هتف أحد المشاهدين: «عاقبها».

لقد غسل مجد الدين عقولهم حتى صاروا في حالةٍ دائمة من الغضب.

هتف آخر: «يجب أن تدفع الثمن».

توقفت المرأة عن البكاء لتهتف بالحشد المطالب بدمها: «هذا الرجل **كاذب**. سبب وجودي هنا ليس علاقتي مع الرجال، بل عدمها. إنه يريد قتلي لأني رفضته».

اشتعلت عينا مجد الدين وهو يقول: «حتى الآن ونحن نعرض عليها التوبة، تواصل الخداع. إنها ترفض الخلاص. هناك طريقة واحدة للتعامل مع هذا الأمر».

بالكاد صرخت بكلمة: «لا» بينما يرفع سيفه ويطعنها. لم يكسر لحظة الصمت التالية إلا صوت دمائها وهي تسيل على ألواح المنصة. ثم انطلق هتافٌ جماعي بينما يتحرك الناس الواقفون على الأطراف حتى يروا المرأة المقتولة من زاويةٍ أفضل.

أصبح الطائر أقرب إلى الدَّرج الآن، لكن حركة الحشد المفاجئة جعلته مكشوفًا إلى حدٍّ ما. بعدها استعد الجمهور للإعدام التالي فتحركوا جانبًا، فارتاح الطائر.

أشار مجد الدين إلى الرجل المقامر كما وصفه. رجلٌ لا يستطيع كبح نفسه عن الخمر والقمار.

صرخ الحشد: «عارٌ عليه».

فكر الطائر أن هؤلاء الناس هم المخمورون، وشعر بالاشمئزاز من تعطشهم للدماء.

هتف المقامر كأنه يلقي نَرده مرة أخيرة: «وهل الموت عقوبة القمار؟ أرني أي نص يذكر هذا الحكم. ليست الخطيئة ما تفسد مدينتنا، بل أنت».

عارضه مجد الدين: «هل تقول إذًا أنه لا بأس بمخالفة تعاليم رسولنا عليه الصلاة والسلام؟ ولو تجاهلنا نحن تعاليمه، ماذا سيفعل الآخرون؟ كيف سينتهي الأمر؟ بالفوضى أكيد. لا يمكن السماح بهذا».

لمع سيفه تحت شمس الظهيرة وهو يدفعه بقوة في بطن المقامر، ثم زمجر وهو يرفع السيف للأعلى فاتحًا شقًّا رأسيًّا في بطنه وكاشفًا عن أمعائه. هتف الحشد ببهجةٍ تثير الاشمئزاز، وبدؤوا يتحركون جانبًا ليشاهدوا الإعدام التالي، آخذين معهم الطائر ليقترب أكثر من الدَّرج.

سار مجد الدين إلى السجين الثالث وهو ينفض الدماء عن سيفه ثم يشير إلى الأسير المرتجف ويقول: «هذا الرجل أخذ ما ليس له. سرق مالًا كسبه شخصٌ آخر من عمله. كان يمكن أن يكون هذا المال لأيٍّ منكم. مما يعني أنكم كلكم تعرضتم لهذا الاعتداء. ما ردك؟».

قال المتهم متوسلًا الرحمة من الحشد: «كان دينارًا واحدًا وجدته على الأرض. لكنه يتحدث كأنني اقتحمت بيتًا أو سلبته من يد شخصٍ آخر».

لكن الحشد لم يكن رحيمًا. إنهم ينشدون الدماء. لقد جن جنون الناس.

صرخ مجد الدين: «اليوم دينار وغدًا حصان وبعده روح إنسان. لا يهم ما سرقته، بل فكرة أنك أخذت ما ليس لك. لو سمحت بهذا السلوك، فسيظن الآخرون أن لهم الحق في فعله. كيف سينتهي الأمر إذًا؟».

تحرك أمام اللص وقطع توسلاته الأخيرة بطعنة في البطن.

الآن سيدير انتباهه للحشاش. يجب أن يتصرف الطائر بسرعة. لديه لحظات وحسب. خفض رأسه وبدأ يشقُّ طريقه بين الحشود بحذر حتى لا يلفت الانتباه. بل يبدو كأنه يريد الاقتراب من الصف الأمامي

للمشاهدة وحسب. وصل مجد الدين إلى الحشاش وتمشى أمامه وجذب شعره ليرفع رأسه أمام الناس.

زأر بشراسة: «هذا الرجل ينشر دعاية وأكاذيب خبيثة. لا يفكر إلا في القتل. يسمم عقولنا كما يسمم نصله. يقلب الأخ على أخيه. والأب على ابنه. إنه أخطر من أي عدوٍّ قابلناه. إنه حشاش».

شهق الحشد في نفسٍ واحد. وصل الطائر إلى الدَّرج الآن. صرخ الجمهور الهائج المتحمس طلبًا للضربة القاتلة.

- دمر هذا الكافر!

- اقتله!

- انحر عنقه!

قال الحشاش الذي ما زال مجد الدين يرفع رأسه: «قتلي لن يجعلكم بمأمن. أرى الخوف في أعينكم. أسمع الرجفة في أصواتكم. أنتم خائفون. خائفون لأنكم واثقون من أن رسالتنا لا يمكن كتمها. ولأنكم تعرفون أنه لا يمكن إيقافنا».

وصل الطائر أسفل الدَّرج مباشرةً، ووقف كأنه يحاول أن يجد زاوية رؤية أفضل. رآه آخرون وقلدوه. انتبه الحارسان الواقفان أعلى الدرج، لكنهم أدركوا ما يحدث تدريجيًّا. نادى أحدهم البقية ونزلوا ليأمروا الناس بالتراجع. لكن اندفع المزيد من الناس إلى الدرج، راغبين في الاقتراب من عملية الإعدام قدر المستطاع. أخذوا يتزاحمون ويتدافعون حتى سقط بعضهم من على الدرج، من بينهم أحد الحراس الغاضبين. استغل الطائر هذا الاضطراب ليصعد أكثر حتى أصبح على بُعد خطوات من مجد الدين الذي ترك رأس الحشاش وبدأ يعظ الحشد عن «هرطقته» و «خيانته».

فجأة حذرته غريزته بالخطر، فتوقف واستدار ونظر إلى الطائر مباشرةً.

للحظةٍ تجمدت الساحة، كأن الحشد المضطرب والحراس والسجين والجثث قد اختفوا جميعًا. وقف الرجلان ينظران بعضهما إلى بعض. رأى الطائر في وجه مجد الدين أنه أيقن موته الوشيك. قبض الطائر أعصاب إصبعه البنصر فأطلق النصل واندفع للأمام ملوحًا به حتى غرسه في مجد الدين. لم يستغرق الحدث إلا طرفة عين.

هتفت الحشود وصرخوا عاجزين عن فهم ما حدث. وقع مجد الدين متلويًا والدم ينزف من جرح عنقه، لكن الطائر أوقفه بركبتيه ورفع نصله قائلًا: «لقد انتهى عملك هنا».

استعد وكان على وشك أن ينهيه بالضربة القاضية. ساد الهرج والمرج حولهما. أدرك الحراس للتو ما حدث، وحاولوا شق طريقهم إلى المنصة عبر الحشد المذعور. على الطائر أن ينتهي من هذا الأمر بسرعة، لكنه يريد أن يسمع ما سيقوله مجد الدين.

قال مجد الدين: «لا. لا. لقد بدأ الأمر للتو».

- أخبرني، ما دورك في كل هذا؟ هل تنوي أن تدافع عن نفسك كما فعل الآخرون وتبرر شرورك؟

- الأخوية أرادت المدينة، وأنا أردت السلطة. وجدت في هذا.. فرصة.

قال الطائر: «فرصة لقتل الأبرياء».

سمع الطائر صوت خطواتٍ تركض. إن الناس يهربون من الساحة.

قال مجد الدين: «ليسوا أبرياء بالكامل. إن تأثير المُنشقِّين خطير على المجتمع. وهم يثيرون الفوضى. في هذا أتفق مع الأخوية».

- إذًا، هل تقتل الناس لمجرد اختلافهم معك في الفكر؟

- بالطبع لا. بل أقتلهم لأنني أستطيع. لأن الأمر ممتع. هل تدرك شعور أن تتحكم في مصير رجلٍ آخر؟ هل رأيت هتاف الناس؟ هل رأيت خوفهم مني؟ كنت كالإله. كنت ستفعل مثلي لو استطعت. يا لها من قوة!

- ربما فعلت في الماضي، لكنني عرفت ماذا يحدث لمَن يضعون أنفسهم فوق الآخرين.

- وماذا يحدث لهم؟

- دعني أريك.

قضى على مجد الدين ثم أغلق عينَي هذا الطاغية وغمس الريشة بدمه وقال: «كل نفسٍ ذائقة الموت».

بعدها وقف وواجه الحراس في الوقت نفسه الذي دق فيه جرس الإنذار.

اندفع جندي عربي نحوه فصدَّ هجومه وزمجر وهو يردعه. اندفع المزيد من الرجال إلى المنصة حتى وجد نفسه يواجه ثلاثة في آنٍ واحد. سقط أحدهم وهو يصرخ بينما يقضي عليه الطائر. لمح الحشاش ثغرةً في الهجوم، فقفز عن المنصة وأطلق نصله وغرسه في أحد الحراس وهو يهبط منفذًا اغتيالًا جويًّا، فطار السيف من يد الحارس.

رأى الطائر الآن فرصة هروبه الوحيدة في الساحة، فأبعد مهاجمين آخرين وهو يندفع إلى البوابة. تلقى ضربة سريعة وشعر بدماءٍ دافئة تسيل على ذراعه، ثم أمسك جنديًّا سيافًا ودفعه نحو سيافٍ آخر فتعثر الاثنان في التراب وهما يصرخان. اندفع الطائر إلى البوابة، ووصل إليها بينما يندفع عبرها ثلاثة جنود. كان لديه عنصر المفاجأة. فطعن أحدهم بسيفه، ونحر عنق الثاني بنصله، ثم دفع الرجلين المحتضرين إلى الثالث.

صارت البوابة خالية، فاختلس النظر إلى المنصة ورأى رجال مالك يحررون الحشاش ويأخذونه بعيدًا. عبر المدخل حيث يوجد جندي رابع اندفع نحوه حاملًا رمحًا ويصرخ. قفز الطائر متفاديًا إياه وتعلق بحافة إطارٍ خشبي ثم رفع نفسه على المظلة المشدودة على الإطار. تسلق إلى السطح ونظر إلى الأسفل فرأى مجموعةً من الجنود يتبعونه. قتل أحدهم بسكين رماها من أعلى ليعطلهم، ثم ظل يركض عبر الأسطح حتى توقفت دقات الجرس. فنزل واختفى بين الحشود مستمعًا إلى الأخبار التي انتشرت عبر المدينة. لقد قتل حشاش الحاكم الوصي.

# 24

ما زال هناك شيءٌ يريد أن يعرفه الطائر.

ومع موت آخر حكام المدن، حان الوقت للسؤال عنه. استعدَّ وهو يدخل مجددًا إلى غرفة المعلم.

قال المعلم: «تعال أيها الطائر. هل نلت كفايتك من الراحة واستعددت لباقي مهماتك؟».

- نعم. لكنني أود التحدث معك أولًا. لديَّ أسئلة.

عبَّر المعلم عن انزعاجه برفع ذقنه وزم شفتيه قليلًا. لا شك أنه تذكر آخر مرة ألح عليه الطائر بالسؤال. كذلك تذكر الطائر الذي قرر التزام الحذر هذه المرة حتى لا يسحب المعلم سيفه مجددًا.

قال المعلم: «اسأل إذًا، وسأبذل ما بوسعي للإجابة».

سحب الطائر نفسًا عميقًا وقال: «قتل ملك تجار دمشق النبلاء الذين يحكمون مدينته. واستخدم مجد الدين في بيت المقدس الخوف ليجبر شعبه على الخضوع. وأظن أن ويليام أراد قتل ريتشارد والاستيلاء على عكا بقواته. من المفترض بهؤلاء الرجال أن يساعدوا قادتهم، لكنهم اختاروا خيانتهم. لا أفهم السبب».

- أليس الجواب واضحًا؟ فرسان الهيكل يريدون السيطرة. كما عرفت بالفعل، فإن كل رجل أراد الاستيلاء على مدينته باسم

فرسان الهيكل حتى يمكنهم حكم الأراضي المقدسة وما بعدها في النهاية. لكن لا يمكن أن نسمح لهم بالنجاح في مهمتهم.

سأله الطائر: «لماذا؟».

- تعتمد خطتهم على كنز فرسان الهيكل، **قطعة عدن**. لكنها معنا الآن. ولا يمكنهم تحقيق أهدافهم دونها.

بالطبع. أدرك الطائر أن هذا هو الغرض الذي أشار إليه العديد من أهدافه.

- وما هذا الكنز؟

ابتسم المعلم ثم ذهب إلى آخر الغرفة وانحنى وفتح صندوقًا. أخرج منه علبة وعاد إلى المكتب ووضعها فوقه. عرف الطائر ما هي دون أن ينظر إليها، مع ذلك لم يستطع مقاومة النظر. لا، بل العلبة هي التي جذبت نظره عنوة. إنها العلبة نفسها التي استرجعها مالك من الهيكل، ما زالت تلمع، كأنها تشع نوعًا من الطاقة. كان يعرف منذ البداية. لقد أدرك أن هذا هو الكنز الذي ذكره الرجال. انتقلت نظرته من العلبة إلى المعلم الذي كان يراقب رد فعله. حمل وجه المعلم تعبيرًا متساهلًا، كأنه رأى الكثيرين يتصرفون هكذا، وهي مجرد البداية.

مد يده إلى العلبة وأخرج منها كرةً بحجم قبضتين. كانت كرة ذهبية عليها نقوش، وبدا أنها تنبض بطاقة. لذلك تساءل الطائر إن كانت عيناه تخدعانه. بدا كأنها حية بشكلٍ ما. لكنه كان مشتتًا، وشعر بالكرة تجذبه.

قال المعلم بهيبة: «إنه الإغواء».

فجأة توقفت الكرة عن النبض وتبددت هالتها المضيئة واختفت قوتها الجاذبة. مثل شمعة تنطفئ في لحظة. أصبحت مجرد كرة. كرة أثرية جميلة، لكنها مجرد شيء عادي.

قال الطائر: «إنها مجرد قطعة من الفضة».

قال المعلم بإصرار: «انظر إليها».

قال الطائر: «إنها تومض قليلًا وحسب. ليس بها ما يميز. ما الذي يفترض بي أن أراه؟».

- تلك «القطعة من الفضة» هي السبب في طرد آدم وحواء. هذه هي **التفاحة**. هي ما حولت العُصِيَّ إلى ثعابين. وشقت البحر الأحمر. وهي ما استخدمتها إريس لإشعال حرب طروادة. وبها حوَّل نجار بسيط الماء إلى نبيذ.

*التفاحة، قطعة عدن؟* نظر الطائر إليها بريبةٍ وقال: «إنها تبدو بسيطة مقارنةً بكل القوة التي تزعمها فيها. كيف تعمل؟».

- إن مَن يحملها يتحكم بقلوب وعقول من ينظر إليها، أو «يتذوق تأثيرها» كما يقولون.

قال الطائر وهو يفكر في البؤساء الذين في المستشفى: «إذًا رجال دي نابلس...».

- كانوا تجربة. استخدموا عليهم أعشابًا معينة لتحفيز التأثير استعدادًا للمواصلة حين يستعيدون التفاحة.

الآن فهم الطائر: «إن طلال يوفر الرجال. وتامر يسلحهم. كانا يخططان لشيءٍ ما. لكن ما هو؟».

قال المعلم مباشرةً: «الحرب».

- والآخرون.. حكام المدن السابقون.. كان من المفترض أن يجمعوا شعبهم، ليحولوهم مثل رجال دي نابلس.

- مواطنون مثاليون. جنود مثاليون. عالم مثالي.

قال الطائر: «يجب ألا يستعيد روبرت دي سابل هذا الشيء».

قال المعلم: «ما دام هو ورفاقه أحياء، فسيواصلون المحاولة».

- يجب القضاء عليهم إذًا.

ابتسم المعلم وقال: «وهذا ما كلفتك به بالفعل. هناك اثنان آخران من فرسان الهيكل بحاجةٍ إلى انتباهك. أحدهما في عكا، اسمه سيبراند. والآخر في دمشق، واسمه جبير. زُر قائدَي المقرين. سيمدانك بالمعلومات».

قال الطائر وهو يومئ برأسه: «كما تريد».

قال المعلم: «فلتسرع. لا شكَّ أن روبرت دي سابل يشعر بالتوتر من نجاحنا المستمر. أما أتباعه الباقون فسيبذلون جهدهم لكشفك. إنهم يعرفون بقدومك. أنت الرجل ذو الرداء الأبيض. سيبحثون عنك».

قال الطائر: «لن يجدونني. أنا نصل يتخفَّى وسط الزجاج».

ابتسم المعلم شاعرًا بالفخر بتلميذه.

# 25

المعلم هو من علمهما العقيدة، الطائر الصغير وعباس الصغير. ملأ المعلم عقليهما الصغيرين بمبادئ الأخوية.

كل يوم بعد إفطارٍ من الخبز السادة والتمر، تحرص مربيات حازمات على أن يستحما ويرتديا ملابس مهندمة. بعدها يحملان كتبهما ويركضان بين الممرات. تضرب نعالهما الأرض بصخب ويثرثران بحماس حتى يصلا إلى باب مكتب المعلم.

هناك يقومان بطقوسٍ خاصة. يضع كلٌّ منهما يده على فمه ليتحول من وجهٍ سعيد إلى وجهٍ جاد، الوجه الذي يتوقعه المعلم. بعدها يدق أحدهما. لسببٍ ما يحب كلاهما دق الباب، لذلك يتبادلان الأدوار كل يوم، ثم ينتظران إذن المعلم. هناك يجلسان القرفصاء على وسائد أعدها المعلم خصوصًا لهما، واحدة للطائر وأخرى لأخيه عباس.

في بداية تعليمهما، كانا خائفين وغير واثقين، من نفسيهما ومن بعضهما ومن المعلم. كان المعلم يعلمهما صباحًا ومساءً، بالإضافة إلى التدريب في الساحة عصرًا وليلًا. قضيا ساعاتٍ طويلة في تعلم أساليب الأخوية ومشاهدة المعلم يسير ذهابًا وإيابًا في مكتبه ويداه خلف ظهره. وبين حينٍ وآخر يتوقف لتوبيخهما إذا تشتت انتباههما.

كانا يهابان عينه الواحدة ويتجمدان منها أحيانًا. حتى همس عباس له ذات ليلة في غرفتهما: «أيها الطائر؟».

استدار الطائر إليه بدهشة. لم يفعل أيهما هذا من قبل. لم يحدثا بعضهما بعضًا بعد إطفاء الأنوار. بل يظلان صامتَين ويشرد كلٌّ منهما في أفكاره. حتى تلك الليلة. كان القمر بدرًا، فجعل الستائر تشع باللون الأبيض وتضيء الغرفة بضوء رمادي هادئ. كان عباس مستلقيًا على جانبه وينظر إلى الطائر. وعندما لفت انتباهه، غطى عينًا بيده وقال مقلدًا صوت المعلم: «نحن لا نساوي شيئًا إن لم نلتزم بعقيدة الحشاشين».

عندها انفجر الطائر بالضحك، ومن وقتها أصبحا صديقين. صار المعلم يوبخهما على ضحكاتهما المكتومة كلما أدار ظهره. أما المربيات فتفاجأن أن الولدين لم يعودا وديعين وخاضعين.

علَّمهما المعلم مبادئ العقيدة -المبادئ التي تجاهلها الطائر لاحقًا ودفع الثمن غاليًا- أخبرهما المعلم أن الحشاشين ليسوا قتلة عشوائيين كما يحب العالم أن يظن، بل يحملون مهمة استئصال جذور الشر والفساد. إن مهمتهم هي تحقيق السلام والاستقرار في الأراضي المقدسة، وأن يزرعوا فيها مبادئ التفكير والتأمل بدلًا من العنف والصراع.

علَّمهما التحكم في مشاعرهما وعواطفهما. أن يخفيا انفعالاتهما ويندمجا مع العالم من حولهما حتى يتحركا بين الناس العاديين دون كشف أمرهما، مثل الفراغ، أو شبح بين الزحام. يجب أن يكون الحشاش في نظر الناس سحرًا غامضًا. لكن كحقيقة أي سحر، إنه واقع تتحكم به إرادة الحشاش.

علمهما حماية الجماعة في كل وقت، وأن الأخوية *أهم منك أيها الطائر. وأهم منك يا عباس. وأهم من قرية مصياف ومني أنا شخصيًّا.*

بالتالي لا يجب لتصرفات حشاش واحد أن تضر الجماعة. لهذا على الحشاش ألا يخاطر بالأخوية.

عندما تجاهل الطائر هذا المبدأ لاحقًا، لم يكن بسبب افتقاره لتعاليم المعلم. لقد علَّمهما أن البشر وضعوا حدودًا، وحددوا ما هو «حقيقة» و «واقع». لكنها حدودٌ زائفة فرضها مَن نصَّبوا أنفسهم قادة. أراهما أن حدود الواقع أكبر من خيال البشر المحدود. والقليلون فقط هم من يمكنهم رؤية ما وراء الحدود. قلةٌ فقط هم من جرؤوا على التشكيك في الوجود.

إنهم الحشاشون.

ولأن الحشاشين يمكنهم رؤية حقيقة العالم، إذًا فكل شيءٍ ممكن في نظرهم. ولهذا فإنه لا شيء واقعٌ مطلق، بل كلٌّ ممكن.

كل يوم كان يتعلم الطائر وعباس المزيد عن الجماعة، ويتقاربان أكثر. قضيا معظم وقتهما معًا. مهما كان درس المعلم، فإن حياتهما اليومية ظلت ثابتة. تكونت من صحبة بعضهما بعضًا، ورعاية المربيات، ودروس المعلم، وتدريبات قتالية مختلفة الأنواع. وعلى خلاف شعار أن «كلًّا ممكن»، فإنه لا شيء كان مسموحًا فعلًا. وقع على عاتق الولدين تسلية نفسَيهما. لذلك قضيا ساعاتٍ طويلة بالتحدث بدلًا من الدراسة. نادرًا ما تحدثا عن والديهما. في البداية لم يتحدث عباس إلا عن عودة والده أحمد إلى مصياف، لكن بمرور الشهور والسنوات قلَّ حديثه عنه. كثيرًا ما رآه الطائر واقفًا عند النافذة يراقب الوادي بعينين دامعتين. بعدها بدأ صديقه ينطوي على نفسه، وقل حديثه. لم يعد سريع الابتسام. صار يقف عند النافذة، بعدما كان يقضي ساعاتٍ بالكلام.

قال الطائر لنفسه إنه لو عرف عباس الحقيقة فسيشتعل حزنه ويشتد ثم سيستسلم للألم، كما حدث معه. إن حقيقة موت والده تؤلمه

كل يوم، لكنه يعرف الحقيقة على الأقل. هذا هو الفرق بين ألم فاتر ويأسٍ مستمر.

لهذا أخبر عباس بالحقيقة ذات يوم بعد إطفاء الشموع. حنى رأسه وقاوم دموعه، وأخبر عباس أن أحمد جاء إلى غرفته وقتل نفسه. قرر المعلم أنه من الأفضل إخفاء الحقيقة عن الأخوية *لحمايتك. لكنه لم يرَ اشتياقك إليه. أنا أيضًا فقدت والدي، لذلك أفهمك. أعرف أن هذا الألم يهدأ مع الوقت. أخبرتك لأنني أرجو مساعدتك يا صديقي.*

طرف عباس بعينيه في الظلام، ثم استدار على جانبه. تساءل الطائر كيف كان يتوقع رد فعل عباس. بكاء؟ غضب؟ عدم تصديق؟ لقد استعد لكل هذا. حتى إنه استعد لمنع عباس بالقوة حتى لا يذهب إلى المعلم. لكن ما لم يتوقعه هو هذا.. الفراغ. الصمت.

# 26

وقف الطائر على أحد الأسطح في دمشق، ونظر إلى الأسفل إلى هدفه التالي.

أثارت رائحة الاشتعال اشمئزازه. وكذلك المشهد. مشهد احتراق الكتب. شهد الطائر الكتب وهي تتجعد وتتفحم وتحترق. تذكر والده الذي كان سيشمئز من المنظر، وكذلك المعلم حين يخبره. فحرق الكتب بمنزلة إهانة لعقيدة الحشاشين. العلم معرفة، والمعرفة حرية وقوة. هذا ما يعرفه. لقد نسيه، لكن تذكره من جديد.

وقف على حافة السطح بعيدًا عن الأنظار ينظر إلى فناء مدرسة جبير في دمشق. ارتفع الدخان إلى حيث يقف، لكن كل الانتباه كان منصبًّا على النيران وأكوام الكتب والوثائق واللفائف في وسط الفناء. النيران وجبير الحكيم الذي وقف بقربها يهتف بالأوامر. لاحظ الطائر أن كل شخص امتثل للأوامر ما عدا واحدًا. وقف هذا الباحث جانبًا ينظر إلى النيران، وعبرت ملامحه عن أفكار الطائر.

ارتدى جبير حذاءً جلديًّا ورابطة رأس سوداء، وعلى وجهه عبوسٌ دائم. راقبه الطائر بدقة. لقد عرف الكثير عنه. جبير هو رئيس الباحثين في دمشق، لكن بالاسم فقط. فهو أغرب باحث، حيث يصر على تدمير

العلم بدلًا من نشره. ولتحقيق هدفه، سجل أسماء أساتذة المدينة الذين شجع صلاح الدين على وجودهم.

ولماذا يفعلون هذا؟ يجمعون الوثائق ثم يدمرونها؟ لفرض أسلوبٍ جديد أو تنظيم جديد سمع عنه الطائر مسبقًا. طبيعته ليست واضحة، لكنه كان يعرف مَن يديره. إنهم فرسان الهيكل، ومن بينهم فريسته.

- يجب تدمير كل ورقة في هذه المدينة.

كان جبير يهتف برجاله بحماسٍ جنوني. انتشر مساعدوه من الباحثين في المكان وعادوا محملين بأكوام من الورق أحضروها من مكان لا يراه الطائر من زاويته. كانوا يرمونها في النيران التي تأججت واشتدت مع كل كومة ورق. لمح بطرف عينيه الباحث الشارد يزداد غضبًا حتى لم يعد قادرًا على كبح نفسه، واندفع مواجهًا جبير.

قال بنبرةٍ بسيطة تخالف يأسه الواضح: «يا صديقي، يجب ألا تفعل هذا. تلك الأوراق تحمل معرفة ثمينة كتبها أسلافنا لسببٍ وجيه».

توقف جبير ونظر إليه باحتقار ثم زمجر قائلًا: «وما هذا السبب؟».

ناشده الباحث: «إنها منارة لإرشادنا وإنقاذنا من ظلام الجهل».

رقصت ألسنة اللهب عاليًا من خلفه. جاء باقي الباحثين بالمزيد من الكتب التي رموها في النار، وألقى بعضهم نظرات متوترة إلى جبير والباحث المُعارض.

تقدم جبير خطوة للأمام مجبرًا المُعارض على التراجع وقال: «لا. تلك الأوراق محشوة بالأكاذيب. إنها تسمم عقولكم. وما دامت هي موجودة، فلن تروا حقيقة العالم».

حاول الباحث باستماتة أن يتفاهم بالمنطق ولم يستطع إخفاء غيظه وهو يقول: «كيف تتهم هذه اللفافات بكونها أسلحة؟ إنها أدوات للتعلم».

- أنتم تلجؤون لها طلبًا للإجابات والخلاص.

تقدم جبير خطوة فتراجع المعارض مثلها.

- أنتم تعتمدون عليها أكثر من اعتمادكم على أنفسهم. هذا ما يجعلكم ضعفاء وأغبياء. تثقون بالكلمات. مجرد نقاط من الحبر. هل توقفتم لحظة وفكرتم مَن كتبها؟ أو لماذا؟ لا، بل تقبلون كلامهم بلا نقاش. ماذا لو أن تلك الكلمات باطلة، كما هي عادةً؟ هذا خطِر.

بدا الباحث مرتبكًا. كأن أحدًا يخبره أن الأسود أبيض، أو أن الليل نهار. لكنه قال بإصرار: «أنت مخطئ. هذه النصوص تمنحنا هبة المعرفة. نحن نحتاج إليها».

اكفهر وجه جبير وقال: «أتحب نصوصك الثمينة إلى هذه الدرجة؟ أمستعد لفعل أي شيءٍ من أجلها؟».

- نعم، نعم. بالطبع.

ابتسم جبير بقسوةٍ وقال: «فلتنضم إليها إذًا».

ثم وضع يديه على صدر الباحث ودفعه للخلف بقوة. للحظةٍ تعثَّر الباحث واتسعت عيناه بدهشة وأخذ يلوح بذراعيه بجنون، كأنه يتمنى أن يطير بعيدًا عن النيران الجشعة. لكن قوة الدفعة أسقطته وسط اللهب مباشرةً، فأخذ يتلوى على سريرٍ مشتعل. ظل يصرخ ويركل بينما تمسك النيران بردائه. لوهلةٍ بدا كما لو أنه يحاول إخماد النار التي أمسكت بكمَّيه بالفعل. ثم توقفت صرخاته. وارتفع إلى الطائر الدخان المحمل برائحة احتراق لحمٍ بشري. غطى أنفه، وكذلك فعل الباحثون في الساحة.

خاطبهم جبير: «كل مَن يتكلم مثله فسيكون مجرد تهديد. هل يريد أحدكم أن يتحداني؟».

لم يرد أحد، بل نظروا إليه بأعين خائفة وهم يغطون أنوفهم بأيديهم.

قال جبير: «جيد. الأوامر بسيطة. اخرجوا إلى المدينة، واجمعوا أي كتابات متبقية، ثم كدسوها في أكوام في الشوارع. حين تنتهون سنرسل عربة تجمعها حتى ندمرها».

غادر الباحثون وخلا الفناء. كان مكانًا جميلًا مصنوعًا من الرخام الذي لوثته النيران للأبد. دار جبير حولها وتأملها. بين لحظةٍ وأخرى يلقي حوله نظرةً عصبية، وبدا كما لو أنه يرهف سمعه. لكن لا يمكن أن يسمع غير صوت طقطقة النيران وصوت أنفاسه. استرخى قليلًا فابتسم الطائر. يعرف جبير أن الحشاشين سيأتون للنيل منه. ظن نفسه أذكى من جلَّاديه حين نشر أشباهًا له في شوارع المدينة. وأرسل معهم حراسه الموثوقين حتى تكتمل الخدعة. تحرك الطائر بصمت بين الأسطح حتى وقف فوق مُشعِل الكتب مباشرةً. ظن جبير أنه بأمانٍ هنا، في مدرسته.

لكنه ليس كذلك. لقد أعدم آخر ضحاياه، وأحرق آخر كتاب.

**صليل.**

رفع جبير نظره ورأى الحشاش ينقض عليه من أعلى شاهرًا نصله. فات الأوان. حاول تفادي الهجوم بينما ينغرس النصل في عنقه. شهق وانهار على الأرض الرخامية.

رفرفت عيناه وهو يتساءل: «لماذا.. لماذا فعلت هذا؟».

نظر الطائر إلى جثة الباحث المتفحمة في النار. لقد ذاب جلد رأسه، فظهرت عظامه وبدا كأنه يبتسم.

قال الطائر لجبير: «يجب أن يكون الإنسان حرًّا في اتباع ما يؤمن به». سحب نصله من عنقه فنزف دمه على الرخام. «لا يحق لنا معاقبة أحد على تفكيره مهما اختلفنا معه».

سأله الرجل بضعف: «ماذا نفعل إذًا؟».

- من بين الناس جميعًا، الأجدر بك أن تعرف الإجابة. علينا تثقيفهم. تعليمهم الصواب والخطأ. يجب أن تكون المعرفة هي سبيل التحرر، وليس القوة.

ضحك جبير: «إنهم لا يتعلمون، بل يتمسكون بأساليبهم المعتادة. من السذاجة أن تظن غير هذا. إنه مرض أيها الحشاش، وله دواء واحد».

- أنت مخطئ. لهذا يجب القضاء عليك.
- ألست أنا مثل تلك الكتب الثمينة التي تسعى لإنقاذها؟ ألست مصدرًا لمعرفة تختلف معها؟ مع ذلك لم تتردد في قتلي.
- تضحية بسيطة لإنقاذ الكثيرين. هذا ضروري.
- أليست اللفائف القديمة هي ما ألهمت الصليبيين للغزو؟ وملأت صلاح الدين ورجاله بشعور الغضب المستحق؟ إن مخطوطاتهم تُعرض الآخرين للخطر. وتجلب الموت في ثناياها. أنا أيضًا كنت أقوم بتضحيةٍ بسيطة. (ابتسم): «لا يهم الآن. لقد نفذت مهمتك، وكذلك أنا».

لفظ أنفاسه الأخيرة وارتخت عيناه. نهض الطائر ثم اختفى بمجرد أن سمع خطوات أقدام تقترب. تسلق الأسطح ثم نزل إلى الشوارع واندمج بين الناس. أصبح نصلًا بين الزحام.

***

سأله المعلم حين تقابلا: «لديَّ سؤالان لك».

لقد أعاد للطائر رتبته وعاد حشاشًا محترفًا مجددًا. لكن يبدو أن المعلم أراد أن يتأكد من أن الطائر قد تعلم الدرس.

سأله الطائر: «ما هما؟».

رد الطائر: «نحن نؤمن بأنفسنا». كان تواقًا لإرضائه. أراد أن يثبت له أنه قد تغيَّر حقًّا. وأن إظهار الرحمة كان القرار الصائب. «نحن نرى حقيقة العالم، ونأمل أن تراها البشرية جمعاء ذات يوم».

- ما هو العالم إذًا؟

- وهم. إما أن نستسلم له مثل معظم الناس، أو نرتقي فوقه.

- وما هو الارتقاء؟

- أن ندرك أن القوانين لا تأتي من تقديس الثوابت بل من المنطق. أفهم الآن أن عقيدتنا لا تأمرنا بالحرية. (بدا أنه فهم فجأة وهو يضيف): بل تأمرنا بالحكمة.

حتى الآن كان يؤمن بالعقيدة دون أن يفهم جوهرها. إنها تدعو للتساؤل، لتطبيق الفكر والعلم والمنطق في كل المساعي.

أومأ المعلم وسأله: «هل فهمت الآن لماذا يشكل فرسان الهيكل تهديدًا؟».

- بينما نبدد نحن الوهم، هم يستغلونه للسيطرة.

- نعم. لتشكيل العالم كما يحبون. لهذا أرسلتك لسرقة كنزهم. ولهذا أخفيه. ولهذا تقتلهم. ما دام أحدهم ظل على قيد الحياة، ظلت رغبتهم في إقامة نظام عالمي جديد. يجب أن تطارد سيبراند. موته سيضعف روبرت دي سابل أخيرًا.

- سأفعل.

- مع السلامة أيها الطائر.

# 27

انطلق الطائر في رحلته إلى عكا متمنيًا أن تكون الأخيرة. عكا، تلك المدينة التي شوهتها المعارك وألبستها لباس الموت. أجرى تحرياته هناك ثم زار جبل في المقر ليأخذ العلامة. عندما ذكر اسم سيبراند، أومأ جبل بمعرفة وقال: «أعرف ذلك الرجل. لقد عُيِّن مؤخرًا قائدًا لمنظمة فرسان التيوتون. إنه يقيم في المنطقة الفينيقية ويدير ميناء عكا».

- لقد عرفت ما هو أكثر.

رفع جبل حاجبيه بانبهار وقال: «قل ما لديك».

أخبره الطائر أن سيبراند يصادر السفن في الميناء حتى يستخدمها لعمل حاجز. لكن ليس لمنع هجوم صلاح الدين حقًّا، فهذا هو الهدف الظاهري فقط. وفقًا لما عرفه الطائر، خطط سيبراند لمنع رجال ريتشارد من استقبال إمدادات أيضًا. هذا منطقي، ففرسان الهيكل يخونون أعوانهم. بدأت تتضح الأمور له؛ طبيعة الأداة الأثرية المسروقة، وهوية الأخوية التي تربط بين أهداف اغتياله، وحتى غرضهم النهائي. مع ذلك...

هناك إحساس يراوده ولا يستطيع التخلص منه. شعر بالتردد يحيط به مثل ضبابٍ كثيف.

- يقال إن سيبراند قد تملَّكه الرعب وجُن جنونه لمعرفته باقتراب موته. لقد أغلق منطقة الميناء واختبأ بها في انتظار وصول سفينته.

قال جبل: «هذا سيزيد خطورة المهمة. أتساءل كيف عرف بشأن مهمتك».

- إن الرجال الذين قتلتهم مرتبطون جميعًا. حذرني المعلم من أن أخبار أفعالي انتشرت بينهم.

قال جبل وهو يعطيه الريشة: «احذر أيها الطائر».

- بالطبع يا رفيق. لكن هذا لمصلحتي، فالخوف سيضعفه.

استدار ليغادر لكن جبل ناداه: «الطائر؟».

- نعم؟

- أنا أدين لك باعتذار.

- على ماذا؟

- لأنني شككت في إخلاصك للقضية.

فكر الطائر وقال: «لا. أنا المخطئ. وضعت نفسي فوق العقيدة. لست مدينًا لي بشيء».

- كما تريد يا صديقي. مع السلامة.

***

ذهب الطائر إلى الميناء، وتسلل بسهولة عبر حاجز الحراس الذي وضعه سيبراند. ارتفعت خلفه أسوار عكا المتهالكة، وامتد أمامه الميناء الذي امتلأ بالسفن وأرصفة المراسي وهياكل السفن والصناديق الخشبية. بعضها ما زال يعمل، وبعضها من بقايا حصار المدينة. تحول مشهد البحر الأزرق اللامع إلى محيط بني من حطام السفن.

كان الميناء بمنزلة مدينة مستقلة، بأحجاره الرمادية التي بهت لونها من الشمس. من يعملون ويعيشون هنا هم أهل الميناء، سِيماهم في وجوههم. طبيعتهم متساهلة، ووجوههم متجعدة ومعتادة على الابتسام.

لكن ليس اليوم. ليس تحت إمرة سيبراند، قائد فرسان التيوتون. لم يأمر فقط بإغلاق المنطقة، بل أيضًا نشر فيها حراسه. انتشر خوفه من الاغتيال كالوباء بين جيشه. تحركت مجموعات الجنود في الميناء وهم يديرون أعينهم في كل اتجاه. تحركوا بعصبية وهم يضعون أيديهم على مقابض سيوفهم باستمرار. كانوا متوترين، ويتعرقون في دروعهم الثقيلة.

لاحظ الطائر وجود جلبة، فاتجه نحوها عندما رأى مواطنين وجنودًا يفعلون المثل. رأى فارسًا يصرخ في رجل دين. وقف مرافقوه يتابعون ما يحدث بقلق، بينما اجتمع عمال الميناء والتجار لمشاهدة ما يحدث.

- أنت مخطئ سيد سيبراند. ما كنت لأشجع على استخدام العنف أبدًا ضد أي شخص، وخاصةً أنت.

هذا هو سيبراند إذًا. لاحظ الطائر الشعر الأسود والحاجبين الكثين والعينين القاسيتين اللتين تتحركان بجنون مثل كلبٍ مسعور. لقد سلَّح نفسه بكل سلاحٍ ممكن. امتلأ حزامه بالسيوف والخناجر والسكاكين. وحمل على ظهره قوسه الطويل، وعلى كتفه اليمنى جراب السهام. بدا مجهدًا، ومنهارًا.

قال وهو يمطر القس برذاذ لعابه: «هذا ما تقوله، مع ذلك لا أحد هنا يشهد معك. ماذا أفهم من هذا إذًا؟».

- أنا أعيش حياةً بسيطة يا سيدي، مثل كل رجال الدين. ليس من طباعنا لفت الانتباه لأنفسنا.

- ربما. (أغمض عينيه وفتحهما فجأة): وربما لا يعرفونك لأنك لست رجل دين، بل حشاش.

ثم دفع القس للخلف. وقع الرجل العجوز وارتطم بالأرض بشدة. ثم نهض على ركبتيه وهو يقول بإصرار: «مستحيل».

- ترتدي الرداء نفسه.

تملك اليأس من رجل الدين وهو يقول: «إن كانوا يرتدون مثلنا، فهذا لبث الشك والخوف فقط. يجب ألا تستسلم لهم».

هتف سيبراند بصوت مهتز: «هل تنعتني بالجبان؟ تتحدى سلطتي؟ ربما تريد أن تقلب فرساني ضدي؟».

- لا، لا. لا أفهم لماذا تفعل هذا لي. لم أرتكب أي خطأ.

- لا أتذكر أنني اتهمتك بارتكاب أي خطأ، مما يجعل انفعالك مريبًا. هل شعورك بالذنب هو ما يحثك على الاعتراف؟

قال القس: «لكنني لم أعترف بشيء».

- تقاوم حتى الرمق الأخير.

بدا القس مرعوبًا. كلما تحدث ساء موقفه.

- ماذا تعني؟

شاهد الطائر تتابُع الانفعالات المختلفة على وجه الرجل العجوز؛ الخوف، الارتباك، الإحباط، اليأس.

- ويليام وجارنييه كانا شديدَي الثقة، ودفعا حياتيهما ثمنًا لهذا. لن أرتكب الخطأ نفسه. لو كنت قسًا بحق، فسيحميك الرب. ادعه لكي يمنعني عنك.

هتف القس: «لقد جننت». ثم استدار للناس: «ألن يتدخل أحدكم ليمنع هذا؟ لقد سممه الخوف، وصار يتوهم أعداء غير حقيقيين».

تحرك مرافقوه بتوتر لكن لم يقولوا شيئًا. وكذلك المواطنون الذين نظروا إليه بفتور. القس ليس حشاشًا، هذا واضحٌ لهم. لكن لا يهم رأيهم. يكفيهم أنهم ليسوا الهدف الذي يصب عليه سيبراند غضبه.

قال سيبراند وهو يسحب سيفه: «يبدو أن الناس يشعرون بالقلق مثلي. إن كل ما أفعله من أجل عكا».

صرخ القس بينما يطعنه سيبراند بسيفه في أحشائه ويلويه ثم يسحبه ويمسحه. سقط الرجل العجوز على رصيف الميناء ثم تُوفِّي. حمل حراس سيبراند الجثة ورموها في البحر.

شاهده سيبراند وهو يغرق وقال: «كونوا يقظين يا رجال. لم ينته عمل الحشاشين بعد. هؤلاء الأوغاد مثابرون. والآن عودوا إلى عملكم».

راقبه الطائر بينما يذهب مع حارسين إلى قارب تجديف. ارتطمت جثة القس بهيكل القارب وهو يتحرك، ثم بدأت تطفو عبر حطام السفن في الميناء. نظر الطائر أبعد قليلًا، فرأى سفينة كبيرة. لا بدَّ أنها ملاذ سيبراند. عاد ينظر إلى قارب سيبراند. رأى الفارس يميل ليفحص الماء من حوله. إنه يبحث عن الحشاشين. دائمًا يبحث عنهم. كأنهم سيظهرون من الماء.

وهذا بالضبط ما سيفعله الطائر. تحرك إلى أقرب هيكل سفينة وقفز إليه. أخذ يتنقل ببساطة بين القوارب والأرصفة حتى اقترب من سفينة سيبراند. رآه يصعد على متنها بينما تدور عيناه على الماء من حوله. سمعه الطائر يأمر الحراس بتأمين طوابق السفينة السفلية. ثم انتقل الطائر إلى رصيفٍ قريب من السفينة.

رآه أحد المراقبين وكاد ينفخ بوقه، لكن رماه الطائر بسكين وهو يطلق سبابًا لأن الوقت لم يسمح له بالتخطيط للقتل. فبدلًا من أن يقع

الحارس بصمتٍ على أرضية الرصيف الخشبية، وقع في الماء وأصدر صوت طرطشة.

انطلقت عينا الطائر إلى سطح السفينة فورًا إلى حيث سيبراند قد سمع الصوت أيضًا وبدأ يفزع بالفعل.

صرخ: «أعلم أنك هنا أيها الحشاش». حمل قوسه: «إلى متى يمكنك الاختباء في رأيك؟ لديَّ مائة رجل يمشطون الميناء. سيعثرون عليك. وحين يجدونك، ستدفع ثمن خطاياك».

تشبث الطائر بدعامة الرصيف بعيدًا عن مجال رؤيته. داعب الماء طرف ردائه المتدلي. عدا ذلك ساد صمتٌ تام. لعب صمت الأشباح هذا بعقل سيبراند، مما أسعد الطائر.

قال سيبراند بإصرار: «أظهِر نفسك أيها الجبان. واجهني ودعنا ننتهي من هذا الأمر».

قال الطائر في سره أن كل شيءٍ في وقته. أطلق سيبراند سهمًا في الهواء، ثم سحب واحدًا آخر.

هتف سيبراند برجاله في الطوابق السفلية: «احذروا يا رجال. إنه في مكانٍ ما هنا. جدوه. اقتلوه. سأمنح مكافأةً لمن يأتني برأس الحشاش».

قفز الطائر من الرصيف إلى السفينة، وهبط بصوت ارتطام تردد في منطقة المياه الساكنة. انتظر متعلقًا بهيكل السفينة بينما يسمع صرخات خوف سيبراند بالأعلى. بعدها بدأ يتسلق. انتظر حتى أدار سيبراند ظهره له، ثم عبر حاجز السفينة ليقف على سطحها. أصبح على بُعد خطوات من قائد فرسان التيوتون الذي يدور في السفينة ويطلق تهديداته في البحر الخالي، وينهال بالسباب والأوامر على حراسه الذين يركضون في الأسفل.

قال الطائر في سره أن سيبراند صار في عداد الأموات، وتسلل إليه من خلفه. لقد مات من الخوف بالفعل، لكنه أغبى من أن يدرك هذا.

وقع على أرضية السفينة وقال عندما انغرس نصل الطائر في عنقه: «أرجوك.. لا تفعل هذا».

سأله الحشاش وهو يسحب نصله: «هل أنت خائف؟».

رد سيبراند كأنه يخاطب شخصًا أحمق: «بالطبع أنا خائف».

تذكر الطائر قسوة سيبراند مع القس، وقال: «لكنك ستكون بأمانٍ الآن في رعاية ربك».

أطلق سيبراند ضحكةً قصيرة ساخرة وقال: «ألم يعلمك إخوتي شيئًا؟ أعلم ما ينتظرني. ما ينتظرنا جميعًا».

- ماذا ينتظرك غير ربك إذًا؟

- الفراغ. الفراغ هو ما ينتظرني. هذا ما أخافه.

قال الطائر: «لست مؤمنًا إذًا».

أهو كذلك حقًّا؟ سيبراند ليس مؤمنًا؟ لا يعبد ربه؟

- كيف يمكن أن أكون مؤمنًا بعد ما عرفته؟ وما رأيته. كنزنا هو الدليل.

- دليل ماذا؟

- أننا لا نملك سوى هذه الحياة.

ألح عليه الطائر قائلًا: «اصمد قليلًا وأخبرني دورك في هذا المخطط».

أخبره سيبراند: «أن أصنع حاجزًا بحريًّا لمنع الملوك والملكات الحمقى من إرسال تعزيزات. حالما.. حالما..».

بدأت أنفاسه تخبو بسرعة.

حثَّه الطائر على الكلام: «أتقصد حالما تغزون الأراضي المقدسة؟».

سعل سيبراند، ومع كلامه التالي اصطبغت أسنانه بالدم: «بل نحررها أيها الأحمق. نحررها من طغيان الإيمان».

- الحرية؟ لقد عملتم على تخريب المُدن والتحكم في عقول الناس وقتل كل مَن يعارضكم.

- لقد اتبعت أوامري لأنني آمنت بقضيتي. مثلك تمامًا.

قال الطائر وهو يغمض عينيه: «لا تخف».

***

- لقد اقتربنا أيها الطائر.

خرج المعلم من خلف مكتبه، وسار وسط الضوء الساطع القادم من النافذة. هدل الحمام بسعادة في دفء الظهيرة، وفاح الهواء بالرائحة الحلوة المعتادة. على الرغم من أن الطائر قد استعاد رتبته والأهم ثقة المعلم، لم يستطع الاسترخاء.

واصل المعلم: «روبرت دي سابل هو الحائل الوحيد الآن بيننا وبين النصر. فمه يلقي الأوامر، ويده تدفع الذهب. وبموته سيصبح كنز الفرسان طيَّ النسيان، وسيتبدد أي تهديد يتعلق به».

قال الطائر: «ما زلت لا أفهم كيف لكنزٍ صغير أن يسبب الكثير من الفوضى».

كان يفكر في آخر كلام سيبراند الغامض. وفي تلك الكرة، قطعة عدن. لقد اختبر تأثيرها الغريب مباشرةً بالطبع، لكنها بالتأكيد لا تملك إلا القوة على التشويش والتشتيت. هل يمكن حقًّا أن تكون أكثر من حلية مرغوب بها؟ عليه الاعتراف أنه يرى الفكرة خيالية.

أومأ المعلم ببطء كأنه يقرأ أفكاره وقال: «إن قطعة عدن هي الإغواء المجسد. انظر إلى ما فعلته بروبرت. لقد تملكته بمجرد أن ذاق قوتها. لم يرَ فيها سلاحًا خطيرًا، بل أداة. أداة ستساعده في تحقيق طموحه».

- إنه يحلم بالقوة إذًا؟

- نعم ولا. لقد حلم -وما زال يحلم- بالسلام، مثلنا.

- لكن هذا الرجل سعى لرؤية الحرب تفتك بالأراضي المقدسة.

هتف المعلم: «لا أيها الطائر. كيف لا تفهم الحقيقة وأنت مَن فتح عينيَّ عليها؟».

سأله الطائر بحيرة: «ماذا تعني؟».

- ماذا يريد هو وأتباعه؟ عالم يتحد فيه كل البشر. لا أحتقر هدفه، بل أشاركه فيه. لكنني أرفض الوسيلة. على الناس أن تتعلم السلام وتفهمه وتتقبله، لكنه...

أومأ الطائر بتفهم وأكمل جملته: «لكنه يريد أن يفرضه بالقوة».

وافقه المعلم: «وأن يسلب حريتنا أيضًا».

قال الطائر: «من الغريب التفكير فيه من هذا الجانب».

- إياك أن تضمر الكراهية لضحاياك أيها الطائر. فهذه الأفكار سامَّة وستشوش تفكيرك.

- ألا يمكن إقناعه بإنهاء سعيه المجنون إذًا؟

هزَّ المعلم رأسه ببطءٍ وحزن وقال: «لقد تحدثتُ إليه. أعني بطريقتي، من خلالك. كل عملية قتل كانت رسالة. لكنه اختار تجاهلنا».

- لم يبقَ سوى حلٍّ واحد إذًا.

أخيرًا سيقتنص دي سابل. امتلأت نفسه بالحماس، لكنه حرص على موازنته بالحذر. لن يقع في خطأ الاستهانة به مجددًا. ليس دي سابل أو أي شخص.

قال المعلم وهو يطلق طائره: «لقد واجهته أول مرة في بيت المقدس، وستجده هناك الآن. اذهب أيها الطائر. حان الوقت لإنهاء هذا الأمر».

غادر الطائر ونزل السلم إلى باب البرج ثم خرج إلى الساحة. كان عباس جالسًا على السور، وشعر الطائر بعينيه تراقبانه بينما يعبر الساحة. ثم توقف واستدار إليه. تقابلت أعينهم، وكاد الطائر يقول شيئًا، وإن كان لا يعرف ماذا. لكنه غيَّر رأيه. لديه مهمة على عاتقه. لا داعي لفتح الجراح القديمة. لكن حامت يده على سيفه المعلق في جانبه دون وعي.

# 28

في الصباح التالي لإخبار الطائر الحقيقة لعباس عن والده، أصبح عباس أكثر انطوائية. ولم يستطع الطائر إخراجه من هذه الحالة مهما قال. تناولا الإفطار بصمت، وخضعا للمربيات بتجهم، ثم ذهبا إلى المعلم وجلسا مكانهما على الأرض.

لم يتفوه المعلم بحرفٍ عن الاختلاف الذي أصاب تلميذيه. ربما ارتاح سرًّا لأن انتباههما لم يعد يتشتت بسهولة. وربما افترض أنهما تخاصما كعادة الأصدقاء الصغار.

أما الطائر فشعر بغصةٍ في صدره ولم يهدأ باله. لماذا لم يقل عباس شيئًا؟ لماذا لم يصدر منه رد فعل على كلام الطائر؟

حصل على إجابة تساؤلاته لاحقًا في اليوم نفسه حين ذهبا إلى ساحة التدريب كالعادة. كان من المفترض أن يتدربا على المبارزة معًا كالمعتاد. قرر عباس أنه لا يريد استخدام السيوف الخشبية الصغيرة التي يتدربان بها دائمًا، بل السيوف المعدنية حتى يتقنانها.

سعد مدربهما لبيب وصفق بيديه قائلًا: «ممتاز، ممتاز. لكن تذكرا أننا لن نستفيد شيئًا من الإصابات والنزيف. لا داعي لإزعاج الأطباء معنا. هذا اختبار لكبح النفس والمكر بقدر ما هو اختبار للمهارة».

قال عباس: «مكر. هذا يناسبك أيها الطائر. فأنت ماكر وخائن».

كانت أول كلمات يوجهها عباس إلى الطائر طوال اليوم. قالها وهو ينظر إلى الطائر باحتقارٍ وكراهية أنبآه بأن الأمور بينهما لن تعود لسابق عهدها أبدًا. نظر إلى لبيب ليرجوه ويحثه على عدم السماح بالمنافسة. لكنه كان يقفز بسعادة خارج السور الصغير المحيط بحلبة، كأنه سيستمتع أخيرًا بقتالٍ حقيقي.

اتخذا موقعيهما. ابتلع الطائر ريقه بتوتر بينما نظر إليه عباس بقسوة.

قال الطائر: «أخي، ما قلته بالأمس...».

قاطعه عباس بصيحةٍ ترددت في أرجاء الساحة: «**لا تناديني بأخي!**».

ثم اندفع نحو الطائر بشراسةٍ لم تصدر منه من قبل. كان يكز على أسنانه، لكن لمح الطائر الدموع في طرفَي عينيه. هذا ليس مجرد غضب، إنه يعرف.

قال الطائر وهو يدافع باستماتة: «لا يا عباس».

نظر إلى يساره ورأى نظرة المدرب الحائرة. من الواضح أنه لم يفهم سبب ثورة عباس أو العداء المفاجئ بين الولدين. رأى الطائر اثنين من الحشاشين يقتربان من ساحة التدريب. بالتأكيد سمعا صيحة عباس. أطلت عدة وجوه من نافذة برج الدفاع بالقرب من بوابة القلعة. تساءل إن كان المعلم يشاهد ما يحدث.

اندفع عباس شاهرًا سيفه للأمام، فاضطر الطائر للتحرك جانبًا حتى يتفاداه.

وجهه لبيب: «اهدأ يا عباس».

هتف الطائر: «إنه يريد قتلي يا سيدي».

قال لبيب دون أن يبدو عليه الاقتناع: «لا تبالغ يا فتى. عليك أن تتعلم من التزام أخيك».

هجم عباس قائلًا: **«أنا لست أخاه»**.

كان يضرب بسيفه بعنف مع كل كلمة.

هتف الطائر: «أخبرتك بالحقيقة لأساعدك».

صرخ عباس: «لا، بل كذبت».

ضرب مجددًا وتردد صليل السيوف بقوة. شعر الطائر بنفسه يتراجع من قوة الهجوم ثم اصطدم بالسور وكاد ينقلب من فوقه. وصل المزيد من الحشاشين. بدا القلق على بعضهم، وبدت التسلية على البعض الآخر.

هتف لبيب وهو يصفق بجذل: «دافع أيها الطائر، دافع».

رد الطائر الهجوم مجبرًا عباس على العودة إلى وسط الحلبة.

اقتربا حين تلاقى سيفاهما، فقال الطائر بحدة: «لقد قلت الحقيقة. أخبرتك الحقيقة لأنهي عذابك، كما وددت إنهاء عذابي».

- بل كذبت لتجلب لي العار.

تراجع للخلف واتخذ موقعه ثم انحنى وأعاد أحد ذراعيه للخلف كما تعلَّم. كان نصل سيفه يهتز من انفعاله.

هتف الطائر: **«لا!»**.

تراجع بخفة بينما يتقدم عباس. فجأة أدار عباس نصله واستطاع أن يجرح الطائر الذي سالت دماؤه الساخنة من جانبه. نظر إلى لبيب بنظرةٍ متوسلة، لكن لم يلقِ اهتمامًا. وضع يده على جانبه فاصطبغت أصابعه بدمه. رفع يده إلى عباس وقال: «توقف يا عباس. قلت الحقيقة على أمل أن أمنحك الراحة».

قال عباس: «راحة؟». استدار إلى الحشد المجتمع: «أراد أن يمنحني **الراحة** فأخبرني أن والدي انتحر».

مرت لحظة صمتٍ وصدمة. نقل الطائر نظره من عباس إلى الحشد، وقد سادت الحيرة لتغيُّر مجرى الأحداث فجأة. لقد كشف السر الذي أقسم للمعلم أن يحفظه.

نظر إلى برج المعلم فرآه واقفًا يشاهد ما يحدث ويعقد يديه خلف ظهره، وعلى وجهه تعبير غامض.

هتف لبيب وقد شعر أخيرًا بوجود خطبٍ ما: «عباس. الطائر».

لكن الولدين تجاهلاه، وتلاقى سيفاهما مجددًا. اضطر الطائر للدفاع بينما يتألم.

- ظننت أن...

قاطعه عباس صارخًا: «ظننت أنك تستطيع جلب العار لي».

أغرقت الدموع وجهه. دار حول الطائر ثم اندفع مجددًا ملوحًا بسيفه بجنون. انحنى الطائر ووجد ثغرة بين ذراع عباس وجسده، فهجم وأصاب ذراعه اليسرى. تمنى أن توقفه الإصابة قليلًا حتى يشرح له.

لكن عباس صرخ وأطلق صيحة قتالية أخيرة وهو يندفع نحو الطائر الذي انحنى متفاديًا سيفه، ثم استخدم كتفه ليوقف اندفاعه، فتدحرج الاثنان على الأرض بين التراب برداءيهما الداميين. تشابكا بالأيدي لحظات ثم شعر الطائر بألمٍ حارق في جانبه. لقد حشر عباس إبهامه في جرحه، واستغل الفرصة ليلويه وهو يدفع نفسه فوق الطائر ويثبته على الأرض. استلَّ خنجره من حزامه ورفعه إلى عنق الطائر. ثبت نظرته المجنونة عليه، وما زالت الدموع في عينيه. كان يلهث أنفاسه بين أسنانه التي تصطك.

- عباس!

لم تأتِ الصيحة من لبيب أو من باقي الحشاشين المتفرجين. بل جاءت من نافذة المعلم.

زأر بصوتٍ كالرعد تردد في الساحة: «أبعد خنجرك في الحال».

بدا عباس مقارنةً به ضئيلًا ويائسًا وهو يقول: «ليس قبل أن يعترف».

هتف الطائر وهو يتماسك رغم معاناته: «أعترف بماذا؟».

قفز لبيب فوق السور ورفع يديه لتهدئته وهو يقول: «توقف يا عباس. نفِّذ أمر المعلم».

زمجر عباس: «سأقتله إن اقتربت».

توقف المدرب وقال: «سيحبسك في الزنزانة لقاء هذا يا عباس. هذا التصرف لا يليق بالجماعة. انظر، هناك مدنيون من القرية. وستنتشر الأخبار».

قال عباس منتحبًا: «لا أهتم. يجب أن يقولها. يجب أن يقول إنه كذب بشأن والدي».

- أي كذبة؟

- لقد أخبرني أن والدي قتل نفسه. أنه ذهب إلى غرفة الطائر ليعتذر له، ثم نحر عنقه. لكنه كذب. والدي لم ينتحر. لقد غادر الجماعة. كان هذا اعتذاره.

ثم دفع طرف الخنجر في عنق الطائر حتى سال خيط من الدماء، وقال: «الآن، قل إنك كذبت».

زأر المعلم من برجه: «توقف يا عباس».

سأل لبيب الطائر: «أيها الطائر، هل كذبت؟».

خيَّم الصمت على ساحة التدريب، وانتظر الجميع رد الطائر الذي نظر إلى عباس وقال: «نعم، كذبت».

جلس عباس على الأرض وأغمض عينيه بقوة. مهما كان الألم الذي مر به فيبدو أنه أنهك جسده بالكامل. ترك الخنجر يسقط من يده على أرض الحلبة بصوت جلجلة، ثم أجهش بالبكاء. ظل يبكي بينما يجذبه لبيب بخشونة من ذراعه ليقف ثم يسلمه إلى حارسين أتيا مسرعين. بعد لحظات أخذا الطائر أيضًا ووضعاه في زنزانة.

قرر المعلم لاحقًا أن يستكملا التدريب بعد شهر من الحبس في الزنزانة. كانت جريمة عباس أكثر خطورة، لأنه سمح لمشاعره بالسيطرة عليه وافتعل نزاعًا داخل الجماعة. لهذا عاقبه المعلم بمد تدريبه عامًا إضافيًّا. وهكذا كان ما زال يتدرب مع لبيب في الوقت الذي أصبح فيه الطائر حشاشًا رسميًّا. شعر عباس بالظلم وزادت كراهيته للطائر الذي بدأ يرى عباس إنسانًا حاقدًا مثيرًا للشفقة. في أثناء الهجوم على القلعة، كان الطائر هو من أنقذ حياة المعلم، لذلك قلده رتبة حشاش محترف. في ذلك اليوم بصق عباس على الأرض عند قدمَي الطائر الذي نظر إليه بسخرية. لقد قرر أن عباس ضعيف وغير كفء مثل والده.

بالنظر إلى الأمر، ربما كانت هذه بداية شعوره بالغرور.

# 29

عندما وصل الطائر إلى بيت المقدس كان رجلًا مختلفًا. لن يخطئ ويظن أن رحلته قد انتهت. فهذا تفكير الطائر القديم. لا، إنه يعرف أنها مجرد البداية. كأن مالك شعر بهذا أيضًا. لقد بدا قائد المقر مختلفًا حين دخل الطائر. لقد نشأ احترام وتوافق جديدان بينهما.

قال مالك: «عليك السلام والأمان أيها الطائر».

- وعليك أيضًا يا أخي.

مرت بينهما لحظة صمت تخفي كلامًا.

قال مالك: «للقدر تدابير عجيبة في تسوية الأمور».

أومأ الطائر، ثم سأله: «الأمر صحيح إذًا؟ روبرت دي سابل في بيت المقدس؟».

- لقد رأيت الفرسان بنفسي.

امتدت يد مالك لاشعوريًّا إلى منبت ذراعه المبتورة حين أتى ذكر الفرسان.

قال الطائر: «ذلك الرجل تتبعه المآسي. إن كان هنا، فهو ينوي شرًّا. لن أمنحه الفرصة ليفعل شيئًا».

- لا تدع شهوة الانتقام تشوش تفكيرك يا أخي. كلانا يعرف أنه لا جدوى منها.

ابتسم الطائر وقال: «لم أنسَ. لا تقلق. أنا لا أسعى للانتقام، بل المعرفة».

في السابق كان سيردد هذا كالببغاء لأنها المبادئ المتوقعة منه وحسب، أما الآن فهو يؤمن به حقًّا.

قال مالك بتفهم: «أنت حقًّا لم تعد الرجل الذي عرفته في الماضي».

أومأ الطائر وقال: «لقد تعلمتُ الكثير من مهماتي. اكتشفت أسرارًا كثيرة، لكن ما زلت أجهل بعض أجزاء الأحجية».

- ماذا تعني؟

- كل مَن قتلتهم كانوا يعملون معًا تحت إمرة هذا الرجل. لدى روبرت مخططات لهذه الأرض. هذا ما أعرفه يقينًا. لكن كيف ولماذا؟ متى وأين؟ لا أعرف.

تساءل مالك بصوتٍ مسموع: «الصليبيون والعرب يعملون معًا؟».

- إنهم ليسوا هذا ولا ذاك، بل جماعة أخرى تدعى فرسان الهيكل.

قال مالك: «فرسان الهيكل جزء من الجيش الصليبي».

لكن التساؤل كان واضحًا على وجهه. كيف يكونون من رجال الملك ريتشارد إن كانوا يقيمون في بيت المقدس ويسيرون في شوارع المدينة؟

قال الطائر: «ربما يريدون من ريتشارد أن يظنهم أتباعه. لكن ولاءهم الوحيد لروبرت دي سابل، ولفكرةٍ مجنونة تقول إنهم سيوقفون الحرب».

- يا لها من حكاية غريبة.

- أكثر مما تخيل.

- أخبرني إذًا.

بدأ الطائر يخبر مالك ما عرفه حتى الآن.

- روبرت ورجاله فرسان الهيكل يتجولون في المدينة الآن. لقد أتوا لتقديم العزاء وحضور جنازة مجد الدين. كذلك سأحضر أنا.

- ولماذا سيحضر فرسان الهيكل جنازته؟

- ما زلت لم أكتشف نواياهم الحقيقية. لكنني سأحصل على اعترافٍ منه في الوقت المناسب. السكان أنفسهم منقسمون. الكثيرون يدعون لقتلهم، وبعضهم ما زال يصر على أنهم جاؤوا للتفاوض وعرض السلام.

تذكر المنادي الذي استجوبه، وكان مصرًّا على أن سادته يريدون إنهاء الحرب. دي سابل مسيحي، وسيحضر جنازة مجد الدين المسلم. أليس هذا دليلًا على أن فرسان الهيكل يريدون توحيد الأراضي المقدسة؟ الأهالي يعارضون وجود الفرسان في بيت المقدس، فهم لم ينسوا بعد فترة الاحتلال الصليبي. لذلك من الطبيعي وجود الكثير من البلاغات عن نشوب مشاجرات بين الصليبيين والعرب المنزعجين من رؤية الفرسان في الشوارع. ما زال أهالي المدينة غير مقتنعين بكلام المنادين الذين يصرون على أنهم جاؤوا في سلام.

قال مالك: «سلام؟».

- أخبرتك أن هذا ما قاله الآخرون الذين قتلتهم.

- لكن هذا يجعلهم حلفاءنا. ومع ذلك نقتلهم.

- لا تخطئ الظن. نحن لا نشبه هؤلاء الرجال أبدًا. قد تبدو غايتهم نبيلة، أما وسيلة تحقيقها فليست كذلك. على الأقل هذا ما أخبرني به المعلم.

تجاهل دودة الشك التي تنخر في أحشائه.

- ما خطتك إذًا؟

- سأحضر الجنازة وأواجه روبرت.

وافقه مالك وهو يعطيه الريشة: «البركة في البكور. فليكن الحظ حليف نصلك أيها الطائر».

أخذ الطائر العلامة وابتلع ريقه وقال: «مالك.. هناك شيءٌ أود قوله قبل أن أذهب».

- قله.

- كنت أحمق.

أطلق مالك ضحكة ساخرة وقال: «عادةً لم أكن لأجادلك في هذا، لكن ما الأمر؟ عمَّ تتحدث؟».

- طوال هذا الوقت.. لم أعتذر لك. كنت وغدًا مغرورًا. لقد خسرت ذراعك بسببي. خسرت أخاك قدير. كان لديك كل الحق في الغضب.

- لا أقبل اعتذارك.

- أتفهَّم هذا.

- لا، لم تفهم. لا أقبل اعتذارك لأنك لم تعد الرجل نفسه الذي ذهب معي إلى هيكل سليمان، لذلك ليس لديك ما تعتذر عنه.

- مالك..

- ربما لو لم أشعر بالغيرة منك، لما كنت متهورًا أنا أيضًا. لذلك فأنا أشاركك اللوم.

- لا تقل هذا.

- نحن واحد. كما نتشارك مجد النصر، نتشارك أيضًا ألم الهزيمة. هكذا نتقارب ونقوى.

- أشكرك يا أخي.

***

ذهب الطائر إلى المقبرة، وهي أرض جرداء صغيرة للمدافن، وانضم إلى حشدٍ صغير من الفرسان والمدنيين الذين اجتمعوا حول قبر مجد الدين، حاكم المدينة السابق.

غُسل الجسد ولُفَّ بالكفن، ثم حُمِل النعش في مسيرة. بعدها وضِع الجسد على يمينه في القبر، ثم أهال الناس عليه التراب. دخل الطائر بينما يتقدم الإمام لتأدية صلاة الجنازة، عندها خيَّم صمتٌ مهيب على تلك الرقعة المقدسة. وقف معظمهم شابكين أيديهم أمامهم ومطأطئين رؤوسهم احترامًا للموتى، لذلك كان سهلًا على الطائر أن ينسلَّ بين الناس لكي يصل إلى موضعٍ مناسب، ويحدد هدفه الأخير. الرجل الذي بدأ رحلة الطائر. والذي سيكون موته عقابًا للمعاناة التي تسبب بها مباشرةً أو سببها رجاله باسمه. إنه روبرت دي سابل.

مر الطائر بصفوف المعزين، وأدرك أنها أول مرة يجد نفسه في جنازة أحد أهدافه. ألقى نظرة ليرى إن كان ضمن الحضور أفراد من عائلة المتوفى المكلومة. تساءل كيف سيشعر عند رؤية حزنهم وهو القاتل. لكن لو أن لمجد الدين أقارب مقربين، فهم إما لم يأتوا أو يخفون حزنهم بين الناس. لم يجد في المقبرة غير الإمام و...

مجموعة من فرسان الهيكل.

وقفوا أمام نافورة مزينة مُركبة في جدار حجري. كانوا ثلاثة فرسان يرتدون دروعًا وخوذات تغطي كامل الوجه، حتى الفارس ذو العباءة الذي يتقدم الفارسين الآخرين. تلك هي العباءة المميزة للقائد الأعلى لفرسان الهيكل.

ومع ذلك.. نظر الطائر بتمعن إلى دي سابل. لم يبدُ الفارس كما يتذكره. هل تخدعه ذاكرته؟ هل توهم أن أبعاد روبرت دي سابل الجسدية أكبر لأنه تفوق عليه في القتال؟ إنه لا يبدو بالهيئة نفسها التي يتذكرها الطائر على الإطلاق. وأين باقي رجاله؟

بدأ الإمام يتحدث مخاطبًا المعزين: «اجتمعنا اليوم لننعي خسارة المحبوب مجد الدين الذي انتهى أجله سريعًا. كلُّ مَن عليها فانٍ. إنها سنَّة الحياة، مثل شروق الشمس وغروبها. فلتتذكروا حياته، واشكروه على أعماله الطيبة. واعلموا أنكم ستجتمعون معه يومًا ما في الجنة».

كبح الطائر اشمئزازه بصعوبة. المحبوب مجد *الدين*. المحبوب مجد الدين الذي خان العرب وعمل على نزع الثقة منهم من خلال إعدام أهالي بيت المقدس ظلمًا؟ هذا هو المحبوب مجد الدين؟ لا عجب أن الناس كانوا قلائل ولا يُظهرون حزنًا. مستحيل أن يحبه أحد.

بدأ الإمام يتلو صلواته للميت: «اللهم بارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، يا رحمن يا عظيم. الله أكبر، والصلاة والسلام على المرسلين. وبارك اللهم على العالمين».

نقل الطائر نظره من الإمام إلى دي سابل وحارسيه. شعر بظل مر سريعًا بطرف عينه، فنظر إلى الأعلى إلى الجدار خلف الفرسان الثلاثة. هل لمح حركة؟ ربما. يمكن أن يختبئ المزيد من الجنود خلف متاريس السور.

نظر إلى الفرسان الثلاثة. بدا روبرت دي سابل كأنه يتعمد الوقوف بوضوح ليجعل نفسه هدفًا. بنيته ضئيلة بالفعل. والعباءة طويلة جدًّا عليه.

لا. قرر الطائر إلغاء عملية الاغتيال لأنه لن يتجاهل غريزته هنا. لم تكن تنبئه بوجود شيءٍ خاطئ وحسب، بل لم تنبئه بوجود أي شيءٍ صائب من الأساس. بدأ يتراجع في اللحظة التي تغيرت فيها نبرة الإمام.

- كما تعرفون، فإن هذا الرجل قتله الحشاشون. لقد حاولنا اقتفاء أثر قاتله، لكن اكتشفنا صعوبة الأمر. فهؤلاء الوحوش يختبئون في الظلال، ويهربون من المواجهة المباشرة.

تجمد الطائر وقد عرف أن الفخ على وشك أن يُغلق عليه. حاول أن يتحرك بين الجمع بسرعةٍ أكبر بينما يسمع الإمام.

- لكن ليس اليوم، فيبدو أن أحدهم بيننا بالفعل. إنه يسخر منا بوجوده، ولا بدَّ أن يدفع الثمن.

فجأة انشق الجمع من حول الطائر وحاصروه في دائرة. استدار نحو القبر حيث يقف الإمام مشيرًا إليه. تقدم دي سابل ورجلاه للأمام. بدا الجمع من حوله بمظهرٍ شرس، وأخذوا يضيقون عليه الدائرة حتى لا يتركوا له مجالًا للهرب.

هتف الإمام: «أمسكوه. اعتقلوه حتى نطبق عليه عدالة السماء».

سحب الطائر سيفه وأطلق نصله بحركةٍ واحدة. تذكر تعليمات المعلم، *اختر هدفًا واحدًا.*

لكن لا داعي. قد يكون المعزُّون شجعانًا ويحبون مجد الدين، لكن لا أحد منهم مستعدٌّ للتضحية بنفسه للثأر له. انفضَّ الجمع بفزع، وتعثروا بملابسهم وهم يهربون. استغل الطائر الاضطراب المفاجئ واندفع جانبًا مبتعدًا عن رؤية الفرسان القادمين نحوه. بالكاد انتبه الحارس الأول إلى أن واحدًا من الحشد لم يكن يهرب، بل يتقدم نحوهم. لكن الطائر عاجله بطعنةٍ اخترقت درعه وشقت أحشاءه، فسقط.

رأى الطائر بابًا مفتوحًا في السور اندفع منه المزيد من الفرسان. خمسة على الأقل. في الوقت نفسه أمطرته دفعة من السهام، ثم رأى أحد الفرسان يدور ويسقط، ويبرز من عنقه طرف سهم. نظر الطائر إلى متاريس السور، فرأى رماة من فرسان الهيكل. حالفه الحظ بإخفاق تصويبهم هذه المرة. لكن لن يتكرر هذا غالبًا.

تقدم نحوه الحارس الآخر، فلوح الطائر بسيفه ونحر عنقه، فاندفعت منه الدماء بينما يقع. استدار إلى دي سابل الذي اندفع إليه ملوحًا بسيفه العريض بقوةٍ لإسقاطه. لكن استطاع الطائر أن يصد الضربة. وصلت التعزيزات فجأة، فوجد نفسه يتبادل الضربات مع ثلاثة فرسان آخرين يرتدون خوذاتٍ كاملة. وجد نفسه يقف فوق قبر مجد الدين. لم يكن لديه الوقت ليشمت به لأنه تلقى دفعة أخرى من السهام، لكن لحسن حظه أنها أصابت فارسًا آخر فسقط صارخًا. اضطربت صفوف الفرسان وسادت بينهم الفوضى. صاروا خائفين من رماتهم أكثر من خوفهم من الطائر. فصرخ دي سابل في الرماة أن يتوقفوا عن إصابة رجالهم.

تفاجأ الطائر حتى كاد يرخي دفاعه. فما سمعه لم يكن أبدًا النبرة الذكورية الفرنسية لروبرت دي سابل، بل هو صوت امرأة حتمًا. امرأة **إنجليزية** تحديدًا.

للحظة شعر بمزيجٍ من الارتباك والإعجاب. هذه.. **المرأة** -البديل الذي أرسله دي سابل- قاتلت بشجاعة كأي رجل، وحملت سيفًا عريضًا بمهارة كأي فارس واجهه. من هي؟ أحد ملازمي دي سابل؟ حبيبته؟ ظل الطائر قريبًا من السور ليتجنب السهام، وجندل دفعة أخرى من الفرسان. لم يبقَ إلا واحد. واحد بالإضافة إلى بديل دي سابل. لم يكن آخر فارس متحمسًا للقتال بقدرها، فتوفي سريعًا بطعنة من سيف الطائر.

لم يبقَ غيرها الآن. تبادلا الضربات حتى تغلب الطائر عليها أخيرًا. وجه نصله إلى كتفها في اللحظة نفسها التي دفع فيها قدميها ففقدت توازنها ووقعت على الأرض بعنف. جذبها معه إلى ساتر حتى يبتعدا عن مرمى الرماة. مال نحوها وكانت لا تزال ترتدي الخوذة، وأخذ قلبها يخفق بعنف. سال الدم من عنقها وكتفها، لكنها ستعيش. إن سمح لها بالطبع. هذا ما فكر فيه الطائر.

قال: «سأرى عينيكِ قبل أن تموتي».

خلع خوذتها وصدمته الحقيقة مع أنه توقعها.

قالت بابتسامة خفيفة: «أظنك توقعت شخصًا آخر».

كان شعرها مخفيًّا بقلنسوة درعها، لكن واجهته عيناها. رأى فيهما عزيمة، وشيئًا آخر. رقة وبريق. تساءل إن كانت مهارتها البارزة كمحاربة تخفي طبيعتها الحقيقية.

لكن مهما كانت مهارتها القتالية، لماذا يرسل دي سابل هذه المرأة بدلًا عنه؟ ما القدرات المميزة التي قد تحوزها؟ وضع نصله على عنقها وسألها بحذر: «أي سحرٍ هذا؟».

قالت دون أن تختفي ابتسامتها: «عرفنا أنك ستأتي. أراد روبرت أن يضمن لنفسه وقتًا حتى يغادر».

- سيهرب إذًا؟

- لا يمكننا إنكار نجاحاتك. لقد أفسدت خططنا. أولًا الكنز ثم رجالنا. فقدنا حكم الأراضي المقدسة. لكنه رأى فرصةً في استعادة ما سُلب منا. لاستغلال انتصاراتك لمصلحتنا.

رد الطائر: «ما زال الكنز في حوزة المعلم، ولقد هزمنا جيشكم من قبل. مهما كانت خطط روبرت، فسيفشل مجددًا».

- نعم، لكنك لن تواجه فرسان الهيكل فقط هذه المرة.

تجهَّم الطائر وأمرها: «تكلمي بوضوح».

- روبرت في طريقه إلى أرسوف ليقترح اتحاد العرب والصليبيين ضد الحشاشين.

- هذا لن يحدث أبدًا. ليس لديهم سبب لذلك.

اتسعت ابتسامتها وقالت: «في الماضي، ربما. لكنك أعطيتهم سببًا الآن. بل تسعة في الواقع. الجثث التي تركتها خلفك هم ضحايا من الطرفين. لقد جعلت الحشاشين عدوًّا مشتركًا وضمنت إبادة جماعتك. أحسنت».

- ليس تسعة، بل ثمانية.

- ماذا تعني؟

أبعد نصله عن عنقها وقال: «أنتِ لستِ هدفي. لن أقتلكِ». وقف وأضاف: «أنتِ حرة، لكن لا تتبعيني».

نهضت واقفة ووضعت يدها على جرح كتفها وقالت: «لست بحاجةٍ إلى ذلك. فأنت متأخر بالفعل».

- سنرى.

ألقى نظرة أخيرة على السور حيث يسرع الرماة إلى مواقع جديدة. ثم اندفع مغادرًا المقبرة الخالية إلا من الجثث القديمة والجديدة، وامرأة عجيبة شجاعة فاتنة.

***

استغرق بضع دقائق للوصول من المقبرة إلى المقر، وظل عقله يعمل بجنون طوال الطريق. بمجرد أن وصل هتف بمالك: « لقد كان فخًّا».

- سمعتُ أن الجنازة تحولت إلى فوضى. ماذا حدث؟

- لم يكن روبرت دي سابل هناك من الأساس، بل أرسل بديلًا عنه. لقد كان يتوقع وصولي.

قال مالك بحزم: «يجب أن تذهب إلى المعلم».

نعم، هذا ما عليه فعله. لكن ما زال يطارده هذا الإحساس بوجود الكثير من الغموض. ولماذا يشعر أن الأمر متعلق بالمعلم؟

- الوقت لا يكفي. لقد أخبرَتني عن وجهته وخططه. لو عدت إلى مصياف، فقد ينجح في مخططه. وعندها.. أخشى أنها ستكون نهايتنا.

قال مالك: «لقد قتلنا معظم رجاله. لا يمكنه أن يشنَّ هجمة قوية. مهلًا، هل تحدثت عن البديل بصيغة الأنثى؟».

- نعم، إنها امرأة. أعلم أنه أمرٌ غريب. لكن لندع هذا لاحقًا. الآن علينا التركيز على روبرت. لقد قلصنا عدد رجاله، لكنه ماكر. سيقترح على ريتشارد وصلاح الدين أن يتحدا ضد عدوٍّ مشترك؛ نحن.

- أنت مخطئ بالتأكيد. فهذا ليس منطقيًّا. هذان الاثنان لا يمكن أن...

- بلى. ونحن الملومون. لقد قتلت رجالًا من طرفَي النزاع. رجالًا مهمين للقائدَين كليهما. قد تبدو خطة روبرت طموحة، لكنها منطقية. وقد تنجح.

- اسمع يا أخي، لقد تغيرت الأمور. يجب أن تعود إلى مصياف. لا يمكننا التصرف دون إذن المعلم. هذه مخاطرة بالجماعة. ظننت.. ظننتك تعلمت هذا.

- توقف عن الاختباء خلف الكلام يا مالك. أنت تحمل العقيدة ومبادئها مثل درعٍ حاجز. إنه يخفي عنا أمورًا. أمورٌ مهمة. أنت من أخبرتني أنه لا يمكننا معرفة كل شيء، بل يمكننا الاشتباه وحسب. وأنا أشتبه في أن مسألة فرسان الهيكل أعمق مما نعرف. حين أقضي على روبرت، سأذهب إلى مصياف بحثًا عن إجابات. لكن ربما يمكنك أن تذهب أنت الآن.

- لا أستطيع مغادرة المدينة.

- سر بين سكانها إذًا. ابحث عن خدم مَن قتلتهم. اجمع ما تستطيع من معلومات. تقول إن لديك بُعد نظر، ربما يمكنك أن ترى ما لا أراه.

- لا أعرف. عليَّ التفكير في هذا.

- افعل ما عليك يا صديقي. لكنني سأذهب إلى أرسوف الآن. كل لحظة أتأخرها يسبقني فيها عدوي.

لقد اخترق مبادئ العقيدة مجددًا. عمدًا أو لا، لقد عرَّض الجماعة للخطر.

- كن حذرًا يا أخي.

سأفعل. أعدك.

# 30

التقت جيوش صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد في أرسوف. وفي الطريق إلى هناك استمع الطائر إلى النميمة الدائرة في ورش الحدادة وحول آبار المياه. عرف أن الحرب بدأت هذا الصباح بعد سلسلةٍ من المناوشات، عندما شن الأتراك في جيش صلاح الدين هجمة على الصليبيين.

ركب الطائر نحو المدينة المنشودة مخالفًا اتجاه أهلها الخائفين الذي يحاولون الهرب من المذبحة الوشيكة. رأى الطائر سحب الدخان في الأفق. عندما اقترب استطاع أن يلمح الجنود يتقاتلون في سهلٍ بعيد. حشود ضخمة سوداء على مسافةٍ بعيدة. رأى صفوفًا طويلة من آلاف الرجال يندفعون بخيولهم نحو العدو. لكنه كان أبعد من أن يعرف إن كان المهاجمون عربًا أم صليبيين. اقترب أكثر فرأى الهياكل الخشبية لآلات الحرب، وإحداها على الأقل كانت تشتعل. ثم لمح الصلبان الخشبية الطويلة. كانت صلبانًا ضخمة تتحرك على منصات ذات عجلات يدفعها جنود المشاة. كذلك رأى أعلام العرب والصليبيين. أظلمت السماء بأمطار السهام من كلا الجانبين. رأى فرسانًا راكبين خيولًا ورافعين الرماح، وكتائب من الخيالة العرب يشنون هجمات سريعة وسط الجيش الصليبي.

سمع حوافر الخيل على الأرض، وأصوات الحرب المستمرة، من صنوج وطبول وأبواق. سمع رحى المعركة تدور على أشدها. ضجيجٌ متواصل من صياح الأحياء وصراخ المحتضرين وصليل السيوف وصهيل الألم للخيول المصابة. بدأ يقابل خيولًا بلا راكب، وجثثًا للعرب والصليبيين على حدٍّ سواء. إما تفترش الأرض أو تتكئ على جذع شجرة.

شدَّ لجام حصانه في الوقت المناسب، لأنه رأى فجأة رماة عرب يظهرون عبر صف الأشجار أمامه. ترجَّل عن حصانه وتدحرج بعيدًا عن الطريق الرئيسي، ثم اتخذ ساترًا خلف عربة مقلوبة. كانوا قرابة المائة. ركضوا على الطريق إلى صف الأشجار المعاكس. تحركوا بسرعة وهم ينحنون. تسللوا كما يفعل الجنود حين يتقدمون إلى منطقة العدو.

وقف الطائر واندفع إلى الأشجار أيضًا خلف الرماة، لكن على مسافةٍ آمنة. تابعهم بضعة أميال. اشتد رحى المعركة وصخبها، حتى وصلوا إلى سلسلة تلال. أصبحوا أعلى المعركة الرئيسية المستعرة أسفلهم. للحظةٍ صدمه حجم المعركة. إنها تمتد على مدى البصر برجال وجثث وآلات وخيول.

ومثلما حدث في حصار عكا، وجد نفسه وسط صراعٍ شرِس وضارٍ بين طرفين لا ينتمي إلى أيهما. لا ينتمي إلا إلى لجماعة. عليه تنفيذ مهمته، وحمايتها من الوحش الذي أطلقه دون قصد.

امتلأ التل من حوله بالجثث، كأنه شهد معركة أخرى منذ وقتٍ قصير. وبالطبع مَن يحتل التل يحظَ بأفضلية الارتفاع، لذلك لا بدَّ أن تدور عليه منافسة عنيفة. وبالفعل تواجه العرب مع رماة ومشاة صليبيين، وانطلقت صيحة هائلة من كلا الطرفين. استفاد رجال صلاح الدين من عنصر المفاجأة وصارت لهم اليد العليا. حصدت هجمتهم الأولى جثث الفرسان. سقط بعضهم من أعلى التل إلى الحرب المشتعلة بالأسفل.

لكن بينما انحنى الطائر يراقب، تمكن الصليبيون من تنظيم صفوفهم، وبدأت المعركة على أشدها.

كان المرور عبر التل هو آمن وسيلة للوصول إلى مؤخرة صفوف الصليبيين، حيث يتمركز ريتشارد قلب الأسد. والوصول إليه هو أمله الوحيد في إيقاف روبرت دي سابل. اقترب من المعركة وبدأ يتحرك يسارًا، تاركًا مسافةً بينه وبين المحاربين. مر في طريقه بجندي صليبي كان منحنيًا على الأرض يراقب المعركة ويطلق أنينًا، فتركه وواصل التقدم.

فجأة سمع صيحة واعترض جنديان صليبيان طريقه. توقف ورفع ذراعيه إلى كتفيه ليسحب سيفه وسكينًا. هزم الأول وصرع الثاني، ثم أدرك أنهما لم يكونا من كتيبة الاستطلاع بل من الحراس.

ما زال يتفقد المعركة من الأعلى، وأدرك أنه يقف على منحدر التل. رأى عن بُعد راية ريتشارد قلب الأسد، وظن أنه لمح الملك نفسه بحصانه المميز، ولحيته وشعره يلمعان تحت شمس الظهيرة بلونهما البرتقالي كاللهب. وصل المزيد من جنود المشاة لحراسة المؤخرة، فوجد نفسه محاصرًا بالفرسان ذوي الدروع الرنانة والسيوف المرفوعة والأعين الشرسة المختفية تحت خوذاتهم.

تتلخص مهمتهم في حماية ملكهم الذي على وشك أن يصل إليه الطائر. اشتعلت المعركة طويلًا. دار الطائر وركض. تارةً يشق طريقه عبر قتل الجنود بسيفه الدامي، وتارةً يركض مسرعًا قاطعًا مسافة كبيرة، حتى اقترب من موقع ريتشارد واستطاع رؤيته. وقف الملك في مساحةٍ منبسطة، ونزل عن حصانه. كان واعيًا للجلبة التي تقترب منه، وشكَّل حراسه دائرة حوله ليجعلوا منه هدفًا صعبًا.

واصل الطائر قتاله ملوحًا بسيفه ليسقط الرجال عند قدميه حتى تخضَّب رداءه بدماء الصليبيين. تحرر الطائر من هجمة ثم اندفع للأمام. رأى حراس الملك يسحبون سيوفهم وأعينهم تطلق شررًا تحت خوذاتهم. رأى الرماة يتسلقون الصخور المحيطة على أمل إيجاد مكانٍ مرتفع لاقتناص الدخيل.

هتف الطائر: «مهلًا لحظة. أتيت للتحدث وليس للقتال».

نظر مباشرةً إلى عينَي ريتشارد الواقف على بُعد بضع خطوات، بينما يتقدم رجاله نحوه.

كان الملك يرتدي زيه الأحمر الملكي، وعلى صدره شعار أسدٍ ذهبي. كان الوحيد بين رجاله الذي لم يخف أو يهلع، بل وقف هادئًا وسط المعركة. رفع ذراعه فتوقف رجاله وتوقفت المعركة فورًا. ارتاح الطائر حين تراجع مهاجموه بضع خطوات ومنحوه بعض المساحة أخيرًا. خفض ذراعه الممسكة بالسيف، ثم التقط أنفاسه وأخذت كتفاه تعلوان وتنخفضان بشدة. كان يعلم أن الجميع يراقبونه. كل السيوف كانت مصوبة إلى بطنه، وكل سهمٍ كان موجهًا نحوه. كلمة واحدة من ريتشارد وينتهي أمره.

قال ريتشارد: «هل أتيت لتقديم بنود الاستسلام إذًا؟ لقد حان الوقت».

قال الطائر: «لا، لقد أسأت الفهم. المعلم هو مَن أرسلني وليس صلاح الدين».

اكفهرَّ الملك وقال: «أنت حشاش؟ ما غايتك إذًا؟ تكلم بسرعة».

تقدم الرجال خطوة، واستعدَّ الرماة.

قال الطائر: «لديك خائن في صفوفك».

هتف الملك: «واستأجرك لقتلي؟ هل أتيت لتتفاخر قبل الضربة القاضية؟ لن أكون هدفًا سهلًا».

- لم آتِ لقتلك أنت، بل هو.

أشار الملك ريتشارد إلى الطائر ليقترب وقال: «تكلم إذًا وأنا مَن سيحكم على صدقك. مَن هذا الخائن؟».

- روبرت دي سابل.

ارتفع حاجبا ريتشارد بدهشةٍ وهو يقول: «ملازمي؟».

قال الطائر بهدوء: «إنه ينوي الخيانة».

كان يحاول اختيار ألفاظه بحرص حتى لا يساء فهمه، فهو بحاجةٍ إلى أن يصدقه الملك.

قال ريتشارد: «ليس هذا ما يقوله. إنه يسعى للثأر من جماعتك بسبب الفوضى التي أثرتموها في عكا. وأنا أميل لتأييده. فلقد قتلت جماعتك مجموعة من أفضل رجالي».

لقد سبقه دي سابل إلى آذان الملك إذًا. سحب الطائر نفسًا عميقًا، فما يوشك على قوله قد يؤدي إلى هلاكه فورًا: «بل أنا من قتلتهم، ولسببٍ وجيه».

نظر إليه ريتشارد شزرًا، لكن الطائر واصل: «اسمعني. ويليام دي مونفرا أرسل إلينا جنوده ليستولي على عكا بالقوة. جارنييه دي نابلس استخدم مهاراته ليغسل دماغ معارضيه ويسيطر على عقولهم. سيبراند خطط لإغلاق الموانئ ليمنع مملكتك من إرسال إمدادات. لقد خانوك، وكانوا يأخذون أوامرهم من روبرت».

قال قلب الأسد: «هل تتوقع مني تصديق هذه الكلام الفارغ؟».

- أنت تعرف هؤلاء الرجال أفضل مني. هل أنت متفاجئ حقًّا من معرفة سوء نواياهم؟

فكر ريتشارد قليلًا، ثم استدار إلى أحد رجاله ممن يرتدون خوذات كاملة، وقال: «هل هذا صحيح؟».

خلع الفارس خوذته، وهذه المرة كان روبرت دي سابل بالفعل. نظر إليه الطائر باشمئزازٍ واضح متذكرًا جرائمه. ذلك الرجل أرسل امرأةً مكانه.

للحظةٍ نظر الرجلان بعضهما إلى بعض، إنه لقاؤهما الأول منذ عراكهما في أطلال الهيكل. ضم الطائر قبضته وهو ما زال يلتقط أنفاسه. ابتسم دي سابل بسخرية والتوت شفته، ثم استدار إلى ريتشارد وقال بانفعال: «سيدي، إنه حشاش. هؤلاء الوحوش هم أسياد الخداع. بالطبع كلامه غير صحيح».

هتف الطائر: «ليس لديَّ سبب للخداع».

قال دي سابل ساخرًا: «بل لديك. أنت تخشى على مصير حصنك الصغير. هل يمكنه التصدي لجيوش العرب والصليبيين مجتمعة؟».

وابتسم كأنه يتخيل سقوط مصياف.

عارضه الطائر: «بل خوفي على مصير أهل الأراضي المقدسة. لو اضطررت للتضحية بحياتي ثمنًا للسلام، فليكن».

شاهدهما ريتشارد بحيرةٍ وقال: «يا له من موقفٍ عجيب. كلٌّ منكما يتهم الآخر».

قال دي سابل: «ليس لدينا وقتٌ لهذا. يجب أن أذهب بسرعة إلى صلاح الدين لأضمن تعاونه معنا. كلما تأخرنا، ازداد الأمر صعوبة».

ثم بدأ يتحرك على أمل أن يكون الموقف قد انتهى.

لكن ريتشارد نقل نظره من الطائر إلى دي سابل وقال: «انتظر يا روبرت».

قال دي سابل بغيظ: «**لماذا**؟ علامَ تنوي؟ بالتأكيد لا تصدقه **هو**؟».

وأشار إلى الطائر الذي رأى في عينَي دي سابل أن الملك مرتاب. وربما أيضًا يميل لتصديق الحشاش بدلًا من فارس الهيكل. حبس الطائر نفسَه فيما قال الملك: «إنه قرارٌ صعب، ولا أستطيع اتخاذه وحدي. لا بدَّ أن أتركه لمن هو أكثر حكمةً مني».

- شكرًا.

-لا يا روبرت، ليس أنت.

- من إذًا؟

- الرب.

ابتسم كأنه سعيدٌ بتوصله للقرار الصحيح، وأضاف: «ستكون محاكمة بالقتال. بالتأكيد سينصر الرب مَن هو على صواب».

راقب الطائر روبرت دي سابل بتمعن. رأى النظرة التي علت وجه فارس الهيكل. بالتأكيد تذكر دي سابل آخر قتالٍ بينهما حين هزم الطائر بسهولة.

تذكر الطائر القتال نفسه. كان يخبر نفسه أنه أصبح محاربًا مختلفًا الآن. كان الغرور يعوقه سابقًا، لهذا انهزم بسهولة. حاول ألا يتذكر قوة الفارس الشديدة، وكيف رفعه وقذفه بسهولة مثل جوال قمح.

هذا ما تذكره دي سابل، واستدار إلى الملك ريتشارد وحنى رأسه موافقًا وقال: «إن كانت هذه رغبتك».

- إنها كذلك.

- حسنًا إذًا. استعد أيها الحشاش.

وقف الملك وأعوانه المقربون جانبًا، بينما شكَّل الحراس المتبقون دائرة حول الطائر ودي سابل المبتسم. على عكس الطائر، لم يكن مرهقًا ومنهكًا من القتال. كان يرتدي درعًا، بينما يرتدي الطائر عباءة. لم يعانِ من الجروح والضربات التي تلقاها الطائر في معركته ليصل إلى هذه الساحة. وكان يعرف هذا أيضًا. كان يعرف أن لديه كل ميزة ممكنة بينما يرتدي قفازاته الواقية، وتقدم أحد الرجال ليساعده في ارتداء الخوذة.

قال ليستفز خصمه: «ها نحن نتواجه مجددًا. لنأمل أن تكون على مستوى التحدي هذه المرة».

قال الطائر رافعًا سيفه: «لست الرجل نفسه الذي واجهتَه في الهيكل».

بدا صدى معركة أرسوف العنيفة بعيدًا، لقد تقلَّص عالمه إلى تلك الدائرة التي تضمه هو ودي سابل فقط.

قال دي سابل: «تبدو هو في نظري».

رفع سيفه، فرد عليه الطائر بالمثل. وقفا متواجهين. أرجع روبرت دي سابل إحدى قدميه إلى الخلف، وركز عليها ثقله. من الواضح أنه توقع أن يبادر الطائر بالهجوم.

لكن الحشاش تولى إعداد أول مفاجأة في النزال عندما ظل ثابتًا بانتظار هجوم دي سابل، وقال له: «المظاهر خادعة».

رد دي سابل بابتسامة خفيفة: «نعم، نعم». ثم هجم بضربةٍ قوية من سيفه.

صدها الطائر. كادت قوة ضربة دي سابل توقع سيفه من يده، لكنه صدها وقفز جانبًا محاولًا العثور على ثغرة في دفاع دي سابل. يزن

سيف فارس الهيكل العريض ثلاثة أضعاف سيف الطائر. صحيح أن الفرسان معروفون بتفانيهم في تدريبات المبارزة وبقوتهم فيهم، إلا أنهم بطيئون. قد تكون هجمات دي سابل أقوى، لكنه مستحيل أن يجاريه في السرعة.

هكذا سيهزمه الطائر. لقد أخطأ من قبل حين سمح له باستخدام مميزاته. وتكمن قوته الآن في حرمانه منها.

تقدم دي سابل بثقة وتمتم: «سرعان ما سينتهي هذا، وستسقط مصياف».

كانت ضربته قريبة حتى إن الطائر سمع صفير السيف في الهواء.

رد الطائر: «إخوتي أقوى مما تظن».

تلاقى سيفاهما مجددًا.

قال دي سابل بابتسامةٍ واسعة: «سنعرف الحقيقة قريبًا».

لكن الطائر ظل يراوغ ويدافع ويصد ويرد الضربات، ويزرع جروحًا صغيرة في جسد دي سابل. كما أحدث شقوقًا في درعه وهوى بضربتين أو ثلاث على خوذته. تراجع دي سابل ليستجمع قوته. ربما أدرك أن الطائر لن يكون فريسةً سهلة كما ظن.

- لقد تعلم الطفل استخدام السيف إذًا.
- لقد تدربت كثيرًا. ورجالك رأوا هذا بأنفسهم.
- لقد كانوا تضحية لخدمة قضيةٍ عظمى.
- وكذلك ستكون أنت.

اندفع دي سابل للأمام حاملًا سيفه الكبير، وكاد يوقع سيف الطائر من يده. لكن الحشاش انحنى والتوى بحركةٍ رشيقة وضرب دي سابل بمقبض سيفه فتعثر وأثار الغبار من حوله. وما منعه من السقوط على

وجهه إلا الحراس الذين يشكلون الدائرة. لقد أسندوه حتى وقف وهو يشتعل غيظًا ويلهث.

هتف كأن رغبته ستتحقق بالصوت العالي: «انتهى وقت اللعب!».

ثم اندفع للأمام، لكن بأملٍ ميت بدلًا من هالة مميتة.

قال الطائر: «بل انتهى منذ وقتٍ طويل».

شعر بسكينةٍ عظيمة عندما أدرك الآن أنه صار صافيًا، حشاشًا صافيًا. كما أدرك أنه سيهزم روبرت دي سابل بتلك الفكرة التي أمدته بالقوة. اندفع دي سابل مجددًا بهجماتٍ أكثر عشوائية ويأسًا، فصدها الطائر بسهولة.

قال دي سابل لاهثًا: «لا أعرف من أين تستمد قوتك. أهي خدع أم منشطات؟».

- بل هي كما قال ملكك، الصواب ينتصر على الجشع.

صرخ دي سابل: «**قضيتي صائبة!**».

زمجر وهو يرفع سيفه ببطء كأنه يتألم. رأى الطائر وجوه رجاله، وعرف أنهم ينتظرون منه الضربة القاتلة.

وهذا ما فعل. دفع سيفه للأمام مصوبًا إلى وسط الصليب الذي يرتديه دي سابل، فاخترق درعه وشقَّ صدره.

# 31

شهق دي سابل. اتسعت عيناه وتدلَّى فكه. امتدت يداه إلى السيف المغروس فيه بينما يسحبه الطائر. انتشرت بقعةٌ حمراء على زيه، وترنح، ثم خر على ركبتيه. وقع سيفه وتدلت ذراعاه.

نظر الطائر فورًا إلى الرجال المحيطين بهما. كان يضع احتمالًا أن يهاجموه حالما يقتل زعيم فرسان الهيكل. لكنهم ظلوا ثابتين. رأى الطائر الملك ريتشارد يلوي ذقنه، كأن التغيير المفاجئ في مجرى الأحداث قد أثار فضوله قليلًا.

كان الطائر منحنيًا على دي سابل وهو يرقده على الأرض قائلًا: «انتهى الأمر. قُضي على مخططاتك، كما قُضي عليك».

ضحك دي سابل ضحكة قصيرة ساخرة وقال: « أنت لا تعرف أي خطط. لست سوى دمية. لقد خانك يا فتى، كما خانني».

قال الطائر بحدة: «قل كلامًا مفهومًا أو اصمت».

اختلس نظرةً إلى رجال الدائرة، لكنهم ما زالوا ثابتين.

قال دي سابل: «لقد أرسلك لقتل تسعة رجال، صحيح؟ التسعة الذين يحرسون سر الكنز».

دائمًا ما تولَّى هذه المهمة تسعة رجال يتوارثون السر من جيلٍ إلى جيل. تشكلت منظمة فرسان الهيكل منذ مئة عام، وجعلوا من القدس

قاعدةً لهم. لقد تعاونوا على حماية حجاج الأراضي المقدسة، وعاشوا رهبانًا محاربين، أو هذا ما يقولونه. لكن يعرف الجميع -ما عدا الحمقى- أن فرسان الهيكل يفكرون فيما هو أكثر من الحجاج المساكين. في الواقع، لقد كانوا يبحثون عن كنزٍ وآثارٍ مقدسة في هيكل سليمان. ودائمًا ما يُكلَّف تسعة أشخاص بمهمة العثور عليها. وأخيرًا استطاع آخر تسعة إيجادها؛ روبرت دي سابل، وتامر، ودي نابلس، وطلال، ودي مونفرا، ومجد الدين، وجبير، وسيبراند، وأبو النقود. هؤلاء هم التسعة الذين يعلمون السر. الضحايا التسع.

سأله الطائر بحذرٍ وتفكير: «وماذا في الأمر؟».

ابتسم دي سابل بينما تتسرب منه الحياة وقال: «لم يكن تسعة فقط من عثروا على الكنز أيها الحشاش. ليسوا تسعة، بل عشرة».

- هناك عاشر؟ لا يمكن أن يعيش مَن يحمل هذا السر. أعطني اسمه.

- لكنك تعرفه جيدًا. وأشك كثيرًا في أنك ستقتله راغبًا كما فعلتَ معي.

سأله الطائر رغم معرفته للإجابة: «مَن؟».

لقد عرف الآن ماذا كان يؤرقه. فهم اللغز الوحيد الذي ظل يراوغه.

قال دي سابل: «إنه سيدك، المعلم».

قال الطائر: «لكنه ليس من فرسان الهيكل».

لم يرغب في التصديق، مع أنه كان متيقنًا من أنها الحقيقة. المعلم الذي رباه كابنه، ودربه وعلمه، هو نفسه الذي خانه.

ألح دي سابل بينما شعر الطائر بعالمه ينهار: «ألم تتساءل يومًا كيف يعرف الكثير؟ مكاننا وعددنا وغايتنا؟»

- لكنه سيد الحشاشين.

حاول الطائر الاعتراض غير راغبٍ في التصديق، لكن يبدو أن اللغز قد انكشف أخيرًا. الأمر صحيح. كاد يضحك من سخرية الموقف. كل ما عرفه في حياته كان وهمًا.

قال دي سابل بصعوبة: «بل سيد الأكاذيب. أنا وأنت مجرد بيدقين في لعبته الكبرى. والآن.. بموتي، لم يبقَ سواك. هل تظنه سيدعك تعيش بكل ما تعرفه؟».

قال الطائر: «لست مهتمًّا بالكنز».

- لكنه كذلك. الفارق الوحيد بيني أنا ومعلمك هو أنه لم يرغب في مشاركته.

- لا..

- أترى سخرية الموقف؟ أنا -عدوك اللدود- أبقيتُ على حياتك. لكنك قضيت على حياتي، وبذلك حكمتَ على حياتك أنت بالموت.

سحب الطائر نفسًا عميقًا محاولًا استيعاب ما حدث. شعر بدفعة من المشاعر المختلفة. مزيج من الغضب والألم والوحدة.

مد يده وأغمض عينَي دي سابل وقال بوقار: «ليس بالضرورة أن نجد ما نبحث عنه دائمًا».

ثم وقف واستعد لاستقبال الموت إن رغب الصليبيون في قتله. بل ربما تمنى أن يقتلوه.

- أحسنت القتال أيها الحشاش.

سمع الهتاف عن يمينه، فاستدار ورأى ريتشارد يتقدم إلى الدائرة التي انشقت لتسمح بمروره.

- كان الحظ حليفك.

- لا علاقة للحظ، لقد قاتلت أفضل منه وحسب.

- ربما لا تؤمن به، لكن يبدو أنه مؤمن بك. لديَّ سؤال قبل أن تذهب.

- سله إذًا.

شعر بالإنهاك يغمره فجأة. أراد بشدة أن يستلقي تحت ظل نخلة وينام أو يختفي، أو حتى يموت.

- لماذا؟ لماذا تسافر كل هذه المسافة وتخاطر بحياتك ألف مرة لتقتل رجلًا واحدًا؟

- كان يهدد إخوتي وعقيدتنا.

- إنه الانتقام إذًا؟

نظر الطائر إلى جثة روبرت دي سابل وأدرك أنه لم يفكر في الانتقام حين قتله، بل فعل ما فعله لأجل الجماعة. تفوه بأفكاره قائلًا: «لا، ليس الانتقام. إنما العدالة. ربما عندما يتحقق السلام».

رفع ريتشارد حاجبه وقال: «هل هذا ما تقاتل لأجله؟ السلام؟ ألا ترى التعارض؟».

لوح ريتشارد بذراعه في المنطقة مشيرًا إلى المعركة التي ما زالت دائرة عن بُعد، والجثث المنتشرة في الساحة، وأخيرًا جثة دي سابل التي لم تبرد بعد.

قال الطائر: «بعض الرجال لا يمكن التفاهم معهم».

ظفر ريتشارد قائلًا: «مثل ذلك المجنون صلاح الدين».

نظر إليه الطائر ورأى ملكًا صالحًا. ثم قال: «بل أظنه يريد إنهاء هذه الحرب بقدرك».

- هذا ما سمعته، لكن لم أره.

- حتى لو لم يقُلها بلسانه، هذا ما يريده الناس، سواء من العرب أو الصليبيين.

- الناس لا يعرفون ما يريدون. لذلك يلجؤون إلى رجالٍ أمثالنا.

- إذًا يقع على عاتق الرجال أمثالكم فِعل الصواب.

قال ريتشارد ساخرًا: «هراء. لقد أتينا إلى هذه الدنيا ونحن نركل ونصرخ. العنف والفوضى في طبعنا. لا يمكننا مقاومة طبيعتنا.

- لا، بل نختار طبيعتنا.

ابتسم ريتشارد بأسى: «جماعتك دائمًا تتلاعب بالكلمات».

قال الطائر: «بل أقول الحقيقة. لا يوجد أي خداعٍ هنا».

- سرعان ما سنعرف الحقيقة. لكن أخشى أنك لن تجد مسعاك اليوم. في هذه اللحظة صلاح الدين يحطم جيشي، وعليَّ الانضمام إليهم. لكن ربما يعيد التفكير بعدما قتلتَ أنت بعض رجاله. نعم، ربما يتحقق ما تريده مع الوقت.

قال الطائر: «وأنت لم تكن بمأمن كذلك. إياك أن تنسى هذا. الرجال الذي وليتهم الحكم نيابةً عنك لم ينووا خدمتك للأبد».

- نعم، نعم. أدرك هذا.

قال الطائر: «سأرحل إذًا. فأنا ومعلمي لدينا الكثير لنناقشه. يبدو أن لا إنسان خالٍ من العيوب، حتى هو».

أومأ ريتشارد قائلًا: «إنه مجرد بشر، مثلنا جميعًا. وكذلك أنت».

قال الطائر: «مع السلامة».

ثم غادر وعقله لا يفكر إلا بمصياف. لقد تشوه جمالها بما عرفه عن المعلم. عليه أن يعود إلى وطنه. عليه أن يعيد الأمور إلى نصابها.

# 32

لم تكن مصياف كما تركها. اتضح له هذا منذ لحظة وصوله إلى الإسطبلات. كانت الخيول تصهل لكن لا يوجد عمال لرعايتها أو لأخذ حصان الطائر منه. ركض عبر البوابة الرئيسية المفتوحة حتى وصل إلى الساحة وصدمه الصمت. هناك سكونٌ تام، ليس للأصوات فقط، بل للأجواء بشكلٍ عام. الشمس تسطع بصعوبة، فبدت القرية رمادية. الطيور لا تغني. النافورة لا تعمل. ولا يوجد أثر للحياة اليومية. الأكشاك مفتوحة لكن لا يوجد قرويون يسرعون في الأنحاء يثرثرون ويتسوقون. لا يوجد حتى أصوات حيوانات. لا يوجد إلا الفراغ. الخواء.

رفع نظره أعلى التل نحو القلعة، فلم يرَ أحدًا. تساءل إن كان المعلم في برجه ينظر إليه. هل يستطيع رؤيته؟ ثم لمح بطرف عينه ظلًّا قادمًا نحوه. إنه قروي. سأله الطائر آمرًا: «أين الجميع؟».

- ذهبوا لرؤية السيد.

قالها كأنها تعويذة أو شعار. بدت عيناه زائغتين، وسال لعابه من فمه. لقد رأى الطائر هذا المنظر من قبل. رآه على وجوه الذين استعبدهم جارنييه دي نابلس. المجانين، أو هكذا ظنهم وقتها. كانت لديهم تلك النظرة الخاوية الزائغة.

قال الطائر: «هل هاجم فرسان الهيكل القرية مجددًا؟».

رد القروي: «إنهم يسيرون في الطريق».

- أي طريق؟ عمَّ تتحدث بالضبط؟

- نحو النور.

بدا كمن يردد حكمة أو ترنيمة.

قال الطائر آمرًا: «تحدث بوضوح».

- لا يوجد إلا ما يرينا إياه السيد. هذه هي الحقيقة.

قال الطائر باحتقار: «لقد فقدت عقلك».

- وأنت أيضًا ستسير في الطريق أو تفنى. إنها أوامر السيد.

فكر الطائر. إنه المعلم. إنها الحقيقة إذًا. الأمر كله صحيح. لقد تعرض للخيانة. لا شيء واقعٌ مطلق بالفِعل كما تقول العقيدة.

سأل الطائر القروي: «ماذا فعل لك؟».

- شكرًا للسيد لأنه قادنا إلى النور.

ركض الطائر مواصلًا طريقه وترك الرجل خلفه وحيدًا وسط السوق المهجور. ركض صاعدًا المنحدرات حتى وصل أعلى التل، فوجد مجموعة من الحشاشين شاهرين سيوفهم بانتظاره.

شهر سيفه عالمًا أنه لا يستطيع استخدامه، ليس للقتل على الأقل. فهؤلاء الحشاشون لا ينوون قتله برغبتهم، بل عقولهم مغسولة ومبرمجة على هذا. بهذا فإن قتلَهم يعني خرق أحد المبادئ. لقد سئم من خرقه للعقيدة بالفعل، ولم يفعلها مجددًا. لكن...

انقضوا عليه بأعين ميتة.

هل هم في غيبوبة مثل الآخرين؟ هل ستكون حركتهم بطيئة وخرقاء؟ استسلم للأمر واندفع نحوهم. أوقع الأول وأمسكه الثاني، لكنه جذبه من

ردائه وأمسكه بقبضتيه ثم لوَّح به ليوقع به اثنين آخرين حتى يخترق صفوفهم ويعبر.

ثم سمع اسمه من أعلى. كان مالك واقفًا على نتوء صخري في طريق الحصن. وكان معه جبل قائد مقر عكا وحشاشان آخران لم يتعرف عليهما. نظر إليهم بتمعن. هل تعرضوا لغسيل دماغ؟ أم لمخدر؟ أو أيًّا كان ما يفعله المعلم؟

لكن لا. كان مالك يلوح بذراعه السليمة. لم يتصور الطائر أنه سيسعد برؤية مالك مثلما سعد اليوم.

- اصعد أيها الطائر.

قال الطائر مبتسمًا: «لقد اخترت وقتًا رائعًا للزيارة».

- يبدو هذا.

أخبره الطائر: «خذ حذرك يا صديقي. لقد خاننا المعلم».

كان مستعدًّا لعدم تصديق مالك له أو حتى غضبه منه، فهو يثق بالمعلم ويستشيره ويسأله في كل الأمور. لكن مالك أومأ بحزنٍ وقال: «كما خان حلفاءه من فرسان الهيكل».

- كيف عرفت؟

- بعد محادثتنا عدت إلى الأطلال أسفل هيكل سليمان. كان روبرت يحتفظ بمذكراتٍ كشف فيها الكثير من الأسرار. ما قرأته فطر قلبي، لكنه أيضًا فتح عينيَّ. كنت محقًّا أيها الطائر. لقد استغلنا المعلم من البداية. لم تكن مهمتنا حماية الأراضي المقدسة، بل تسليمها له. يجب أن نوقفه.

حذره الطائر: «كن حذرًا يا مالك. فما فعله للآخرين سيفعله لنا إن أتيحت له الفرصة. يجب أن تبقى بعيدًا عنه».

- ماذا تقترح إذًا؟ ما زلتُ أجيد استخدام ذراعي الحاملة للنصل، ورجالي ما زالوا مخلصين لي. من الخطأ ألا تستخدمنا.

- شتِّت هؤلاء المستعبَدين إذًا. هاجِم الحصن من الخلف. لو استطعت اجذب انتباههم بعيدًا عني، ربما يمكنني الوصول إلى المعلم.

- كما تريد.

- الرجال الذين نواجههم الآن مسلوبو العقل. من الأفضل أن تتجنب قتلهم.

- نعم. فخرقه لمبادئ العقيدة لا يعني أن نخرقها نحن أيضًا. سأبذل جهدي.

- هذا كل ما أطلبه.

استدار مالك ليغادر، فقال الطائر: «عليك الأمان والسلام يا صديقي».

ابتسم مالك ابتسامةً خفيفة وقال: «وجودك هنا سيحقق الاثنين».

أسرع الطائر عبر البوابة الحصينة إلى الساحة الرئيسية، عندها اكتشف لماذا لا يوجد قرويون في السوق. فكلهم هنا. وقفوا متزاحمين في الساحة. لا بدَّ أنها القرية بأكملها. ظلوا يدورون بشرود، بالكاد يرفعون رؤوسهم. رأى الطائر رجلًا وامرأة يصطدمان. وقعت المرأة بقوة على مؤخرتها، لكن لم يبدِ أحدهما ردة فعل. لا مفاجأة، لا ألم، لا اعتذار، لا غضب. ترنح الرجل قليلًا ثم واصل الحركة. أما المرأة فظلت جالسة مكانها بينما تجاهلها باقي القرويون.

تحرك الطائر عبرهم بحذر نحو البرج، وصدمه الصمت التام. لا يُسمَع إلا صوت الخطوات البطيئة والتمتمات الغريبة.

«يجب طاعة إرادة السيد».

«أيها المعلم، أرشدنا بأوامرك».

«سيُطَهَّر العالم. وسنبدأ من جديد».

قال الطائر لنفسه إنها أفكار النظام الجديد التي يتلوها فرسان الهيكل. نعم، لكن فارس واحد بالتحديد. إنه المعلم.

وصل إلى المدخل المؤدي إلى البرج. لا حراس لتحيته، لكن الشعور الخانق نفسه. كأن ضبابًا خفيًّا يخيم على الحصن بأكمله. رفع نظره ورأى بوابة حديدية مفتوحة. إنها البوابة المؤدية إلى الساحة والحدائق في الجهة الخلفية للبرج. انعكست خصلات من الضوء على قضبان البوابة كأنها تدعوه للدخول، فتردد. كان يعلم أن الدخول يعني أن يتحكم المعلم به. لكن لو أراد المعلم قتله لقتله بالفعل. سحب سيفه وصعد الدرج مدركًا أن المعلم لم يعد سيده حين أصبح سيد الجميع. لم يعد سيده في اللحظة التي اكتشف فيها أن المعلم من فرسان الهيكل. لقد صار عدوه الآن.

توقف عند بوابة الحديقة وسحب نفسًا عميقًا. ليست لديه أدنى فكرة عما يوجد على الجانب الآخر، لكن هناك وسيلة واحدة ليعرف.

# 33

كانت الحديقة مظلمة. سمع الطائر صوت الينبوع الخافت وجريان الشلال المريح. عدا ذلك كل شيءٍ هادئ. وصل إلى شرفةٍ أرضية من الرخام، سطحها ناعمٌ تحت حذائه. نظر حوله محاولًا اختراق الظلام بينما تحيط به ظلال الأشجار غير المنتظمة والهياكل المعمارية.

سمع فجأة صوتًا من خلفه. لقد أغلِقَت البوابة، وسمع تكة معدنية كأن يدًا خفية سحبت مزلاجًا.

استدار الطائر ونظر إلى الأعلى. رأى المعلم واقفًا في شرفة مكتبته وينظر إليه على الشرفة الأرضية. كان يحمل شيئًا. الكنز المستعاد من هيكل سليمان. قطعة عدن. كانت تشع بقوةٍ أعطت للمعلم هالة برتقالية أخذت تزيد بينما ينظر إليه الطائر.

فجأة شعر الحشاش بألمٍ ساحق. صرخ وشعر أنه يرتفع عن الأرض بشعاعٍ من النور الساطع الممتد من يد المعلم. كانت التفاحة تنبض مثل عضلةٍ تنقبض وترتخي.

صرخ الطائر بعجزٍ أمام قوة الأداة الأثرية التي تشله: «ماذا يحدث؟».

قال المعلم بهدوء وبنبرة انتصار: «لقد عاد التلميذ إذًا».

قال الطائر بتحدٍّ: «لست أنا مَن يهرب أبدًا».

ضحك المعلم بسخرية كأن لا شيء من هذا يزعجه: «ولست مَن يستمع أبدًا كذلك».

- هذا ما أبقاني حيًّا حتى الآن.

أخذ يقاوم قيوده الخفية باستماتة. نبضت التفاحة برد فعل وضغطت عليه بنورها لتحكم قيوده أكثر.

ابتسم المعلم وقال: «ماذا أفعل بك؟».

زمجر الطائر: «أطلق سراحي».

ليس معه سكاكين، لكن إن تحرر من هذه القيود، يمكنه أن يصل إلى ذلك العجوز ببضع قفزات. سيحظى المعلم بلحظاتٍ أخيرة ينبهر فيها بمهاراته في التسلق قبل أن يغرس نصله في أحشائه.

قال المعلم: «أسمع الكراهية في صوتك أيها الطائر، وأشعر بحرارتها. تريدني أن أدعك؟ ليس من الحكمة أن أفعل».

سأله الطائر: «لمَ تفعل هذا؟».

بدا على المعلم التفكير، ثم قال: «أتعلم، كنت مؤمنًا ذات مرة، مؤمنًا بوجود إله. إنه يحبنا ويرعانا ويرشدنا ويواسينا ويرينا معجزات ليذكرنا بقوته».

- وماذا تغير؟

- وجدتُ دليلًا.

- على ماذا؟

- على أن كل هذا مجرد **وهم**.

لوَّح بيده وأطلق سراح الطائر من قيوده المضيئة. توقع الطائر أن يقع، ثم أدرك أنه لم يكن معلقًا من الأساس. نظر حوله بارتباك، وشعر بتغيُّر في الأجواء. أحس بضغطٍ في أذنيه، مثل التأثير السابق للعاصفة.

وقف المعلم في شرفة المكتبة، ورفع التفاحة فوق رأسه وهو يتمتم شيئًا.

- تعالوا. دمروا الخائن. أخرجوه من هذا العالم.

فجأة ظهرت أطياف حول الطائر، تزمجر بأسنانها استعدادًا للقتال. شعر أنه يعرفها لكنه لم يستطع تمييزها في البداية. فجأة أدرك أنهم أهدافه التسعة. ضحاياه التسع. لقد عادوا من العالم الآخر إلى الدنيا.

جارنييه دي نابلس الذي وقف مرتديًا مئزره الملطخ بالدماء وسيفه في يده، وينظر إلى الطائر بشفقة. تامر الذي يحمل خنجره وعيناه تلمعان بشرٍّ. طلال الذي يحمل قوسه على كتفه وسيفه في يده. ويليام دي مونفرا الذي ابتسم بشرٍّ وسحب سيفه واتكأ عليه متخذًا وقته قبل الهجوم. هناك أيضًا أبو النقود ومجد الدين وجبير وسيبراند، وأخيرًا روبرت دي سابل.

إنهم كل الأهداف الذين أخرجهم الطائر من هذا العالم، واستدعاهم المعلم لينالوا ثأرهم.

وهجموا عليه.

كان أبو النقود أول من يسقط للمرة الثانية. كان طيفه بدينًا ومضحكًا مثلما كان في حياته. سقط تحت سيف الطائر، لكن لم يبقَ على الأرض، بل اختفى تاركًا خلفه اضطرابًا في الهواء وخللًا في الفراغ الذي كان يحتله. طلال ودي مونفرا وسيبراند وروبرت دي سابل هم أمهر المقاتلين لذلك بقوا في الخلف وسمحوا للأضعف منهم بالتقدم على أمل إرهاق الطائر.

اندفع الحشاش مبتعدًا عن الشرفة الرخامية، وقفز من الحافة إلى ساحة أخرى من الرخام المزين، وهناك شلال بالقرب منها. تبعته الأهداف. مات تامر وهو يصرخ بضربتين من سيف الطائر. لم يشعر

الحشاش بشيء. لا ندم أو حتى رضا برؤيتهم يموتون موتًا مستحقًّا للمرة الثانية. اختفى دي نابلس مثل الآخرين بمجرد أن نحر عنقه. سقط جبير. تعارك الطائر وطلال حتى استطاع الطائر أن يطعنه في بطنه، فاختفى. حان دور مونفرا. تبعه سيبراند، ثم دي سابل. في النهاية عاد الطائر وحيدًا في الحديقة مع المعلم.

طالبه الطائر لاهثًا: «واجهني. أم أنك خائف؟».

كان يتصبب عرقًا، لكنه يعرف أن المعركة لم تنتهِ بعد، بل ما زالت في أولها.

رد المعلم ساخرًا: «لقد واجهت ألف رجل. كلهم أقوى منك، وكلهم ماتوا على يدي».

قفز من الشرفة بمرونةٍ ورشاقة تتعارض مع عمره، وهبط بالقرب من الطائر. ما زال يحمل التفاحة. كان يمسكها كأنه يعرضها على الطائر. أما وجهه فكان سابحًا في نورها.

قال المعلم: «أنا لست خائفًا».

- أثبت هذا إذًا.

تحداه الطائر عالمًا بأن المعلم سيكشف خدعته، وهي أن يجذب عدوه قريبًا منه. لكن لا يهم ما دام سيأكل الطُّعم، وقد أكله بالفعل. إنه محق. إنه ليس خائفًا. ليس خائفًا لأنه يحمل التفاحة التي صارت تشعُّ بوهجٍ أكبر. وهج أخَّاذ. أضيئت المنطقة كلها، ثم أظلمت مجددًا. بينما تتأقلم عينا الطائر، ظهرت نسخ من المعلم. بدت كأنها خرجت من جسد المعلم نفسه.

توتر وتساءل إن كانت هذه النسخ أضعف من الأصل مثل الأطياف التي قاتلها منذ قليل.

قال المعلم ساخرًا منه: «ممَّ عساي أخاف؟ انظر إلى القوة التي أملكها».

جيد. *فليسخر. فليفقد* حذره.

هاجمت النسخ الطائر، وعاد يقاتل مجددًا. جلجل صهيل السيوف في الحديقة. تساقطت النسخ تحت نصل الطائر واختفت. حتى عاد وحده مع المعلم.

وقف محاولًا التقاط أنفاسه وقد أنهكه التعب. ثم شعر مجددًا بقوة التفاحة التي لمعت ونبضت في يد المعلم.

سأله المعلم: «ألديك كلمات أخيرة؟».

قال الطائر: «لقد كذبت عليَّ. قلت إن هدف روبرت خاطئ، في حين أنه كان هدفك كذلك».

قال المعلم بنبرة تكاد تكون حزينة: «لم أكن محبًّا للمشاركة قط».

- لن تنجح. سيجد آخرون القوة لمواجهتك.

زفر المعلم بقوةٍ وقال: «لهذا لن يتحقق السلام أبدًا ما دام الرجال يملكون حرية إرادة».

- قتلت آخر رجل قال هذا.

ضحك المعلم وقال: «كلام جريء يا فتى. لكنه يظل كلامًا».

- أطلق سراحي إذًا وسأحول الكلام إلى أفعال.

تسارع عقل الطائر باحثًا عما يقوله ليجعل المعلم يفقد حذره.

- أخبرني أيها المعلم، لماذا لم تغسل دماغي كما فعلت مع باقي الحشاشين؟ لماذا سمحت لي بالاحتفاظ بعقلي؟

- لأن هويتك ومهارتك مرتبطان معًا. إن حرمتك من أحدهما، ستفقد الآخر. وهؤلاء الفرسان كان يجب قتلهم. (زفر) لكن الحقيقة هي

أنني حاولت، حين أريتك الكنز في مكتبي. لكنك لست كالآخرين. لقد تجاوزت الوهم.

عاد الطائر بذاكرته إلى الظهيرة التي أراه المعلم فيها الكنز. لقد شعر بقوتها بالفعل، لكنه قاوم إغواءها. تساءل إن كان يستطيع فعل هذا بلا قيد أو شرط. بدا أن قوتها الخبيثة تؤثر على كل مَن يتواصل معها. حتى المعلم الذي كان يراه قدوته وفي منزلة والده، وكان رجلًا صالحًا وعادلًا وعاقلًا ولا يهتم إلا بمصلحة الجماعة وأعضائها، أفسدته التفاحة أيضًا. ألقت التفاحة بضوئها على وجهه فأعطته هالةً مخيفة. وفعلت المثل مع روحه.

قال الطائر وهو ما زال يفكر في تلك الظهيرة: «وهم؟».

ضحك المعلم وقال: «هذا ما كان عليه. كنز الفرسان. قطعة عدن. كلمة الرب. هل فهمت الآن؟ لم ينشق البحر الأحمر. لم يتحول النبيذ إلى ماء. ولم تكن مكائد إريس هي سبب حرب طروادة. بل هذه». رفع التفاحة: «كلها أوهام».

أصر الطائر: «وخطتك بإرغام الرجال على اتباعك رغم إرادتهم هي وهمٌ كذلك».

- هل تَقِل حقيقة عن أوهام العرب والصليبيين؟ أي آلهة جبانة تنسحب من هذا العالم وتترك الرجال يذبحون بعضهم بعضًا باسمهم؟ إنهم يعيشون وهمًا بالفعل. أنا فقط أعطيهم وهمًا آخر. وهمٌ يتطلب دماءً أقل.

عارضه الطائر: «على الأقل هم **يختارون** هذا الوهم».

- حقًّا؟ بخلاف بعض المهتدين والمرتدين من آنٍ لآخر؟

قال الطائر: «هذا غير صائب».

- لم تعد منطقيًّا. أصبحت انفعاليًّا. خيبت أملي.

- ما العمل إذًا؟

- أنت لن تطيعني، وأنا لا أستطيع إرغامك.

- وأنت ترفض التخلي عن هذا المخطط الشرير.

- يبدو أننا وصلنا إلى طريقٍ مسدود.

قال الطائر: «بل وصلنا إلى النهاية».

ربما المعلم على حق، لقد شعر بنفسه يصارع موجة من الانفعالات بالفعل. مزيجٌ من الخيانة والحزن، وشيء آخر لم يدركه في البداية، لكنه فعل أخيرًا. إنها الوحدة.

سحب المعلم سيفه وقال: «سأفتقدك أيها الطائر. لقد كنت أفضل تلاميذي».

شاهد الطائر سنوات العمر تزول عن المعلم وهو يتخذ وقفته ويشهر سيفه لكي يجبر الطائر على فعل المثل. تحرك يمينًا ليختبر دفاع الطائر. وأدرك الطائر أنه لم يرَ المعلم يتحرك بهذه السرعة من قبل. فالمعلم الذي يعرفه يتحرك بتأنٍّ، ويسير بهدوء في الساحة، ويشير بإيماءات بطيئة. أما هذا فيتحرك كمبارز. يندفع للأمام ويلوح بسيفه. بينما يدافع الطائر، حوَّل المعلم هجمته إلى طعنة مجبرًا الطائر على استنفار كامل حذره. ثنى ذراعه وهو يُرجع سيفه إلى الخلف ليصد هجوم المعلم. أفقدته الحركة توازُنَه ودفاع جانبه الأيسر، فاستغل المعلم الفرصة وعاجله بضربة أخرى سريعة أصابت هدفها.

جفل الطائر بألم شاعرًا بدمائه تسيل على فخذه، لكنه لم يجرؤ على النظر. فهو لن يخاطر بإبعاد نظره عن المعلم ولو ثانية. على عكسه، ابتسم المعلم. ابتسامة معناها أنه لقن الشاب الصغير درسًا. تنحى

جانبًا ثم زيف هجمة بأن هاجم جهة ثم الأخرى، وذلك ليتجاوز دفاع الطائر.

ظل الطائر يقاوم الألم والتعب، واندفع مهاجمًا المعلم على حين غرة، فسعد برؤية ذلك. لكن على الرغم من أن السيف لمسه -على الأقل ظن أنه لمسه- بدا أن المعلم قد انزلق جانبًا، كأنه انتقل فجأة.

ضحك المعلم وقال: «أعمى. لطالما كنت أعمى، وستظل كذلك».

ثم هاجم مجددًا.

كان رد فعل الطائر أبطأ من المطلوب، فشعر بنصل المعلم يجرح ذراعه وصرخ بألم. ما عاد يمكنه الاحتمال، فهو منهكٌ تمامًا. كما أنه ينزف. شعر بالقوة تتسرب منه ببطء. التفاحة، وجروحه، وإرهاقه. كلها عناصر اجتمعت لتعوقه تدريجيًّا. إن لم يستطع قلب الطاولة قريبًا فسيُهزم بلا شك.

لكن ثقة العجوز بالتفاحة جعلته مستهترًا. في أثناء تفاخره راوغه الطائر وضربه ثانيةً بطرف سيفه، فأصابه ونزف. صرخ المعلم بألم وانتقل آنيًّا مجددًا. اختفى وظهر وهو يزمجر ويهاجم. تظاهر بالهجوم من اليسار وهو يحمل سيفه بظهر يده. دافع الطائر باستماتة حتى أبعده، لكنه كاد يسقط. تبادلا الضربات للحظات حتى انحنى المعلم ولوح بسيفه للأعلى فجرح خد الطائر، ثم تراجع بسرعة قبل أن يرد عليه الحشاش.

اندفع الطائر بضربة مضادة لكن المعلم انتقل آنيًّا. لكن عندما ظهر مجددًا لاحظ الطائر أنه بدا أكثر إنهاكًا. وعندما هاجم بدا أكثر تهورًا وأقل انضباطًا.

تقدم الطائر ملوحًا بنصله فأجبر المعلم على الانتقال الآني والتجسد على بُعد عدة أقدام. كانت التفاحة تمتص قوة الطائر، لكن هل تفعل

المثل لمستخدمها؟ هل يعرف المعلم هذا؟ ما مدى فهم ذلك العجوز للتفاحة؟ إن قوتها جبارة لدرجة تجعل الطائر يشك في إمكانية فهمها.

إذًا عليه أن يجبر المعلم على مواصلة استخدامها حتى تستنزف قوته. أطلق الطائر صيحة وانقض ملوحًا بسيفه نحو المعلم الذي اتسعت عيناه بدهشة من اندفاعه المفاجئ. انتقل بعيدًا لكن الطائر اندفع نحوه في لحظة تجسده. حمل وجه المعلم معالم الغضب والغيظ من تغيُّر قواعد القتال، واحتاج إلى الابتعاد قليلًا حتى يتأقلم.

تجسَّد على مسافةٍ أبعد هذه المرة. لاحظ الطائر أن خطته تنجح. لقد بدا المعلم أكثر تعبًا الآن. مع ذلك ما زال جاهزًا لهجمات الطائر العشوائية، واستطاع أن يجرح ذراعه الأخرى. لكن الإصابة لم تكن كافية لإيقافه. واصل الحشاش الشاب الهجوم مُجبرًا المعلم على الانتقال آنيًا، لآخر مرة.

عندما تجسد مجددًا ترنح قليلًا، ولاحظ الطائر أن سيفه أصبح أثقل في يده. رفع المعلم رأسه لينظر إلى الطائر. رأى الحشاش في عينَي المعلم أنه أدرك استنزاف التفاحة لقوته، كما أدرك أن الطائر قد لاحظ.

انقضَّ الطائر شاهرًا نصله، وغرسه عميقًا في صدر المعلم وهو يزأر بمزيجٍ من النصر والحزن. ربما كانت أفكار المعلم الأخيرة هي الفخر بتلميذه.

شهق قائلًا بينما يركع الطائر فوقه: «مستحيل. التلميذ لا يهزم معلمه أبدًا».

خفض الطائر رأسه شاعرًا بدموعه تحرق خديه.

أضاف المعلم: «لقد ربحت إذًا. اذهب وخذ جائزتك».

تدحرجت التفاحة من يد المعلم المفرودة، واستقرت على الأرض الرخامية وهي تلمع، وتنتظر.

قال الطائر: «لقد لعبت بالنار أيها العجوز. كان يجب تدمير هذا الشيء».

قال المعلم ضاحكًا: «تدمير الشيء الوحيد القادر على إنهاء الحروب الصليبية وتحقيق السلام الحقيقي؟ مستحيل».

قال الطائر: «سأفعل أنا إذًا».

ضحك المعلم بسخرية وقال: «سنرى بشأن هذا».

نظر الطائر إليها وشعر بصعوبةٍ في إبعاد عينيه. أرقد رأس المعلم المحتضر على الأرض، ثم وقف وسار نحوها.

التقطها.

شعر بها كأنها حية في يده. كأن دفعة من الطاقة تدفقت منها فأضاءتها وسرت في ذراعه وصولًا إلى صدره. شعر بانتفاخٍ مزعج في صدره في البداية، ثم شعر بطاقة الحياة تنساب فيه وتشفي ألم المعركة. نبضت التفاحة وومضت، فبدأ الطائر يرى صورًا عجيبة غامضة. رأى ما بدا مثل مدنٍ ضخمة ومتلألئة، بأبراجٍ وحصون، كأنها تعود لآلاف السنين في الماضي. ثم رأى ماكينات وأدوات وآلاتٍ غريبة، وفهم أنها من مستقبلٍ لم يحدث بعد. بعض تلك الآلات جلبت البهجة للناس، والبعض الآخر لم يجلب سوى الدمار والخراب. أخذ يلهث من تتابع الصور وكثافتها. بعدها أحيطت التفاحة بدائرة من الضوء، بدأت تتمدد وتطفو حتى وجد الطائر نفسه ينظر إلى كرة ضوئية. كرة ضخمة معلقة في هواء الحديقة. أخذت تدور ببطء بينما تشع ضوءًا ذهبيًّا دافئًا.

شعر بسحرها وانبهر بها. إنها خريطة، عليها رموز غريبة، أو بالأحرى كتابة لم يفهمها.

سمع المعلم من خلفه يقول: «لقد عودت قلبي على معرفة الحكمة والجنون والحماقة. أدركت أنه لا فائدة من هذا السعي. فالحكمة تورث الحزن. والمعرفة تزيد الأسى».

أسرع مالك ورجاله إلى الحديقة. بالكاد لمحوا جسد المعلم قبل أن يتجمدوا مكانهم مسحورين بالتفاحة. سمع الطائر أصوات صراخٍ عن بُعد. أيًّا كان السحر الذي أطلقه المعلم على مصياف، يبدو أنه انكسر.

استعدَّ لتحطيم التفاحة على الصخر، لكنه ما زال عاجزًا عن إبعاد نظره عن الصورة الدوارة، وشعر بذراعه عاجزة عن تنفيذ أوامر عقله.

هتف المعلم: «دمرها! دمرها كما قلت إنك ستفعل!».

ارتجفت يد الطائر بينما ترفض يده طاعة عقله، وقال: «لا.. لا أستطيع..».

- بل تستطيع أيها الطائر، (شهق) لكنك لن تفعل.

ثم مات.

رفع الطائر نظره عن جسد المعلم ليجد مالك ورجاله ينظرون إليه بترقب، في انتظار قيادته وإرشاده.

لقد أصبح الطائر هو المعلم الآن.

# الجزء الثالث

# 34

## 23 يونيو 1257

جلسنا في مكانٍ ظليل لنحتمي من حرارة سوق مصياف الحارقة. سألني مافيو: «هل حديقة المعلم هي المكان نفسه الذي يقع فيه مكتبة الطائر؟».

- بالتأكيد. قرر الطائر أنه المكان المناسب لحفظ وحماية أعماله. آلاف من المذكرات الملآنة بعلوم الحشاشين والمعرفة المكتسبة من التفاحة.

- ألم يدمرها إذًا؟

- لم يدمر ماذا؟

زفر مافيو قائلًا: «التفاحة».

- لا.

- لا وقتها ولا لاحقًا؟

- أرجوك لا تتعجل نهاية القصة يا أخي. لا، لم يدمر الطائر التفاحة فورًا. لقد كان عليه إيقاف الثورة التي اندلعت فور موت المعلم.

- اندلعت ثورة؟

- بالطبع. لقد حدث اضطرابٌ رهيب بعد وفاة المعلم مباشرةً. ظل الكثير من أعضاء الجماعة موالين للمعلم. إما لأنهم لم يعلموا بخيانته، أو رفضوا تقبُّل الحقيقة. لكن في نظرهم كان الطائر يقود انقلابًا ويجب منعه. وبالطبع كانت هناك أصوات محددة تشجعهم.

- عباس؟

ضحكت وقلت: «بالتأكيد. يمكنك أن تتخيل صراع عباس الداخلي بخصوص تغيير مجرى الأحداث. إن مقته للمعلم كان بقدر مقته للطائر، إن لم يكن أشد».

- وهل أخمد الطائر الثورة؟

- مؤكد. وفعل هذا باتباع تعاليم العقيدة. أصدر أمرًا لمالك ورجاله بعدم أذية الثوار. لم يسمح بقتلهم أو معاقبتهم. لهذا لم يظهر منتقمون بعد إخماد الثورة. استخدم الطائر الحوار المنطقي ليقنعهم. أولًا، أقنعهم بجُرم المعلم، ثم بكونه مناسبًا للقيادة. بفعل هذا، استطاع أن يحافظ على محبتهم وإيمانهم وولائهم. بهذا أصبحت مهمته الأولى بصفته قائد الجماعة الجديد هي إظهار المبادئ التي يسعى لتثبيتها. لقد أعاد الأخوية من شفا الانهيار بأن أنار لهم الطريق.

بعد حل هذه الأزمة، أدار انتباهه لمذكراته. كتب أفكاره عن الجماعة ومسؤوليته نحوها، وأيضًا المرأة العجيبة التي قابلها في المقبرة. والتي كلما ذكرها كان يكتب كلمة «سحرتني» ثم يشطبها ويغيرها إلى «أثارت اهتمامي». لقد علقت بذهنه بكل تأكيد.

وبالطبع كتب أساسًا عن التفاحة التي أصبح يحملها معه دائمًا. حين يكتب مذكراته ليلًا يضعها بجانبه. وحين ينظر إليها يشعر بخليطٍ من

المشاعر. ينتابه الغضب، لأنها أفسدت الشخص الذي كان بمنزلة والده، وكان حشاشًا عظيمًا ورجلًا أعظم. وينتابه الخوف، لأنه اختبر قوتها في منح القوة وسلبها وفي سحر العقول.

لقد كتب بريشته «إن كانت هناك ذرة خير في هذه الأداة، فسأكتشفه. لكن إن كانت لم تحوِ سوى الشر واليأس، فأتمنى أن أملك القوة لتدميرها».

نعم. لقد كتب في مذكراته أنه سيدمر قطعة عدن إن لم تحمل خيرًا للبشرية. هذا ما كتبه بالضبط. لكنه تساءل كيف سيملك القوة لتدميرها إذا حانت اللحظة.

الحقيقة المؤكدة هي أن مَن يملكها سيحمل قوةً رهيبة، وسيرغب فرسان الهيكل في امتلاك تلك القوة. كما أنه تساءل إن كان الفرسان يبحثون عن أدوات أثرية أخرى. هل يمتلكون المزيد؟ عرف أنهم تمركزوا في ميناء عكا بعد وفاة روبرت دي سابل. هل عليه مهاجمتهم هناك؟ كان مصرًّا على ألا يمتلك شخصٌ آخر التفاحة أو ما يشبهها أبدًا.

لا أحد سواه.

أخذ يفكر في هذا في غرفته. وربما استغرق وقتًا طويلًا حتى انتابه القلق من أن يكون قد سمح لأعدائه بإعادة التجمع. استدعى مالك وجبل. ولَّى مالك قيادة الجماعة مؤقتًا، وأبلغ جبل أنهما سيقودان فريقًا إلى ميناء عكا فورًا لشن هجومٍ على قاعدة الفرسان واقتلاعهم من جذورهم.

سرعان ما غادرا بعدها. وفي أثناء ذلك رأى الطائر عباس واقفًا على مدخل القلعة وينظر إليه بشرٍّ. لم تخفف الأحداث الأخيرة من كراهيته، بل شحذتها إلى درجةٍ خطِرة.

# 35

بدأ الليل يحل على ميناء عكا. غرقت حجارة الميناء الرمادية بألوان الغروب البرتقالية، وصبغت آخر أشعة الشمس البحر بلونٍ أحمر بينما تذوب في الأفق. ارتطمت الأمواج بقوة بالأسوار والحواجز. وصرخت النوارس من مواقعها. عدا ذلك كان الميناء خاليًا بغرابة.

أو على الأقل هذا المرفأ. راقب الطائر المرفأ وشعر بالحيرة من غياب فرسان الهيكل مقارنةً بآخر مرة كان هنا، حين كان جنود سيبراند منتشرين فيه كالنمل. أنبأه حدسه أن أي نشاط سيكون موجودًا على الجانب الآخر من الرصيف، وزاد قلقه. لقد استغرق وقتًا طويلًا في اتخاذ القرار. هل سيدفع ثمن هذا؟

لكن المرفأ لم يكن خاليًا تمامًا. سمع الطائر خطواتٍ تقترب وحديثًا هامسًا. رفع يده خلفه فتوقف الفريق المصاحب له بسكون واستتروا بالظلام كالظلال. تسلل على سور الميناء حتى استطاع رؤية الجنود، وارتاح عندما افترقوا. كان أول جندي تحته مباشرةً تقريبًا، يرفع مصباحه وينظر إلى الزوايا المظلمة في سور الميناء الرطب. تساءل الطائر إن كان هذا الجندي يفكر في وطنه -سواء كان إنجلترا أو فرنسا- وفي عائلته التي تركها هناك، وحزن لأن هذا الرجل عليه أن يموت. قفز بصمت من على السور وهبط على الرجل مباشرةً غارسًا نصله عميقًا فيه. تمنى لو كان هناك حلٌّ آخر.

شهق الجندي وتمتم بالفرنسية وهو يموت: «يا إلهي!».

وقف الطائر، ورأى الجندي الثاني يتحرك على حجارة الرصيف المبتلة رافعًا مشعله الذي قطر قارًا، محاولًا إبعاد الظلام. كان يجفل مع كل صوت. وبدأ يرتجف بخوف. سمع صوت خربشة فأر، فقفز واستدار بسرعة. رفع مشعله عاليًا لكن لم يرَ شيئًا.

واصل الحركة ناظرًا إلى الظلام وباحثًا عن زميله. بالتأكيد يقول لنفسه «يا إلهي، أين هو؟ لقد كان هنا منذ لحظة». لقد جاءا إلى الرصيف معًا، والآن لم يعد يراه أو يسمعه. بدأ الحارس يرتجف خائفًا. سمع أنينًا ثم أدرك أنه مَن يئن. سمع ضوضاء من خلفه، فاستدار بسرعة ولقي حتفه فورًا.

ركع الطائر بجوار جثة الحارس لحظات يرهف سمعه في حال وجود تعزيزات. لكن لم يأتِ أحد. نهض واقفًا وانضم إليه باقي الحشاشين. نزلوا عن السور ووصلوا إلى المرفأ. كانوا يرتدون عباءات بيضاء مثله وينظرون بأعينهم السوداء من تحت القلنسوات. انتشروا بصمت وأصدر لهم الطائر تعليمات بالإشارة وأمرهم بالتحرك بصمتٍ وخفة في الميناء. جاء حراس فرسان الهيكل يركضون، لكن تعامل الحشاشون معهم. اخترق الطائر صفوفهم تاركًا القتال لفريقه، ثم وصل إلى سور. نهض القلق في أحشائه. لقد أساء توقيت هجومه، فالفرسان يتحركون بالفعل. حاول حارس إيقافه، لكن الطائر عاجله بضربةٍ من نصله فسقط والدماء تندفع من عنقه المشقوق. استخدم الحشاش جسد الحارس مثل منطٍّ ليصل إلى قمة سور الميناء، ثم انحنى مكانه ونظر إلى الرصيف المجاور ثم إلى البحر.

تحققت مخاوفه. لقد انتظر كثيرًا بالفعل. فأمامه أسطول صغير من سفن فرسان الهيكل، تمخر البحر المتوسط المصبوغ بلون الغروب

الذهبي. أطلق الطائر سبابًا وتحرك بسرعة من الميناء إلى قلب الرصيف. سمع من خلفه صوت قتال رجاله مع التعزيزات. استمر إخلاء الفرسان، لكن أنبأه حدسه أن سر هروبهم موجود في معقلهم. تحرك بسرعةٍ وحذر إلى حصنهم الذي يطل بظلاله على أرصفة الميناء. تخلص آسفًا من الحراس القلائل الذين صادفهم. أراد تعطيل هروب العدو بقدر ما أراد حل لغزه.

داخل الحصن امتصت الحجارة الرمادية أصوات خطواته. لاحظ فورًا غياب الفرسان. بدا المكان مهجورًا بالفعل. صعد السلالم الحجرية حتى وصل إلى شرفة. وهناك سمع أصوات ثلاثة أشخاص في خضم محادثة حامية. تعرَّف على صوتٍ محدد بينما يقف خلف عمود ليتنصت. تساءل سابقًا إن كان سيسمع هذا الصوت مجددًا، بل تمنى أن يسمعه.

إنها المرأة التي قابلها في المقبرة في بيت المقدس. تلك اللبؤة الشجاعة التي لعبت دور بديل دي سابل. كانت تقف مع فارسين آخرين، ولاحظ في صوتها الاستياء.

قالت بحدة: «أين سفني أيها الجندي؟ أبلغوني بوجود أسطولٍ آخر من ثمانِ سفن».

ألقى الطائر نظرة، ورأى ظلال سفن الفرسان في الأفق.

رد أحد الجنديين: «آسف يا ماريا، لكن هذا أفضل ما استطعنا فعله».

*ماريا*. تذوق الاسم على لسانه بينما يتأمل شكل فمها وعينيها اللامعتين بالحياة والحيوية. لاحظ تلك الصفة فيها مجددًا، كأنها تكبح نفسها.

قالت: «كيف تقترح نقل بقيتنا إلى قبرص إذًا؟».

*لماذا سينتقل فرسان الهيكل إلى قبرص؟*

قال الجندي: «عذرًا ولكن ربما من الأفضل أن تبقي في عكا».

انتابها حذرٌ مفاجئ وهي تسأل: «ما هذا؟ أهو تهديد؟».

رد الجندي: «بل تحذير. أرماند بوشارتهو زعيم فرسان الهيكل الآن، وهو لا يحبكِ».

انتبه الطائر. *أرماند بوشارت. إنه بديل دي سابل الآن.*

وقفت ماريا في وسط الشرفة وقالت بغضب: «لماذا؟ أيها الوقح...». كبحت نفسها. «سأذهب إلى مدينة ليماسول في قبرص بنفسي».

انحنى الجندي قائلًا: «نعم يا سيدتي».

غادر الجنديان تاركين ماريا وحدها في الشرفة حيث استمتع الطائر بالاستماع إليها وهي تُحدث نفسها: «اللعنة، كنت على بُعد خطوة من نيل رتبة فارس. والآن لم أعد أكثر من مرتزقة».

تحرك نحوها. إنه بحاجةٍ إلى التحدث معها، أيًّا كان شعوره نحوها، وهو لن ينكر أنه يشعر بشيءٍ ما بالفعل. سمعت شخصًا يقترب، فاستدارت وتعرفت عليه فورًا.

قالت: «حسنًا، إنه الرجل الذي عفا عن حياتي لكنه دمرها».

لم يكن لدى الطائر الوقت ليتساءل عن معنى كلامها، لأنها سحبت سيفها في لمح البصر وانقضت عليه بسرعة ومهارة وشجاعة أثاروا إعجابه. بدلت السيف بين يديها ودارت لتهاجمه من جانبه الأضعف، فاضطر إلى التحرك بسرعة حتى يدافع. كانت بارعة. أكثر براعة من بعض رجاله. تبادلا الضربات بعض الوقت. وتردد صليل السيوف، ولا يقاطعها إلا هتافها من المجهود الذي تبذله.

ألقى الطائر نظرةً خلفه ليتأكد من عدم وصول تعزيزات. لكن لا يوجد بالطبع. لقد تخلت عنها جماعتها. من الواضح أن قربها من دي سابل لم يخدمها مع بديله.

واصلا القتال. للحظةٍ وجدت ظهره مواجهًا لدرابزين الشرفة، وخلفه البحر المظلم. وفي اللحظة نفسها تساءل إن كان يمكنها التفوق عليه. ويا لها من سخرية. لكن رغبتها المستميتة في الفوز جعلتها متهورة، فاستطاع الطائر أن يتقدم ويدور ثم يركل ساقيها وينقض عليها واضعًا نصله على عنقها.

قالت بتحدٍّ: «هل عدت للقضاء عليَّ؟». لكنه لاحظ الخوف في عينيها.

قال دون أن يبعد نصله عن عنقها: «ليس بعد. أريد معلومات. لماذا يبحر فرسان الهيكل إلى قبرص؟».

ابتسمت قائلة: «لقد كانت حربًا طويلة وقذرة أيها الحشاش. الجميع يستحق بعض الراحة».

كبح ابتسامته وقال: «كلما زادت المعلومات التي تخبرينني بها، طالت حياتكِ. لهذا سأكرر سؤالي. لماذا تتراجعون إلى قبرص؟».

- أي تراجع؟ لقد نقض الملك ريتشارد الهدنة مع صلاح الدين. وفقدت جماعتك قائدها، أليس كذلك؟ بمجرد أن نستعيد قطعة عدن، ستكون أنت مَن يهرب.

أومأ الطائر متفهمًا. أدرك أن الفرسان افترضوا معرفة أمورٍ كثيرة عن جماعة الحشاشين دون أن يعرفوها حقًّا. أول خطأ هو أن الحشاشين لهم قائد بالفعل. ثاني خطأ هو أنهم لا يهربون من الفرسان أبدًا. وقف وجذبها لتقف، لكنها سحبت نفسها ونظرت إليه شزرًا.

قال لها: «التفاحة مخفية جيدًا».

لكنها ليست كذلك في الواقع، بل هي في حجرته في السفينة بكل بساطة.

- فكِّر في اختياراتك جيدًا أيها الطائر. سيدفع الفرسان ثمنًا باهظًا لهذه القطعة الأثرية.

قال الطائر وهو يقودها: «لقد دفعوا الثمن بالفعل، أليس كذلك؟».

بعدها بقليل اجتمع مع فريق الحشاشين. انتهت المعركة في المرفأ وسيطروا على ميناء عكا. كان جبل بين الفريق. رفع حاجبيه عند رؤية ماريا، ولوح لزميليه لكي يأخذاها قبل أن ينضم إلى الطائر.

تساءل الطائر وهو يسير بخطواتٍ واسعة: «ماذا يحدث في قبرص ويثير اهتمام الفرسان؟ لقد قرروا وجهتهم التالية بالفعل، ولا وقت لدينا نضيعه».

قال جبل فاردًا كفيه: «ربما ثورة أهلية؟ إن إمبراطورهم إيزاك كومنينوس افتعل شجارًا مع الملك ريتشارد منذ عدة أشهر. والآن يتعفن في زنازين الفرسان».

فكر الطائر قائلًا: «مؤسف. كان إيزاك يخضع بسهولة ويقبل الرشاوى».

توقفا عند سلم المرفأ، واقتيدت ماريا بجوارهما مرفوعة الرأس.

قال جبل: «لقد ولَّت هذه الأيام. الآن يملك الفرسان الجزيرة. لقد اشتروها من الملك بمبلغٍ زهيد».

قال الطائر: «نحن لا نشجع هذا النوع من الحكومات. هل لدينا أي اتصالاتٍ هناك؟».

- لدينا مخبر في مدينة ليماسول، اسمه أليكساندر.

قال الطائر: «أرسِل إليه رسالة. أخبره أن ينتظر وصولي خلال أسبوع».

# 36

أبحر إلى قبرص وحيدًا، لكن ليس تمامًا. لقد أخذ معه ماريا. أخبر جبل أنه أخذها ليمكنه استخدامها طعمًا لفرسان الهيكل. لكنه كتب في مذكراته أنه أحب وجودها معه. بكل بساطة ودون تعقيد. لقد نال بضع نساءٍ في حياته. مَن شاركن سريره أشبعن حاجته وحسب. لكنه لم يقابل قط امرأة تشعل قلبه وتثير مشاعره. هل يمكن أن يكون قد قابلها الآن؟ كتب هذا السؤال في مذكراته.

وصل إلى ليماسول واكتشف أن الفرسان احتلوا الجزيرة تمامًا. غرق المرفأ بنور الشمس البرتقالي الذي لمع على الحجارة، وانعكس على البحر الأزرق. ظلت النوارس تصرخ وهي تحلق فوقهم بصخبٍ لا ينتهي. رأى صلبان الفرسان الحمراء تملأ المكان، وكذلك جنودهم اليقظون الذين يراقبون الشعب الناقم. إنهم يعيشون تحت قبضة الفرسان الحديدية الآن بعدما بيعت جزيرتهم رغمًا عنهم بكلمةٍ من ملكٍ مشكوك في أحقيته بامتلاكها. واصل معظمهم حياتهم لأجل إطعام عائلاتهم. وشكَّل بعض الأفراد الشجعان جماعة مقاومة. هؤلاء هم أكثر مَن سيتعاطف مع مهمة الطائر، لذلك خطط للقائهم.

نزل من سفينته وسار على الرصيف. أخذ معه ماريا بعدما ربط يديها. حرص على إزالة أي علامة تدل على أنها من فرسان الهيكل من باب الاحتياط، فهي أسيرته الآن. بالطبع أغضبها الموقف، ولم تتوانَ

عن إظهار ذلك. أخذت تزمجر بينما يسيران على أرصفة الميناء. لكن زمجرتها كانت أشد خفوتًا مما توقع. كان الطائر مستمتعًا سرًّا باستيائها.

قالت وهي تجز على أسنانها: «ماذا لو صرخت؟».

ضحك الطائر وقال: «سيغطي الناس آذانهم ويواصلون حياتهم. لقد رأوا الكثير من الأسرى التعساء من قبل».

لكن أي ناس؟ كانت أرصفة الميناء خاوية بغرابة. وعندما سارا في الشوارع الخلفية، وجداها مهجورة أيضًا. فجأة خرج رجلٌ من الحارة التي أمامهما، يرتدي عباءة بالية وعمامة. بالإضافة إلى براميل خالية وصناديق محطمة. كما سمعا ماءً يقطر من مكانٍ ما. كانا وحيدَين تمامًا. هذا ما أدركه الطائر قبل أن يخرج رجلان آخران من حارتين حولهما.

قال الرجل الأول: «محظور دخول الميناء. أظهِر وجهك».

زمجر الطائر قائلًا وهو يرفع رأسه لينظر إلى الرجل: «لا شيء تحت هذه القلنسوة سوى حشاش قبيح وعجوز».

ابتسم المتشرد ولم يعد يشكل تهديدًا عندما قال مبتسمًا: «الطائر».

- أليكساندر، لقد تلقيت رسالتي.

- ظننتها فخًّا من فرسان الهيكل.

ثم نظر إلى ماريا متفحصًا ولمعت عيناه وهو يسأل: «مَن هذه المرأة؟».

أوضح الطائر: «طعم للفرسان. كانت من رجال دي سابل، لكنها أصبحت عبئًا للأسف».

نظرت إليه «ماريا» بحدة. لو كانت النظرات تقتل، لعذبته بشراسةٍ أولًا.

قال أليكساندر: «يمكننا أن نحتجزها لك. لدينا مخبأ آمن».

أخذت تسبُّ أرواحهم المتعفنة بينما يسيرون نحو المخبأ. يا لها من لغة فجة بالنسبة لامرأةٍ إنجليزية.

سأل الطائر أليكساندر عن قلة المواطنين في الشوارع.

رد أليكساندر: «تبدو كمدينة أشباح، أليس كذلك؟ يخشى الناس الخروج من بيوتهم خوفًا من خرق قانون جديد غريب».

قال الطائر مفكرًا: «لم يهتم الفرسان بالحكم قط. أتساءل لماذا الآن».

أومأ أليكساندر. في أثناء سيرهم مروا بجنديين نظروا إليهم بريبة. استعد الطائر في حال كشفت ماريا أمرهم. لكنها لم تفعل، وتساءل إن كان يتعلق الأمر بتخليهم عنها في عكا. أو ربما... لا. نفض الفكرة الأخرى عن رأسه.

وصلوا المخبأ الآمن. كان مستودعًا مهجورًا جعله أليكساندر قاعدةً له. فيه غرفة تخزين لها باب خشبي يُغلق بمزلاج. لكنهم تركوا ماريا في المنطقة المفتوحة للوقت الراهن. تفقد الطائر الحبل المقيد لمعصميها. مرر إصبعه بين الحبل وجلدها ليتأكد أنه لا يؤلمها. نظرت إليه نظرة لم يستطع وصفها إلا بأنها «ازدراء شاكر».

قال أليكساندر عندما جلسا: «بالطبع لم تأت إلى هنا بدافع الإحسان. هل يمكن أن أسألك عن هدفك؟».

أراد الطائر أن يتصرف بسرعة. أراد مهاجمة قاعدة فرسان الهيكل فورًا، لكنه يدين للقبرصي بالشرح.

- إنها قصةٌ معقدة، لكن يمكنني تلخيصها. يملك الفرسان معرفة وأسلحة أكثر فتكًا مما يمكن تخيله. أريد عكس الأمور. استطعنا الحصول على سلاحٍ منها. إنها أداة لديها القدرة على التلاعب بعقول البشر. لو أنهم يمتلكون المزيد منها، فأريد أن أعرف.

قالت ماريا بسخرية من خلفهما: «وبالطبع يمكننا ائتمان الحشاشين على حسن استخدام التفاحة، قطعة عدن».

كبح الطائر ابتسامته لكنه تجاهلها وقال لأليكساندر: «أين يتمركز الفرسان الآن؟».

- في قلعة ليماسول، لكنهم يوسعون سيطرتهم.

فكر الطائر أن عليه منعهم.

سأله: «كيف أدخل؟».

أخبره أليكساندر عن عثمان. إنه من الفرسان لكنه يتعاطف مع المقاومة القبرصية.

- اقتل كابتن الحراس. إن مات، فعلى الأغلب سيترقى عثمان إلى مركزه. وبحدوث هذا، يمكنك أن تدخل بسهولة.

قال الطائر: «بداية معقولة».

***

تعجب من هدوء المدينة بينما يسير في الشوارع. وفي أثناء سيره أخذ يفكر في ماريا والتفاحة. لقد أحضرها معه، لكنه تركها في حجرته بالسفينة. هل من الحماقة أن يحضر الكنز إلى هذا القرب من العدو؟ الزمن وحده سيجيب عن هذا.

وجد كابتن الحراس في السوق. لقد جعل من نفسه هدفًا واضحًا بارتدائه زيًّا أحمر فوق درعه والتبختُر كالملوك. نظر الطائر حوله

فرأى حراسًا آخرين في المكان. خفض رأسه لكيلا يلفت الانتباه لنفسه، وتجنَّب نظر الحراس الذي راقبوه بنظراتٍ فاحصة مرتابة. عندما واصل السير بدا كباحث. ثم بدأ يخطط سيره بحذر بحيث يصل إلى خلف القائد الذي وقف في أحد طرفَي الزقاق يهتف بأوامره لرجاله. كان الزقاق خاليًا بخلاف الكابتن، والآن قاتله أيضًا.

أخذ الطائر سكينًا من الجراب المعلق على كتفه، ثم أطلقها برمية من معصمه. سقط الكابتن على الأرض الحجرية بحشرجةٍ طويلة. وعندما جاء حراسه راكضين، كان الطائر قد ذهب إلى الزقاق المجاور وذاب في الشوارع الجانبية الخالية. تمت مهمته، وعليه الآن البحث عن عثمان كما أرشده أليكساندر.

شقَّ طريقه بخفةٍ وسرعة على أسطح المدينة التي صبغتها الشمس. تنقل على العوارض الخشبية كالقطط حتى وجد نفسه ينظر إلى ساحة. رأى عثمان أسفله مباشرةً. إنه فارس هيكل لكنه يشارك الحشاشين في تعاطفهم. انتظره الطائر حتى صار وحده، ثم نزل إلى الساحة.

نقل عثمان نظره من الطائر إلى الجدار أعلاه ثم أعاده إلى زائره مجددًا بعينين تلمعان بتسلية. لقد أُعجِب بمهارات الحشاش في التسلل على أقل تقدير.

قال الطائر: «تحياتي يا عثمان. أليكساندر يرسل تحياته ويتمنى لجدتك عيد ميلادٍ سعيد».

ضحك عثمان وقال: «عزيزتي، فلترقد في سلام. والآن، كيف يمكنني مساعدتك يا صديقي؟».

- هل يمكنك إخباري عن سبب شراء فرسان الهيكل لقبرص؟ هل لنهب مواردها؟

- رتبتي ليست عالية كفاية لمعرفة هذا، لكنني سمعتُ أحاديث عن أرشيفٍ ما.

كان يتلفت يمينًا ويسارًا. فلو رآه أحد يتحدث إلى الطائر، سيحكمون عليه بالموت علنًا في السوق.

- أرشيف؟ مثير للاهتمام. ومَن فارس الهيكل الأعلى رتبة في ليماسول؟

- فارسٌ يُدعى فريدريك الأحمر. إنه يدرب الجنود في قلعة ليماسول. إنه وحش حقيقي.

أومأ الطائر وقال: «بوفاة حارس القلعة، كيف يمكنني الدخول؟».

- إن ترقيت لمركزه، يمكنني اختلاق عذرٍ لتقليل حراسة القلعة لوقتٍ قصير. هل ينفعك هذا؟

- سأجعله ينفع.

بدأت الأمور تسير بسرعة.

***

- عثمان يقوم بالترتيبات.

هكذا قال الطائر لأليكساندر لاحقًا عند عودته إلى المخبأ. أمضت ماريا في غيابه معظم يومها في المخزن حيث انهالت على أليكساندر بسلسلةٍ من الإهانات والجمل المتذاكية. وزاد غيظها حين طلب منها أن تعيدها لأنه معجبٌ بمخزونها من الكلمات الإنجليزية. سمحوا لها بالخروج الآن لكي تأكل. جلست على كرسي خشبي غير متوازن، ونظرت شزرًا إلى الطائر وأليكساندر اللذَين جلسا يتحدثان. وألقت نظراتها الغاضبة على أي رجل من المقاومة يمر بهم.

قال أليكساندر: «ممتاز. ماذا الآن؟».

قال الطائر: «سنعطيه بعض الوقت». استدار إلى ماريا وسألها: «أخبرني أيضًا عن أرشيف للفرسان. هل سمعتِ عنه؟».

ردت ماريا: «بالطبع. نحتفظ فيه بملابسنا الداخلية».

يئس الطائر منها، فاستدار إلى أليكساندر وقال: «قبرص مكانٌ مناسب لإخفاء كلٍّ من المعرفة والأسلحة. فهي جزيرة يسهُل الدفاع عنها مع الإستراتيجية الصحيحة».

ثم وقف. ينبغي أن يكون عثمان قد أخلى أسوار القلعة الآن. حان الوقت لاختراقها.




telegram @
yasmeenbook

# 37

بعد قليل وصل إلى ساحة قلعة ليماسول واستعد للتسلل. قبع في الظلال ونظر إلى الأسوار الحجرية المحظورة. راقب الرماة ودرس توقيت حركتهم على المتاريس.

ارتاح لرؤية عددٍ قليل منهم. لقد أحسن عثمان العمل. لم يكن الحصن غير مؤمَّن بالكامل، لكن الطائر يمكنه الدخول بهذا المستوى. وهذا كل ما يحتاج إليه.

تسلق الجدار إلى أحد المتاريس، ثم تسلل إلى القلعة. صرخ حارس وسقط بعدما تلقى سكينًا في عنقه من يد الطائر. سمع حارس آخر الجلبة وجاء مسرعًا حتى تلقى نصل الطائر. أرقد الطائر الحارس على الأرض ووضع قدمه على ظهره ليسحب السكين منه، فسال الدم على الأرض. واصل طريقه داخل القلعة قليلة الحراسة، وتخلص من أي حارسٍ يقابله. لقد أحسن عثمان العمل بالفعل. لم يكتفِ بتقليل الحراس على الأسوار، بل داخل القلعة أيضًا. تجاهل الطائر القلق الذي تلوى في أحشائه مثل وخزٍ مزعج.

واصل الصعود والتوغل حتى وصل إلى أقسام القلعة الداخلية حتى وصل إلى شرفةٍ تطل على فناء واسع يُستخدم كساحة تدريب.

هناك رأى فريدريك الأحمر. كان عملاقًا ضخمًا ذا لحية، يشرف على مبارزة بين اثنين من رجاله. ابتسم الطائر عندما رآه. الجاسوس اللطيف عثمان كان محقًّا. إن فريدريك الأحمر وحشٌ بالفعل.

كان يزأر: «لا رحمة يا رجال. هذه جزيرة من الوثنيين المخرفين. تذكروا أنهم لا يريدونكم هنا، ولا يحبونكم، ولا يفهمون الحكمة الحقيقية لقضيتكم، ويخططون في كل لحظةٍ لطردكم. خذوا حذركم ولا تثقوا بأحد».

تبارز الفارسان بعنف بدروعهم كاملة. تردد صليل سيفيهما في الساحة. توارى الطائر عن الأنظار في الشرفة العليا، واستمع إلى قائد الفرسان وهو يحفزهم.

- جِدُوا الثغرات في درع خصمكم. اضربوا بقوة. واحتفلوا لاحقًا في الحانات.

وقف الطائر وتسلق الجدار الذي في مجال بصر الفرسان الثلاثة في ساحة التدريب، لكنهم كانوا مشغولين بالمبارزة. قاس الارتفاع من حيث يقف إلى الأرض الحجرية بالأسفل، ثم سحب نفسًا عميقًا ومد ذراعيه وقفز.

هبط بصوت ارتطامٍ خفيف خلف فريدريك مباشرةً. حنى ركبتيه ومد ذراعيه ليحفظ توازنه. استدار القائد ذو اللحية بينما يستقيم الطائر. تطاير الشرر من عينيه وهو يزأر قائلًا: «حشاشٌ في قبرص؟ حسنًا، أنتم تتأقلمون سريعًا أيها الطفيليات. سأضع حدًّا لـ...».

لم يستطع إكمال جملته. فالطائر الذي أراد النظر في عينَي الفارس قبل قتله قد شقَّ عنقه بنصله بحركةٍ واحدة في طرفة عين. أطلق

فريدريك الأحمر حشرجة قصيرة وخرَّ ساقطًا بعنقٍ مشقوق يفيض منه الدم على الأرض الحجرية من حوله، فصار اسمه على مسمى.

للحظة تسمَّر رجلاه مكانهما. حجبت خوذتاهما الانفعالات المرسومة على وجهيهما. لذلك استطاع الطائر أن يخمن فقط الصدمة المخفية خلف المعدن. ثم تعافيا وهاجما. دفع الطائر نصله عبر الشق المخصص للعينين في خوذة الرجل الأول. خرج من خلف الخوذة صوت اختناق، وسال الدم من فتحة الخوذة بينما يسقط المبارز. هجم المبارز الثاني حاملًا سيفه العريض على أمل أن يجد خصمه. راوغ الحشاش بسهولة وأخرج سكينًا في الوقت نفسه. ثم بحركةٍ واحدة دار ودفع السكين أسفل درع الفارس.

انتهت المعركة مسفِرة عن ثلاث جثث على الأرض. نظر الطائر في أنحاء الساحة وهو يلتقط أنفاسه. قلة الأعداد في القلعة لها مزاياها. عاد إلى الشرفة وخرج كما دخل. ظل الشك ينخر في عقله في طريق عودته. معظم الجثث التي مر بها هي نفسها التي تركها خلفه، لم يزلها أحد. لا يوجد أي جنود الآن. على الإطلاق. أين الجميع؟

حصل على جوابه بعد أن خرج من الحصن وبدأ رحلة العودة إلى المخبأ الآمن عبر الأسطح. كان يتوق إلى الراحة، وربما بعض المناكفة الكلامية مع ماريا. أو حتى محادثة صغيرة. كل ما استطاع معرفته منها حتى الآن هو أنها إنجليزية، وأنها تابعة دي سابل. لم يفهم الطائر ما معنى هذا، ولم يسأل. وأنها دخلت الحملات الصليبية بعد واقعةٍ في وطنها إنجلترا. أثار هذا فضوله. تمنى أن يكتشف ماذا حدث لها.

فجأة رأى دخانًا. عمود سميك يُظلم السماء.

كان آتيًا من المخبأ الآمن.

دق قلبه بعنف كلما اقترب. رأى جنديًّا صليبيًّا يقف حارسًا ليمنع أي شخص يحاول الاقتراب من المبنى المشتعل. امتدت ألسنة اللهب من النوافذ والباب. تغطى السقف بدخان أسود كثيف. لهذا كانت الحراسة قليلة في قلعة فريدريك.

أول ما خطر للطائر لم يكن سلامة الجماعة، أي أليكساندر ورجال المقاومة الذين ربما كانوا في الداخل، بل أول ما خطر بباله هي ماريا.

اشتعل غضبه وأطلق نصله. بحركةٍ واحدة قفز من السطح وهبط على اثنين من فرسان الهيكل. مات الأول صارخًا مباشرةً. أما الثاني فكان لديه الوقت ليستدير بعينين متفاجئتين ليرى نصل الطائر ينحر عنقه. ترددت الصيحة عاليًا فأتى المزيد من الجنود راكضين. قاتل الطائر باستماتة ليصل إلى المخبأ الآمن. لا يعرف إن كانت ماريا ما زالت في الداخل أم لا. ربما تختنق حتى الموت الآن. هل تركوها في غرفة التخزين؟ هل هي هناك الآن تضرب الباب وتشهق طلبًا للهواء في الغرفة الممتلئة بالدخان؟ لو صحيح، بدأ يتخيل الرعب الذي تشعر به حتمًا. اندفع نحوه المزيد من الفرسان رافعين سيوفهم توقًا للدماء. فواصل القتال. قاتلهم بالسكاكين والسيف حتى الإجهاد. امتلأ الشارع بجثث الفرسان، واختلطت الدماء بالتراب. اندفع إلى المخبأ المشتعل مناديًا باسمها.

- ماريا!

لم يسمع إجابة.

اقترب المزيد من الفرسان. صعد الطائر إلى الأسطح بقلبٍ مثقل ليقيِّم الموقف ويخطط لخطوته التالية.

# 38

تحددت له خطوته التالية تلقائيًّا. جلس الطائر في برجٍ عالٍ تحت ظل جرس، وراقب حركة الشوارع التي بدت خالية. رأى الناس يغادرون بيوتهم دون أن يعلم وجهتهم التالية. لكنه قرر أن يكتشف.

ما زال الدخان يتصاعد من بقايا المخبأ المتفحمة، وما زال الفرسان يتحركون. استغل الطائر الأسطح ليتبع أهل المدينة بينما يسيرون إلى الميدان. رأى التعبير على وجوههم وتنصت على أحاديثهم. كلها تدور حول الانتقام والثأر. سمع اسم أرماند بوشارت كثيرًا. قالوا إن بوشارت وصل إلى الجزيرة لتوه. لديه سمعةٌ مخيفة ومتوحشة.

كان الطائر على وشك رؤية هذه السمعة على أرض الواقع. لكنه في الوقت الراهن شعر بالسعادة عندما رأى ماريا سليمة معافاة بين الحشود. كانت محاصرة برجلين من فرسان الهيكل. واضحٌ من المنظر أنها سجينتهما، لكنها لم تكن مقيدة. كانت عيناها مركزتين على سُلم الكاتدرائية مثل الجميع.

ظل يتابعها بنظره وهو يتوارى عن الأنظار فوق سطحٍ يطل على الميدان. رأى عثمان وهو يأخذ موضعه على جانب السلم استعدادًا لدخول أرماند بوشارت، الزعيم الجديد لفرسان الهيكل، الذي سار بخطواتٍ واسعة وانضم إليه.

ومثل دي سابل من قبله، يبدو أنهم اختاروا بوشارت لأجل مظهره المهيب وقدرته القيادية. كان يرتدي درعًا كاملًا، لكنه بدا قويًّا ورشيقًا. كان أصلع بحاجبين كثين يظللان عينيه. أما خداه الغائران فجعلا وجهه أشبه بالأموات.

قال بصوتٍ هادر طالبًا انتباه الحشد في الميدان: «وقعت جريمة قتلٍ خبيثة في جماعتي. وجدنا عزيزنا فريدريك الأحمر مذبوحًا. لقد خدم الرب وأهل قبرص بشرف، ونال جزاءه بنصل قاتل. مَن منكم سيسلمني الفاعل؟».

لم يخرج من الحشد إلا تمتماتٍ غريبة. عاد الطائر ينظر إلى بوشارت الذي زأر برهبة: «جبناء! لم تتركوا لي خيارًا سوى اصطياد القاتل بنفسي. من الآن أمنح الحصانة لرجالي حتى انتهاء التحقيقات».

رأى الطائر عثمان يتململ بعدم ارتياح. عادةً ما يبدو وجهه مشرقًا، لكن ليس الآن. بدا قلقًا وهو يتقدم للتحدث مع القائد قائلًا: «بوشارت، المواطنون منزعجون بالفعل. ربما هذه ليست فكرةً جيدة».

أدار بوشارت وجهه، فلم يرَ عثمان تعبير الغضب المخيف الذي ارتسم عليه. بدا واضحًا أن بوشارت ليس معتادًا على مناقشة أوامره. ليس معروفًا إن كان سيعتبرها عصيانًا أم لا.

بحركةٍ واحدة سحب سيفه ودفعه في بطن عثمان.

صرخ الكابتن وسط الحشد المذهول، وسقط على الأرض ممسكًا ببطنه. أخذ الكابتن يتلوى بألم على السلم حتى مات. دوت حشرجة موته وسط صمت الصدمة التي خيمت على الحشد. جفل الطائر. لم يعرف عثمان جيدًا، لكنه أحب ما رآه منه. ها هو رجل صالح آخر تُوفِّي سدى.

مسح بوشارت سيفه بكم زي عثمان وقال: «فليتقدم مَن يعترض».

تحرك الجسد قليلًا وسقط ذراعها على السلم بينما ظلت عينيها تحدقان في السماء.

ليس هناك اعتراض.

فجأة هتفت ماريا وسحبت نفسها من آسريها. ركضت إلى السلم وركعت أمام القائد وهي تهتف باسمه: «أرماند بوشارت».

ابتسم متعرفًا عليها، لكنها لم تكن ابتسامة ودية.

قال ساخرًا وهو يعيد سيفه إلى حزامه: «زميلةٌ قديمة».

قالت ماريا: «بوشارت، لقد جاء حشاشٌ إلى قبرص. تمكنتُ من الهرب، لكنه ليس بعيدًا بالتأكيد».

من مكانه شعر الطائر بقلبه يغوص في قدميه. لقد تمنى لو... لا، إنها من فرسان الهيكل، وستظل كذلك. ولاؤها لهم وحسب.

قال بوشارت بحيوية: «عجبًا يا ماريا. هذا هو هروبك المستحيل الثاني من الحشاشين، أليس كذلك؟ أولًا عند استهداف دي سابل، والآن هنا في جزيرتي».

راقب الطائر امتزاج الفهم مع الفزع على وجه ماريا وهي تقول: «أنا لست مع الحشاشين يا بوشارت. اسمعني أرجوك».

- كان دي سابل وغدًا ضعيف الإرادة. البند السبعون من قانون فرسان الهيكل ينص بصراحة على عدم مرافقة النساء، لأن الشيطان ينسج أقوى شباكه عبرهن. تجاهل دي سابل هذا المبدأ، ودفع حياته ثمنًا.

عارضته: «كيف تجرؤ؟».

ابتسم الطائر رغمًا عنه، فنادرًا ما تظهر ماريا خوفًا، وسرعان ما يختفي.

زمجر بوشارت باستمتاع: «ضربت وترًا حساسًا، أليس كذلك؟ احبساها».

بهذا انتهى الاجتماع. استدار بوشارت وغادر تاركًا جسد عثمان الميت على السلم خلفه. أما ماريا، فقيَّداها وقاداها بعيدًا.

نقل الطائر نظره من بوشارت إلى ماريا. غمرته الحيرة بخصوص خطوته التالية. كان بوشارت قريبًا، وقد لا تأتيه هذه الفرصة مجددًا. يجب أن يضربه حين لا يتوقع الضربة.

لكن هناك ماريا.

نزل عن السطح وتبع الرجلين اللذَين يقودانها خارج ميدان الكاتدرائية، غالبًا إلى السجن. ظل يتبعهما على مسافةٍ آمنة، وعندما دخلا شارعًا هادئًا، ضرب ضربته.

بعد لحظات كان الحارسان ميتَين والطائر يقترب من ماريا حيث ألقيت جانبًا في أثناء القتال. ما زالت يداها مقيدتين، لذلك وقفت بصعوبة. اقترب منها لكنها ابتعدت عنه وقالت بغضب: «أبعِد يديك عني. إنهم يعتبرونني خائنة بسببك».

ابتسم الطائر بتسامح على الرغم من أنها حذرت بوشارت من وجوده.

- أنا مجرد عذرٍ مناسب لغضبك يا ماريا. فرسان الهيكل هم أعداؤك الحقيقيون.

زمجرت: «سأقتلك حين تسمح الفرصة».

- بل إذا سمحت الفرصة. لكن عندها ستفقدين التفاحة، قطعة عدن. ما الذي سينال استحسان الفرسان أكثر؟ رأسي أم الأداة الأثرية؟

ضيقت عينيها ونظرت إليه. وعندما شعرت بمنطقية كلامه، استرخت قليلًا.

في الوقت الحالي.

قابلا أليكساندر لاحقًا بوقتٍ طويل. بدا عليه القلق وهو يقول للطائر: «على الرغم من تبجُّحه، يبدو أنه أخذ تحذير ماريا بجدية».

نظر إلى ماريا بغضبٍ شديد أفقدها القدرة على الرد على غير العادة.

واصل: «أخبرتني مصادري أنه بعد تدمير مخبأنا أبحر فورًا إلى مدينة كيرينيا شمال قبرص».

عبس الطائر قائلًا: «خسارة. كنت أرجو لقاءه». وما زال كذلك. سأله: «ما أسرع طريقٍ إلى هناك؟».

# 39

سافرا كراهبٍ ومرافقه واستطاعا إيجاد مكانٍ لهما في بطن سفينة شحن. من آنٍ لآخر ينزل أفراد الطاقم للنوم أيضًا. يطلقون ريحًا وشخيرًا ولا يهتمون بالغريبين. عندما نامت ماريا، أحضر صندوقًا يتكئ عليه وفتح مفكرته، ثم أخرج التفاحة من جعبة يحملها في ردائه.

لمعت التفاحة عندما تحررت من لفافتها، تأملها للحظات ثم بدأ يكتب. *أعاني لفهم التفاحة، قطعة عدن، وفهم وظائفها والغرض منها. لكن يمكنني القول بكل تأكيد أنها ليست شيئًا إلهيًّا. لا، بل هي أداة، ماكينة ذات دقة صنعٍ فريدة. أي نوعٍ من البشر صنع هذه الأعجوبة؟*

سمع صوتًا من خلفه. أخذ التفاحة ولفها وأخفاها في ردائه في لحظة. إنها ماريا وقد قلقت من نومها. أغلق مفكرته وخطا فوق أجساد الطاقم النائم وعبر المكان إلى حيث تجلس ترتجف وتتثاءب بينما تدير ظهرها إلى كومة من الصناديق الخشبية. ضمت ركبتيها إلى صدرها وشاهدت الطائر وهو يجلس بجانبها. بدا تعبير وجهها مبهمًا. جلسا للحظات يستمعان إلى صرير السفينة وتلاطُم الأمواج مع هيكلها. لم يعرف أحدهما إن كان الوقت نهارًا أم ليلًا، أو منذ متى وهما يبحران.

سألها: «ما الذي أتى بكِ إلى هنا؟».

همست بسخرية: «ألا تتذكر أيها الراهب؟ أنت مَن أحضرني. أنا مرافقك».

تنحنح الطائر وقال: «أقصد إلى الأراضي المقدسة مع الحملات الصليبية».

- أكان يجب أن أمكث في بيتي أحيك الثياب بينما أراقب البستاني؟

- أليس هذا ما تفعله النساء الإنجليزيات؟

- ليست هذه المرأة. أنا البطة السوداء في العائلة. طوال حياتي كنت أُفضل ألعاب الفتيان. لم أحب الدمى قط. وما زاد سخط والدي أنني كنت أجذب الرؤوس حتى أخلعها.

- رؤوس والديكِ؟

ضحكت قائلة: «بل الدمى. بالطبع بذل والداي جهدهما ليخففا من جموحي، وفي عيد ميلادي الثامن عشر أهدياني هديةً مميزة».

- وما هي؟

- زوج.

تفاجأ الطائر: «أنتِ متزوجة؟».

- كنت. اسمه بيتر، وكان رفيقًا لطيفًا جدًّا، لكن...

- ماذا؟

- هذا كل شيء. كان لطيفًا جدًّا فقط.

- لا يمكنه مشاركتكِ اللعب إذًا.

- على الإطلاق. زوجي المثالي كان سيتقبل شخصيتي التي أراد والداي كبحها. كان سيدربني على الرياضة والقتال ويشبع رغبتي في التعلم. لكنه لم يفعل أيًّا من هذا. ذهبنا إلى هالاتون هول، منزل عائلته في مقاطعة ليسترشاير، حيث سيدة القصر -أنا-

عليها إدارة الموظفين، والإشراف على البيت، وبالطبع إنجاب ورثة. ثلاثة على الأقل. ولدان وفتاة. يُفضل بهذا الترتيب. لكنني فشلت في تحقيق طموحه كما فشل هو في تحقيق طموحي. الشيء الوحيد الذي كنت أقل اهتمامًا به من التسلسل الهرمي وإدارة الموظفين هو تربية الأطفال، وخاصةً عملية الولادة التي تسبقها. بعد أربعة أعوام من المراوغة، غادرت. لحسن الحظ أن أسقف كنيسة ليستر كان صديقًا عزيزًا للورد هالاتون العجوز، واستطاع أن يُبطل زواجنا بدلًا من المخاطرة بإحراج العائلة على يد هذه الفتاة السخيفة المتهورة. بالطبع أصبحت الفتاة الجاحدة في هالاتون هول، ومقاطعة ليسترشاير بأكملها. لم يكن الوضع أفضل حين عدت إلى المنزل. لقد طالب هالاتون باستعادة مهر العروس، لكن أبي قد أنفقه بالفعل. في النهاية قررت أنه من الأفضل للجميع أن أرحل. فهربت مع الحملات الصليبية.

- كممرضة؟

- بل جندية؟

- لكنك...

- أجيد التنكر كرجل. هل خدعتك ذات اليوم في المقبرة؟

- عرفت أنكِ لستِ دي سابل، لكن...

- لم تتوقع أن أكون امرأة. أترى؟ سنوات من الجموح قد أتت ثمارها.

- ودي سابل؟ هل خدعته أيضًا؟

شعر الطائر بابتسامتها الحزينة دون أن يرها.

قالت برقة: «أعجبت بروبرت في البداية. لقد لاحظ من إمكانياتي ما لم يلاحظه بيتر بالتأكيد. لكنه لاحظ أيضًا كيف يمكنه استغلالي. ولم

يمضِ الكثير حتى فعل». تنهدت: «من الجيد أنك قتلته. لم يكن رجلًا صالحًا، ولم يستحق أي مشاعر حملتُها له».

صمتا بعض الوقت ثم سألها الطائر وهو يشير إلى الخاتم ذي الجوهرة اللامعة في يدها: «هل هو مَن أعطاكِ هذا؟».

نظرت إليه وعبست، كأنها قد نست أنها ترتديه. ردت: «نعم. أعطاني إياه كهدية عندما أخذني تحت جناحه. هذا كل ما تبقى من صلتي بالفرسان الآن».

حل صمتٌ غريب كسره الطائر في النهاية عندما سألها: «هل درستِ الفلسفة يا ماريا؟».

نظرت إليه بريبةٍ وقالت: «قرأت مقتطفاتٍ فقط».

- قال الفيلسوف أمبادوقليس، واعظًا أن الحياة على الأرض بدأت بأشكال بدائية. أيادٍ بلا أذرع. رؤوس بلا أجساد. أعين بلا وجوه. كان يعتقد أن كل هذه الأشكال البدائية تجمعت تدريجيًّا بمرور الزمن لتصنع أشكال الحياة التي نراها الآن. نظرية مثيرة، أليس كذلك؟

تثاءبت وقالت: «ألا ترى مدى سخافتها؟».

- نعم، لكنني أومن بنظرية الفيلسوف أبو يوسف الكِندي، والذي يقول إنه لا يجب على الإنسان الخوف من الأفكار مهما كان مصدرها. كما يجب ألا نخشى الحقيقة أبدًا، مهما آلمتنا.

ضحكت برقة وقالت بنبرةٍ ناعسة ودافئة: «لا أفهم المغزى من ثرثرتك».

ربما أساء الحكم. ربما هي ليست جاهزة للتعلم بعد. رن جرس، في إشارة إلى وصولهم مدينة كيرينيا، فوقفا.

حاول الطائر معها مجددًا: «فقط العقل المتحرر من العوائق يمكنه رؤية الجمال الفوضوي لهذا العالم. إنها أعظم مميزاتنا».

سألته: «وهل الفوضى ميزة؟ هل عدم النظام فضيلة؟».

أسعده سؤالها. ربما تكون مستعدة للمعرفة السامية في النهاية.

- صحيح أن الفوضى تقدم لنا تحديات، لكن الحرية تمنحنا جوائز أعظم من الطريق البديل. إن النظام والسلام اللذَين يسعى إليهما فرسان الهيكل يتطلبان الخضوع والعبودية.

- نعم، أعرف هذا الشعور.

شعر بتقاربٍ خاص معها عندما وصلا إلى السلم المؤدي إلى سطح السفينة، وأدرك أنه الشعور نفسه الذي ظل يراوده منذ تقابلا أول مرة. والآن بعدما أدركه، أحبه وأراد الاحتفاظ به. مع ذلك عليه الحذر. ألم تخبره بالفعل أنها تخطط لقتله؟ ربما انتهى ولاؤها للفرسان، لكن هذا لا يعني أنها اتَّبعت طريق الحشاشين فجأة. فعلى حد علمه، إنها تتبع طريقها الخاص، طريق ماريا.

هذا ما سيثبته الزمن.

عند السلم ابتسم ورفعت يديها إليه، فنظر إليهما بعدم ثقة. لكن لا يمكنها تسلق السلم بيدين مقيدتين. بأي حال، إنهما يسافران مع قراصنة. وعلى الرغم من عدم اهتمامهم بالأخلاق، قد يشعرون بالريبة من الراهب الذي يقيد مرافقه. نهض الرجلان النائمان وتثاءبا بينما يحكان ما بين ساقيهما ويلقيان نظرة عليهما. أطلق الطائر نصله خلسة وقطع الحبل الذي يقيد معصميها. منحته نظرة ممتنة قبل أن تبدأ بصعود السلم.

بعدها سمع همهمات. أثارت النبرة انتباهه أكثر من الكلام نفسه. أرهف السمع دون أن يبدو عليه هذا. كما ظن، كان القرصانان يتحدثان عنهما.

شهق أحدهما: «كنت أعرف أنه هو. أخبرتك».

شعر الطائر بأعينهما على ظهره.

- أراهن أن فرسان الهيكل سيدفعون مكافأة ضخمة مقابلهما.

أطلق الطائر سبابًا صامتًا. إن صح ظنه فسيحتاج إلى استخدام نصله في أي لحظةٍ مجددًا.

سمع سيوفًا تُسحَب.

الآن.

استدار الطائر ليواجه الرجلين بينما قررت مرافقته اتباع طريق ماريا والسعي للحرية. فركلته بقدمها وأوقعته جانبًا بوجهٍ يشتعل ألمًا من الضربة.

شعر بألمٍ بداخله، لكنه ألمٌ معنوي.

اختفت في نور الشمس القادم من فتحة الباب. أطلق الطائر سبابًا مجددًا لكن هذه المرة بصوتٍ عالٍ، واستعد لمواجهة الهجوم. ابتسم القرصان الأول وهو يتقدم. بالتأكيد يفكر في المكافأة التي سيشتري بها النبيذ والنساء.

دفع الطائر سيفه في صدر الرجل فاختفت ابتسامته وسقط صريعًا. فتوقف القرصان الثاني مفكرًا. ضاقت عيناه وأخذ يبدل السيف بين يديه. ابتسم الطائر وخطا خطوة، وسُر عندما رآه يجفل.

جيد. إنه يفضل أن يخاف ذلك القرصان قليلًا قبل أن يموت.

وقد مات بالفعل. دارت عينا القرصان بينما يدفع الطائر سيفه في جنبه ثم يحركه للأمام مخلفًا شقًّا كبيرًا في خصره قبل أن يخر صريعًا على الأرض مع رفيقه. صعد الحشاش السلم وطرف بعينيه تحت نور الشمس عندما أصبح على السطح. دارت عيناه في الأرجاء بحثًا عن

سجينته الهاربة. جاء القراصنة ركضًا من كل مكان بعدما أثارت ماريا انتباههم. هتف أحدهم لمرأى الطائر، وأدركوا ما حدث. اندفع الطائر عبر سطح السفينة متجاوزًا حبال الأشرعة، ثم ركض برشاقة على الألواح الخشبية نزولًا إلى رصيف ميناء كيرينيا. بحث باستماتة عن مخبأٍ ريثما ينتهي الخطر.

بعدها فكر بغضب أن عليه إيجاد ماريا، وهذه المرة لن يدعها تهرب.

نظر حوله. إنها مدينةٌ أخرى يحكمها فرسان الهيكل. كانت تلمع تحت أشعة الشمس. وهي أجمل من أن تكون في يد العدو.

# 40

على الأقل لن يجد صعوبة في إيجاد ماريا، فالمتاعب تنجذب إليها كالفراشات إلى النار. وبالفعل وجدها الطائر مع جثث قراصنة تحت قدميها وثلاثة رجال من أهل المدينة يقفون بالقرب منها يمسحون الدم عن سيوفهم ويلتقطون أنفاسهم بعد معركة. انتبه الرجال عندما ظهر الطائر، فرفع يديه تعبيرًا عن حسن نواياه عندما استوعب المشهد. ماريا، الرجال، الجثث.

يبدو أن الحظ خدمها في الهروب مجددًا.

قال لها والسيوف ما زالت مرفوعة: «ظننتِني لن أراكِ مجددًا».

إنها موهوبة في عدم إظهار شعور المفاجأة في أي موقف.

قالت: «ليتني كنت محظوظة إلى هذا الحد».

عبس لها ثم خاطب أحد الرجال القبرصيين الذي بدا القائد: «ما شأنك مع هذه المرأة؟ هل أنت من أتباع الفرسان؟».

تلعثم الرجل: «لا يا سيدي».

كان شاهرًا سيفه بينما يد الطائر خالية، لكنه استطاع تمييز المحارب المخضرم عند رؤيته.

- لقد هاجمها القراصنة فساعدتها. لكنني لست من أتباع الفرسان، أنا أكرههم.

رد الطائر: «فهمت. لست وحدك في هذا».

أومأ الرجل بامتنان، إنهما يتشاركان هدفًا الآن.

- اسمي ماركوس يا سيدي. سأساعدك بكل جهدي لكي أخلص بلادي من الصليبيين.

قال الطائر في نفسه «ممتاز». ثم قال للرجل: «أحتاج منك أن تُبقي هذه المرأة في أمان حتى عودتي. هناك شخصٌ عليَّ العثور عليه قبل الفرسان».

قال ماركوس: «سنكون في الميناء طوال اليوم. ستكون بأمانٍ معنا هنا».

زمجرت ماريا مجددًا بينما يقودها الرجال. راقبهم الطائر يذهبون وقال لنفسه إنها ستكون بخير. ستقضي اليوم مع بعض القبرصيين الأقوياء تشاهد العالم من ميناء كيرينيا. هناك طرقٌ أفضل لقضاء اليوم، لكن هناك أيضًا طرقًا أسوأ. على الأقل يعلم أنها ستكون بأمان بينما يقابل بارناباس، مخبر المقاومة التابع لأليكساندر. لقد أخبره عنه.

وجده في مخبأ آمن يبدو على شكل متجر حبوب. دخله ونادى بحذر. لم يسمع شيئًا سوى خربشة فئران وضوضاء الشارع البعيدة. ثم ظهر رجل من بين الأجولة. لديه لحية داكنة وعينان يقظتان. قدم نفسه باسم بارناباس. عندما سأله الطائر إن كان المخبأ يضم غرفة تصلح لأن تكون زنزانة، ابتسم بتملق وأكد له بنعم، ثم تردد. فتح بابًا أولًا ثم أغلقه، وذهب إلى بابٍ آخر وأطل برأسه قبل أن يقول إن غرفة التجفيف فيها ركن له قضبان يمكن استخدامه كزنزانة.

بعد لحظات جلس كلاهما على أجولة حبوب في غرفة التخزين، وقال الطائر لبارناباس: «كنت أتبع أرماند بوشارت».

قال رجل المقاومة: «بوشارت في كيرينيا؟ على الأرجح يزور سجناءه في بوفانيتو».

- هل هذا حصنٌ هنا؟

- قلعة. نعم. كانت مقرًّا لنبيلةٍ قبرصية ثرية، حتى صادر فرسان الهيكل أملاكها.

عبس الطائر ضيقًا من جشعهم، وسأله: «هل يمكنك اصطحابي إلى هناك؟».

- بل يمكنني أن أفعل ما هو أكثر. أستطيع إدخالك دون أن يشعر الحراس. لكن يجب أن تفعل لي شيئًا أولًا. إنه لأجل المقاومة.

- طلبٌ معتاد. وما هو؟

قال بارناباس بخطورة: «لدينا خائن في صفوفنا».

الخائن تاجر يدعى «جوناس». بعدما أعطاه بارناباس التفاصيل الضرورية، تتبع الطائر أثره إلى مدرج في وسط المدينة. وفقًا لبارناباس، ينقل جوناس أسرارهم للفرسان. راقبه الطائر بعض الوقت وهو يقابل تاجرًا يبدو مثل كل رجال الأعمال. وعندما استدار ليذهب تبعه الحشاش من المدرج وعبر الشوارع الخلفية. لاحظ أن التاجر شعر بمَن يتبعه. ظل يلقي نظراتٍ خلفه إلى الطائر. اتسعت عيناه وبدا فيهما الخوف مع كل نظرة. اندفع يركض فجأة، فطارده الطائر وابتهج حين رآه ينعطف إلى زقاق.

أسرع خطاه وهو يطارد هدفه.

كان الزقاق خاليًا.

توقف الطائر وألقى نظرة خلفه ليتأكد أن أحدًا لم يره. ثم –صلصلة–. أطلق نصله وتقدم خطوتين حتى أصبح بجوار كومة ضخمة غير متزنة من الصناديق التي تتمايل قليلًا. انحنى ودفع نصله عبر صندوق.

تناثرت شظايا الخشب وانطلقت صرخة، ثم انقلبت الكومة نحو الطائر الذي استعد للصدمة وكاد يفقد توازنه.

ظل ساكنًا. وحين استقرت الصناديق الخشبية من حوله، استرخى ونظر إلى امتداد ذراعه إلى النصل المغروس في جوناس الذي أخذ ينزف ببطء من جرح رقبته. ما زال منحنيًا ليظل مختبئًا. بدا منظر التاجر بائسًا ومثيرًا للشفقة. مع علم الطائر أنه خائن وأن المعلومات التي كشفها للفرسان استخدمت في قتل وتعذيب أفراد من المقاومة حتمًا، إلا أنه أشفق عليه. حتى إنه سحب النصل برفق وأزال حطام الصناديق ليرقده أرضًا وينحني عليه.

سال الدم من جرح عنقه وهو يقول بأنين: «ما هذا؟ حشاش؟ هل يضع صلاح الدين عينه على قبرص أيضًا؟».

- لا علاقة للحشاشين بالعرب. نحن مستقلون.

سعل جوناس كاشفًا عن أسنانه الدامية، وقال: «أيًّا كان الحال، لقد انتشر خبر وجودك هنا. لقد وضع الثور مكافأة على رأسك، ورأس رفيقتك».

رأى الطائر نور الحياة يخبو منه، وقال: «إن قيمتي تزداد كل يوم».

ثم وجَّه الضربة القاضية.

عندما وقف لم يراوده إحساس الرضا بإنجاز المهمة، بل شعور فظيع بوجود خطأ ما. ذكر جوناس شيئًا عن شخصٍ يدعى «الثور». أيًّا مَن يكن، فهو مخلص لأرماند بوشارت، وهو يعرف بوجود الطائر وماريا في كيرينيا. هل هذا هو سبب قلق الطائر؟

صعد إلى الأسطح ليبحث عن ماركوس وماريا فورًا.

***

- يبدو أن هناك جائزة على رأسينا يا ماريا.

هذا أول ما قاله الطائر عندما وجدها. كما توقع، كانت تجلس على مقعدٍ حجري بين ماركوس ورجل آخر من المقاومة وعلى وجهها نظرة غاضبة اعتاد عليها.

- جائزة؟ بوشارت اللعين. على الأرجح يظن أنني شريكتك.

- هناك شخصٌ يلقب بالثور نشر رجاله بحثًا عنا.

انتفضت ماريا كأن شيئًا لسعها: «الثور؟ إذًا لقد أعطوا ذلك المتعصب نفوذًا».

سألها الطائر ساخرًا: «هل هو صديقكِ؟».

- أبدًا. اسمه مولوخ. إنه شخص متبجح يتظاهر بالتقوى، وله ذراعان ضخمتان كجذوع الأشجار.

استدار الطائر إلى ماركوس وسأله: «هل تعرف مخبأ المقاومة في منطقة الميدان العام؟».

هز ماركوس كتفيه قائلًا: «أعرف مكانه لكن لم أدخله من قبل. أنا مجرد جندي بسيط في أسفل سلم المقاومة».

فكر الطائر ثم قال: «لا يمكن أن يراني أحد برفقة ماريا، لذلك عليك أن ترافقها أنت. أبعِدها عن الأنظار، ثم قابِلني هناك حين تكون بأمان».

- أعرف بعض الأزقة والأنفاق.

- قد تستغرق الرحلة وقتًا أطول، لكننا سنوصلها بسلام.

ذهبوا إلى المخبأ في طريقين منفصلين، ووصل الطائر أولًا. نشر برناباس أجولة الحبوب وجلس مسترخيًا، لكنه نهض حين دخل الطائر. كتم تثاؤبه كأنه ينهض من النوم.

قال بنبرة ساخرة: «وصلتني أخبار أن أحدًا قد عثر على جثة جوناس المسكين. مؤسف، أليس كذلك؟».

رد الطائر: «أنت أدرى مني. أنا واثق أنه كان يعرف خطورة العمل لكلتا الجهتين».

نظر إلى برناباس بتمعن، ولاحظ ابتسامته الملتوية. لا يستمتع الطائر بالقتل، أي قتل. وكان لا يحترم مَن يفعل، سواء كانوا من الحشاشين أو فرسان الهيكل أو المقاومة. كان برناباس حليفًا، لكن... لقد تعلم الطائر أن يثق بحدسه، وهو ينغزه الآن، برفق لكن بإلحاح.

واصل برناباس: «للأسف، لقد تعقدت الأمور. كان جوناس قبرصيًّا محترمًا، وأطلقت وفاته شرارة الشغب بالقرب من الكنيسة القديمة. الشعب متعطش للانتقام، وسيخبرهم الثور أنك المسؤول. قد تخسر مساندة المقاومة».

ماذا؟ حدق به الطائر عاجزًا عن تصديق أذنيه. لقد انتقل حدسه من النغز إلى الضرب.

- لكن جوناس كان خائنًا للمقاومة. ألا يعرفون؟

اعترف برناباس: «ليس كلهم على ما أخشى. فالمقاومة متفرقة».

قال الطائر: «سوف تشرح لهم إذًا. بعض الرجال في طريقهم إلينا الآن».

بدا برناباس قلقًا وقال: «هل ستحضرهم إلى هنا؟ هل تثق بهم؟».

- لست واثقًا بمَن أثق الآن. لكن الأمر يستحق المخاطرة. الآن عليَّ رؤية الشعب بنفسي.

قال برناباس وهو يبتسم مجددًا: «بالنسبة لاتفاقنا، سأرى ما يمكنني فعله لتقريبك من بوشارت. الاتفاق هو الاتفاق، صحيح؟».

تجاهل الطائر ابتسامته. فهو يكرهها تدريجيًّا كلما رآها.

# 41

زار الطائر الكنيسة، وانقبض قلبه لمرأى الاضطرابات. شكَّل حراس فرسان الهيكل حاجزًا لإبعاد المواطنين المتظاهرين الذين مُنِعوا من دخول الكنيسة وكانوا يحطمون كل شيءٍ في طريقهم. امتلأت الشوارع بحطام الصناديق والبراميل والنيران. هاجموا الأكشاك وفككوها. امتزجت رائحة الطعام المدهوس مع الدخان. تجمهر الرجال وهتفوا بشعارات على دقات الطبول ورنين الصنوج، محاولين اختراق صفوف الفرسان الذي راقبوهم بحذر من خلف متاريس عشوائية صنعوها بالبراميل والعربات المقلوبة والأكشاك. بين حينٍ وآخر، تشن فرق من الجنود هجمات شرِسة سريعة على المتظاهرين. يسحبون الرجال الذين يركلون ويهتفون، وإما يضربونهم بمقابض السيوف أو يأخذونهم خلف المتاريس لسجنهم. لكن لم تفلح غاراتهم في إخافة المتظاهرين أو تخفيف حدتهم.

راقب الطائر ما يحدث من على حافة أحد الأسطح بينما يشعر باليأس. لقد ساء الوضع. ساء الوضع بشدة. ولو قرر الثور أن يعلن أنه القاتل، فسيخرب الوضع أكثر.

اتخذ قراره. على الثور أن يموت.

عندما عاد إلى المخبأ الآمن، بحث عن برناباس بلا فائدة. تأكد الطائر أنه أخطأ بالثقة به وأخذ يسب نفسه لأنه لم ينتبه لحدسه.

كان ماركوس هناك، وكذلك ماريا التي وضعوها في زنزانة أشد كثيرًا من الزنزانة العشوائية التي استخدموها في ليماسول. تركوا الباب الفاصل بين غرفة تجفيف الحبوب وغرفة التخزين مفتوحًا حتى يروها. جلست خلف القضبان وظهرها للجدار. وبين حينٍ وآخر تركل بعض القش المنثور على الأرض، وعلى وجهها تعبير خطِر وساخر. شاهدها الطائر وهو يفكر في كل المتاعب التي سببتها.

عرف أنها وماركوس والكثير من أعضاء المقاومة وصلوا إلى المخبأ ووجدوه مهجورًا. غادر بارناباس قبل وصولهم. كم هذا مناسبٌ له.

هتف ماركوس: «ماذا يحدث في الخارج؟ المدينة مضطربة تمامًا. لقد رأيت أعمال شغب».

- الناس متظاهرون بسبب وفاة مواطن اسمه جوناس. هل سمعت عنه؟

- أبي يعرفه جيدًا. إنه رجلٌ صالح. كيف مات؟

انقبض قلب الطائر بشدة، وتجنب النظر إلى ماركوس وهو يرد: «بشجاعة. اسمع يا ماركوس، لقد تعقدت الأمور. قبل أن أجد بوشارت، عليَّ القضاء على الثور ووضع حدٍّ لعنفه».

هتفت ماريا من زنزانتها: «لديك نزعةٌ للفوضى أيها الطائر».

يحب سماع اسمه من فمها. رد عليها: «الثور هو المسؤول عن استعباد الآلاف. قليلون من سيحزنون على موته».

تحركت في جلستها وتردد صوتها في السجن الحجري: «وغايتك أن تسافر إلى قلعة قنطرة وتقتله ثم تخرج خلسة؟ إنه يحيط نفسه بأتباع مخلصين».

قال الطائر وقد التقط زلة لسانها: «قنطرة. إنها في الشرق، صحيح؟».

- نعم، وهي مشددة الحراسة. سترى بنفسك.

# 42

هذا ما رآه الطائر بنفسه بالفعل. كانت قلعة قنطرة تحت حراسة الصليبيين وأتباع مولوخ المتعصبين. تسلق الجدران وشق طريقه عبر المتاريس. توقف بين حينٍ وآخر ليستمع إلى أحاديثهم محاولًا التقاط معلومات عن الرجل المدعو بالثور. علم أنه كان متعصبًا دينيًّا يجذب إليه متعصبين يشبهونه في التفكير، ليعملوا حراسًا أو خدمًا، أو يتجولون في شوارع كيرينيا لنشر كلامه. إنه يعمل مع فرسان الهيكل. أما ولاؤه لقائدهم بوشارت، فينافس إيمانه الديني. قلعة قنطرة هي قلعته الخاصة، غالبًا منحه إياها الفرسان. معروف عنه أنه يقضي معظم وقته في التعبد في كنيسة القلعة.

يأمل الطائر أن يجده هناك.

رأى المتعصبين والحراس في أثناء تحركه في الحصن. بدا المتعصبون مثل... مثلما توقع أن يبدو المتعصبون. هائجون، جاحظون، منفعلون. كان الحراس الصليبيون يحتجزونهم في منطقة مفتوحة، ويمرون في دوريات من فردين. ومن الواضح أنهم يشعرون بالإهانة من وجودهم في هذه القلعة. بينما يختبئ الطائر في تجويف، سمع جنديين، يشتكي أحدهما للآخر.

- لماذا يتسامح الفرسان مع ذلك المجنون؟ إن الثور وأتباعه المتعصبين أكثر خطورة من سكان قبرص.

- لدى الفرسان أسبابهم. من الأسهل لهم الحكم بالنيابة كما ترى.

- أظن هذا. لكن إلى متى؟ الثور والفرسان لا يتفقان في مسألة الإيمان.

- قلما تحدثت عن هذا، كان أفضل.

انتظر الطائر في مكمنه حتى تجاوزه ثم واصل الحركة في الممر المظلم. قالت ماريا أن القلعة شديدة الحراسة. وهي كذلك بالفعل إن كنت تنوي الهجوم على أسوارها بجيش. لكن لحشاش وحيد، فلا أسهل من اختراق الحصن خلسة. تحديدًا إذا كنت معلم الجماعة. وبالأخص الطائر.

وجد نفسه في قاعة طعام ضخمة. في آخرها وقف حارسان، فأخرج سكينين وأطلقهما. واحد، اثنان، فسقط الرجلان يحتضران على الأرض. خطا الطائر فوقهما وعرف أنه اقترب. لا يمكن أن يكون مولوخ بعيدًا.

بالفعل لم يكن كذلك. وصل الطائر إلى ما يشبه طريقًا مسدودًا، ثم استدار ليتفقد الطريق خلفه. ما سبب حراسة هذا الطريق؟ ثم رأى بابًا في الأرض. انحنى عليه واستمع ثم ابتسم. لقد وجد الثور.

رفع الباب برفقٍ شديد، ونزل عبر الفتحة إلى عوارض السقف. وقف بين دعامات الكنيسة، وهي غرفةٌ واسعة فارغة مُضاءة بمجمرة ضخمة بالقرب من المذبح.

وأمام النار كان يركع مولوخ.

وصفته ماريا بدقة. كان ضخمًا كالدب. أصلع. بشاربٍ مائل وصدرٍ عارٍ إلا من قلادة. وذراعاه يشبهان جذوع الأشجار كما وصفتهما. لمع

العرق على جسده بينما يزيد النار اشتعالًا ويردد تعويذة بدت أشبه بزمجرة وهو يقولها بإخلاص. بينما اندمج في عمله، لم يتحرك من أمام النار ولم يبعد نظره عنها. كان يغمر وجهه بحرارة اللهب، غير شاعرٍ بأي شيءٍ في الغرفة، بالأخص قاتله.

جيد. بدا مولوخ قويًا، أقوى من الطائر الذي لم يرغب في خوض قتالٍ معه. فهو لا يملك فقط الميزة العضلية، بل يقال أيضًا أنه يحمل سلاحًا يشبه مطرقة النيزك، وهي سلسلة تحمل كرة ثقيلة فتاكة. يقال إنه يستخدمها بدقة لا تخطئ وشراسة غاشمة.

لهذا لا يرغب الطائر أبدًا في قتاله. يجب أن يكون القتل خلسة. سريع ودقيق وصامت.

سار الطائر على العوارض بلا أدنى صوت، ثم نزل بصمت إلى وسط الغرفة خلف مولوخ. كان أبعد قليلًا مما يريد. حبس أنفاسه بتوتر. آهٍ لو سمعه مولوخ.

لكن لا. ذلك الوحش ما زال مشغولًا مع المجمرة. تقدم الطائر بضع خطوات ثم أطلق نصله بصمت ورفعه. تراقص ضوء النيران على النصل. أصبح الثور على بُعد لحظة من الموت. انحنى الطائر قليلًا وأطلق عضلات ساقيه ثم قفز، واستعد نصله للضربة.

لكن وهو في الهواء، استدار مولوخ. لقد دار بسرعةٍ أكبر مما قد يسمح بها جسده. وابتسم. عندها علم الطائر أنه كان يشعر بوجوده طوال الوقت، وأنه سمح له بالاقتراب وحسب. فجأة أصبح الحشاش بين ذراعيه الضخمتين. شعر به يرفع جسده عن الأرض، ويطبق بيده على عنقه ليعتصره.

ظل هكذا للحظات. رفعه مولوخ بيدٍ واحدة في الهواء، كأنه جائزة يرفعها أمام أعين القلعة، وبيده الأخرى كان يخنقه بينما يقاوم. أخذ

يركل بقدميه في الهواء، ويخدش بيديه قفاز مولوخ بيأسٍ محاولًا إرخاء قبضة هذا الوحش. بدأت رؤيته تتشوش وتظلم. شعر بنفسه يفقد الوعي. ثم رماه مولوخ خلفه، فتدحرج على أرض الكنيسة وارتطم رأسه بعنف بالأرضية الحجرية. تساءل لماذا تركه يعيش.

لأن الثور يريد التسلية أكثر. أخرج السلسلة وأطلقها بحركةٍ واحدة على الطائر الذي بالكاد تمكن من تفاديها قبل أن تضرب الأرض مكانه وتحطمها وتنثر عليه الشظايا.

نهض الطائر على قدميه مترنحًا، وهز رأسه لينفض عنها الدوار. سحب سيفه، فصار يحمل السيف بيد والنصل باليد الأخرى. اندفع جانبًا بينما استعاد مولوخ السلسلة وأطلقها مجددًا.

اصطدمت بعمود بجوار الطائر، فأصابته الشظايا مجددًا. بعد إطلاق السلسلة، يكون لدى الطائر فرصة للهجوم قبل أن يسحبها مولوخ ويعيد الهجوم. لهذا اندفع الطائر بسيفه ونصله. لكن مولوخ استعاد السلسلة بأسرع من الممكن، وأمسكها بيديه وصد سيف الطائر، ثم لوح السلسلة مجددًا وأطلقها على الحشاش الذي اضطر إلى تفاديها مجددًا.

فكر الطائر في المعلم، المعلم الذي دربه وليس الخائن الذي أصبح عليه. تذكر لبيب وباقي مدربي المبارزة. سحب نفسًا عميقًا وتراجع وهو يسير بشكلٍ جانبي ليحاصر مولوخ.

تبعه الثور بنظره وهو يعلم أنه أثار قلقه. ابتسم فظهرت أسنانه السوداء المكسورة، والنخرة من التسوس. أطلق زمجرة من حلقه بينما يقترب منه الطائر. يريد أن يحث مولوخ على إطلاق السلسلة. لقد خطرت للحشاش فكرة. فكرة ذكية لكن بها عيب واحد، وهي أنها ستفتك به لو أخطأ. إنه بحاجةٍ إلى أن يطلق الثور السلسلة. لكنه في كل مرة يطلقها بخطورة بحيث تكاد تحطم جمجمة الطائر.

ها قد أتت. انطلقت في الجو وارتطمت بالأرض. قفز الطائر متفاديًا إياها وهبط على قدميه. لكن بدلًا من أن يأخذ ساترًا، ركض إلى السلاح. خطا على الثقل وركض على السلسلة المشدودة نحو مولوخ.

اختفت ابتسامة مولوخ. كانت لديه ثانية واحدة ليرى الحشاش الرشيق وهو يركض على السلسلة المشدودة قبل أن يغرس الطائر سيفه في حلقه ويدفعه حتى يخرج من مؤخرة عنقه. أصدر صوتًا ما بين الصياح والاختناق. برز السيف من عنقه بينما يترك الطائر المقبض ويتكئ على كتفيه ليدور ويدفع نصله في عموده الفقري. واصل الثور المقاومة، وكافح الطائر للحفاظ على حياته. أمسك السلسلة وسحبها ولفها حول عنق الضحية بيده الحرة، بينما يزمجر بقوة من المجهود الذي يبذله. تلوى مولوخ وتراجع بجسده إلى الخلف، فلاحظ الطائر أنه يدفع به إلى النيران.

شعر بالحرارة تلفح ظهره، فضاعف جهده. ذلك الوحش لا يموت. شم شيئًا يحترق، إنه طرف ردائه! صرخ بألمٍ وجهد. جذب السلسلة بقوة بيدٍ واحدة بينما يغرس النصل أعمق بيده الأخرى. أخيرًا تبخرت آخر ذرة من القوة في مولوخ. كان الطائر راكبًا على كتفيه بينما ينهار جسد الوحش على الأرض حيث استلقى وهو يخور وينزف دمه على الأرضية الحجرية ويحتضر ببطء.

أخيرًا توقفت أنفاسه.

تنفس الطائر الصعداء بعمق. لن يستطيع الثور قلب الناس ضد الثورة بعد الآن. انتهى عهد الطغيان. لكنه لم يقاوم التساؤل عما سيحل محله.

وسرعان ما سيحصل على جوابه.

# 43

لم يجد ماريا. أخذها الصليبيون. في أثناء قتال الطائر في قلعة قنطرة، هاجم الجنود المخبأ الآمن، خاضوا قتالًا، وتمكنوا من الهرب مع بعض السجناء، ومن بينهم ماريا.

كان ماركوس من القلائل الذين نجوا من الأسر. ظل هناك ليستقبل الطائر عند عودته. كان القلق محفورًا على وجهه وهو يتحدث بسرعة وتوتر: «لقد تعرضنا لهجومٍ أيها الطائر. حاولنا دحرهم لكن بلا فائدة».

ثم نظر إلى الأرض شاعرًا بالخزي.

أم أنه يتظاهر بهذا؟

نظر الطائر إلى باب غرفة تجفيف الحبوب. كان مفتوحًا، ويظهر خلفه باب الزنزانة مفتوحًا أيضًا. تخيلها هناك تشاهده بعينيها اللوزيتين بينما تتكئ بظهرها على الجدار وتعبث في القش المتناثر على الأرض بقدميها.

هز رأسه لينفض الصورة عن عقله. فهناك الكثير على المحك، أخطر من مشاعره تجاه امرأة إنجليزية. لا يحق له التفكير بها قبل أولويات الجماعة، لكنه فعل.

قال ماركوس: «أردت إيقافهم، لكنني اضطررت للاختباء بسبب كثرة عددهم».

نظر إليه الطائر بحدة. فبعدما عرف بخيانة بارناباس، لم يعد يثق بأحد بسهولة. قال: «ليست غلطتك، فالفرسان مخادعون».

- سمعتُ أنهم يستخدمون قوة عرافة شريرة في قلعة بوفافينتو. لا بدَّ أنهم وجدونا من خلالها.

حقًّا؟ فكر الطائر. إن الفرسان يعرفون كل خطواتهم كما يبدو. لكن لا علاقة لهذا بالعرافات، بل بجواسيس الفرسان في المقاومة.

خشي الطائر أن يكون ماركوس يحاول تضليله عمدًا.

- يا لها من نظرية مثيرة للفضول. لكنني أشك في أن بارناباس هو من منحهم المعلومات.

قال ماركوس: «بارناباس؟ كيف يعقل هذا؟ لقد أعدموا قائد المقاومة بارناباس قبل وصولك بيوم».

بالطبع. وبخ الطائر نفسه. لقد كان هناك، بارناباس وفيًّا للمقاومة، لكن الفرسان بدَّلوه بواحدٍ آخر، بارناباس مزيف. فكر الطائر في جوناس الذي قتله بأمرٍ من ذلك الجاسوس، وتمنى أن يعوض عن ذلك ذات يوم. لم يستحق جوناس الموت.

ذهب الطائر إلى منطقة الميناء وبحث عن مكان حبس أسرى المقاومة. تجاوز الحراس ووجد الأسرى محشورين في زنزانة قذرة ضيقة.

قال أحدهم بينما يفتح الطائر الباب له ليخرجه: «شكرًا لك يا سيدي. بوركت».

كان ينظر إليه بامتنان كالآخرين. كره الطائر التفكير فيما خطط الفرسان لِفعله بهم.

بحث في الزنزانة عن ماريا لكن بلا فائدة.

- هل كانت معكم امرأة عندما أسروكم؟

- امرأة؟ نعم، إلى أن أخذها شاليم ابن الثور وهي مكبلة بالأغلال. لم تذهب معه بهدوء.

قال الطائر لنفسه أن الانقياد بهدوء ليس من طباع ماريا بالتأكيد. لكن مَن هذا الابن، شاليم؟ هل تولى عهد الطغيان بعد والده؟

تسلق الطائر أسوار الحصن في بوفافينتو متجهًا إلى القلعة، ثم هبط إلى أعماقها وسط الظلام والرطوبة حتى وصل إلى الأرض السوداء اللامعة. حيث تعجز أضواء المشاعل عن اختراق الظلام الحالك، وحيث يتردد صدى كل خطوة، وحيث يُسمع قطرات ماء باستمرار. هل يحتفظ الفرسان بعرافتهم الشهيرة هنا؟ تمنى هذا. كل ما يعرفه حتى الآن هو أنهم يسبقونه بخطوة. أيًّا كان ما يدور في عقولهم، فهو واثقٌ بأنه لن يعجبه. إنه ليس مرتاحًا للأرشيف الذي ظل يسمع عنه، أو هجماتهم المستمرة التي تكاد تحطم المقاومة. يجب أن يبذل ما في وسعه ليوقفهم. حتى لو عنى هذا أن يصطاد ساحرة.

تسلل عبر ممرات القلعة حتى وجد نفسه يقترب مما بدا كسرداب. وخلفه سقطت جثتان لجنديين صادفهما في طريقه، وانتهى بهما الحال بعنقٍ مشقوق قبل أن يخفي جثتيهما عن الأنظار. كما حدث في قلعة مولوخ، شق طريقه إلى قلب القلعة بمزيجٍ من التسلل والقتل. سمع أصواتًا، تعرف على أحدها فورًا. إنه صوت بوشارت.

كان يتحدث مع رجل على الجانب الآخر من بوابة معدنية صدئة.

قال فارس الهيكل بغضب: «إذًا هربت الفتاة مجددًا، أليس كذلك؟».

كان الرجل الآخر يرتدي ثوبًا فخمًا بأطرافٍ مطرزة بالفراء. قال: «في لحظةٍ كانت مقيدة، ثم فجأة اختفت».

- لا تهينني يا شاليم. ضعفك تجاه النساء معروف للجميع. لقد أرخيت دفاعك، فهربت.

- سأجدها أيها الزعيم. أقسم لك.

هذا هو شاليم إذًا. أولاه الطائر الانتباه وهو يشعر ببعض التسلية. فهذا الشخص لا يشبه ولو لمحة من والده مولوخ. لا شكله ولا بنيته، وبالتأكيد ليس هالته.

قال بوشارت بغضب: «افعل بسرعة قبل أن تقود تلك المرأة الحشاشين مباشرةً إلى الأرشيف».

استدار شاليم ليغادر لكن بوشارت أوقفه قائلًا: «شاليم، تأكد من تسليم هذه إلى أليكساندر في ليماسول».

أعطى شاليم كيسًا أخذه دليلًا على موافقته. شد الطائر على فكه بضيق. إذًا أليكساندر يعمل مع الفرسان أيضًا. يبدو أن أذرع العدو ممتدة كالإخطبوط.

غادر الرجلان وواصل الطائر تقدمه نحو زنزانة العرافة. لم يستطع المرور من البوابات، فتسلق الشرفة ودار من خارج الحصن، ثم واصل النزول حتى وصل إلى الزنازين. سقط المزيد من الحراس تحت نصله. سرعان ما سيكتشف أحدٌ الجثث وسيطلق جرس الإنذار. عليه أن يتحرك بسرعة.

مع ذلك بدا أن الحراس لديهم ما يشغلهم بالفعل. استطاع أن يسمع الصراخ واللهاث بينما يقترب مما ظنه الزنازين. اقترب من نهاية نفقٍ

يؤدي إلى منطقة تشبه السجن. عندها أدرك أين ذهب بوشارت. ها هو هنا يتحدث إلى حارس. كانا يقفان على الجانب الآخر من حاجز ذي قضبان خارج صفٍ من الزنازين.

حسنًا، لقد وجد الزنازين على الأقل. انحنى بعيدًا عن الأنظار في تجويف في النفق. سمع صوت بوشارت يسأل فوق صوت الصرخات: «ما الأمر؟».

رد الحارس رافعًا صوته: «يا لها من امرأة مجنونة يا سيدي. إنها هائجة تمامًا. لقد أصابت رجلين من الحراس».

ابتسم بوشارت وقال: «دعها تلعب. لقد أدت غرضها».

مجددًا وجد الطائر الطريق بينه وبين بوشارت مسدودًا. كم ود لو أنهى أمره الآن، حتى مع وجود الحارس. كان سيقضي على الحارس أولًا ثم بوشارت. لكن هذا لن يحدث. اضطر إلى المشاهدة بغيظ بينما يغادر بوشارت والحارس تاركين المنطقة خالية. خرج من مكمنه وذهب إلى الحاجز ووجد به بوابة مقفلة. لعبت أصابعه الخبيرة في القفل ثم عبَر البوابة واتجه إلى باب زنزانة العرافة. أصبح صراخها أكثر صخبًا واضطرابًا الآن. ابتلع الطائر ريقه. لم يكن يخشى أي رجل، لكن هذه ليست أي رجل. الأمر مختلف هذه المرة. أخذ يهدئ نفسه بينما يعمل على ثاني قفل. انفتح الباب بصوتٍ حاد خرج من مفصلاته الصدئة. أخذ قلبه يدق بعنف.

كانت زنزانتها واسعة، بحجم قاعة احتفالات. قاعة كبيرة، يخيم عليها غشاء الموت والخراب، مع ضباب متموج وما يبدو مثل أوراق أشجار حول الأعمدة. كأن العالم بالخارج يحاول التطفل على هذه القاعة لكي يسلبها يومًا ما.

بمجرد أن اعتادت عيناه على ظلام المكان، بدأ يبحث عن العرافة. لم ير شيئًا، لكنه سمع صراخها الشيطاني. أصابته قشعريرة، وكبح ارتجافته بينما يتقدم نحو.. زنزانتها؟

إنها أشبه بوكر.

عمَّ الصمت فجأة، فانتبهت حواسه. بدل سيفه بين يديه، ومسح الغرفة المظلمة خافتة الإضاءة بعينيه.

سمع صوتًا يقول: «دم وثني».

كان صوتًا أجشًا بإيقاعٍ رتيب، كأنما خرج من كابوس. دار في اتجاه الصوت، ثم سمعه مجددًا، وبدا كأنه تحرك من مكانه الأول.

قالت بصوتٍ متقطع: «أعرف اسمك أيها المذنب. أعلم سبب قدومك. الرب يرشد مخالبي. الرب يمنحني القوة لكسر عظامك».

فكر الطائر بسرعة. مخالب؟ هل لديها مخالب حقًّا؟ ثم ظهرت فجأة من الظلام وهي تدور كالدراويش. شعرها الأسود يدور معها، وكانت تصرخ. لم يكن لديها مخالب، بل أظافر طويلة حادة، لكنها فتاكة كالمخالب تمامًا. سمع صفير أظافرها وهي تخترق الهواء في طريقها لخدش وجهه. قفز للخلف بسرعة. انحنت على الأرض كالقطة ونظرت إليه وهي تزمجر. لقد تفاجأ. كان يتوقع عجوزًا شمطاء، أما هذه المرأة فتبدو... نبيلة. بالطبع، إنها المرأة التي أخبره عنها بارنباس، التي كانت تسكن القلعة من قبل. كانت شابة فاتنة سابقًا. لكن أيًّا كان ما فعله فرسان الهيكل بها، يبدو أن السجن قد أفقدها عقلها. أدرك هذا حين ابتسمت ابتسامة كبيرة، ففقدت كل أثر للنبالة عندما ظهرت أسنانها النخرة ولسانها المتدلي الذي كاد يسقط من فمها. ضحكت وانقضت عليه مجددًا.

تقاتلا. ظلت العرافة تهاجم عشوائيًّا وهي تلوح بأظافرها فتجرح الطائر عدة مرات وتسيل دمه. كان يتراجع ثم يندفع بهجمات مضادة حتى استطاع التغلب عليها أخيرًا وتثبيتها في عمود. حاول كبحها باستماتة، لأنه أراد التفاهم معها، لكنها قاومت كحيوانٍ متوحش. حتى عندما دفعها على الأرض وجثم فوقها ووضع نصله على عنقها، ظلت تخدشه وتقول: «المجد للرب. أنا أداته. أنا جلادة الرب. لا أهاب الألم أو الموت».

قال الطائر وهو يعاني لتثبيتها: «لقد كنتِ قبرصية. نبيلة محترمة. ما الأسرار التي أخبرتِ هؤلاء الشياطين بها؟».

هل تدرك أن مساعدتها للفرسان تعني خيانة قومها؟ هل تبقت لديها ذرة عقل تكفي للفهم؟

سكنت فجأة وقالت لاهثة: «هناك غايةٌ من البؤس. بأمر الرب، أنا أداته».

لا. لم تبقَ لديها أي ذرة. لقد تبخر عقلها تمامًا.

- أيًّا كان ما فعله الفرسان لكِ يا سيدتي، فلقد أذوكِ بشدة. سامحيني على ما سأفعله.

أراد أن يرحمها، فقتلها ثم هرب من هذا المكان البشع.

***

لاحقًا عندما عاد إلى المخبأ الآمن، فتح مفكرته وكتب:

*لماذا تصر غرائزنا على العنف؟ لقد درستُ التفاعل بين الفصائل المختلفة. يبدو أن الرغبة الفطرية في البقاء تتطلب وفاة الآخر. لم لا يساعد*

*الجميع بعضهم على النجاة؟ يؤمن الكثيرون بأن العالم نشأ على الخير، لكنني لا أرى سوى أفعال مجنونة تمجد الموت والدمار واليأس.*

كما كتب عن التفاحة:

*مَن هم الذين أتوا من قبل؟ ما الذي أتى بهم إلى هنا؟ ما الذي أبعدهم؟ ماذا عن هذه الأدوات الأثرية؟ أهي رسائل؟ أدوات تركوها لتساعدنا وترشدنا؟ أم أننا نتقاتل لأجل السيطرة على شيءٍ تافه ونعطي غاية مقدسة ومعنى لبعض الألعاب المهملة؟*

# 44

قرر الطائر تتبع شاليم. كلاهما يطارد ماريا. أراد الطائر التأكد من أنه سيكون حاضرًا في حال وجدها شاليم أولًا.

وإن كان شاليم لا يبحث بجدية الآن. أخبر ماركوس الطائر أن العامل المشترك الوحيد بين شاليم ووالده هو خدمتهما لفرسان الهيكل وطبعهما الحاد. وبدلًا من التعصب الديني، يهتم أكثر بالنبيذ ورفقة العاهرات. وهذا ما رآه الطائر بنفسه حين تبعه. حافظ على مسافة آمنة خلف شاليم وحارسيه الاثنين بينما يتجولون في شوارع كيرينيا. سار الثلاثي المستبد في المدينة يزعجون المواطنين والتجار ويسيئون إليهم. يأخذون البضائع والأموال استعدادًا لزيارة مكانٍ ما.

ماخور على ما يبدو. راقب الطائر شاليم وحارسيه يقتربون من باب ويمرون برجل مخمور يداعب عاهرة من السكان المحليين. إما أن هذا الرجل شديد الغباء أو شديد الثمالة بحيث لم يلاحظ مزاج شاليم المخيف. رفع الرجل زجاجة نبيذه الجلدية بتحية للطاغية وقال: «نخبك يا شاليم».

دون أن يبطئ شاليم خطوته، دفع كفه في وجه السكير حتى ارتطم رأسه بالجدار خلفه مصدرًا صوت قرقعة. سقطت زجاجة النبيذ الجلدية،

وسقط الرجل نفسه على الأرض في وضع الجلوس. دار رأسه وسال دمه حتى صبغ شعره. وبحركة واحدة جذب العاهرة من ذراعها.

قاومته قائلة: «لا يا شاليم. أرجوك لا».

لكنه قد سحبها بالفعل ونظر خلفه قائلًا لمرافقيه: «استمتعا يا رجال، وأحضرا لي بعض النساء حين تنتهيان».

رأى الطائر ما يكفي. شاليم لا يبحث عن ماريا، هذا مؤكد. وبات واضحًا أنه لن يجدها إذا اتبع شاليم مع عاهرته أينما ذهبا، سواء إلى السرير أو إلى حانة بلا شك.

***

عاد إلى منطقة السوق حيث يتجول ماركوس بلا هدى بين الأكشاك شابكًا يديه خلف ظهره بانتظار أخبار من الطائر.

وقفا في ركنٍ ظليل فبديا لأي شخص مجرد تاجرين يهربان من حرارة الشمس.

قال الطائر لماركوس: «أحتاج إلى الاقتراب من شاليم. لو أن غباءه يماثل تهوره، فقد أستطيع الحصول على بعض الأسرار منه».

قال ماركوس: «تحدث مع أحد الرهبان بالقرب من الكاتدرائية. فأسلوب حياة شاليم الجامحة يتطلب اعترافات مستمرة طلبًا للغفران».

وجد الطائر عند الكاتدرائية مقعدًا تحت مظلة، فجلس يشاهد العالم وينتظر، حتى مر به راهب برداءٍ أبيض وأومأ برأسه بتحية. بادله الطائر التحية ثم قال بصوتٍ خافت لا يسمعه إلا الراهب: «ألا تنزعج يا أخي من تحمُّل خطايا رجلٍ حقير مثل شاليم؟».

توقف الراهب ونظر إلى الجانبين ثم إلى الطائر وهمس: «بلى. لكن معارضته تعني الموت. إن الفرسان لن يخاطروا بما لديهم هنا».

- هل تقصد الأرشيف؟ هل يمكنك إخباري عن مكانه؟

سمع الطائر عن هذا الأرشيف. ربما يحمل المفتاح لكشف أسرار الفرسان. لكن الراهب هز رأسه وابتعد. فجأة اندلعت جلبة، ورأى الطائر شاليم. كان يقف على منصة. لم تعد العاهرة معه، وبدا أقل ثمالة بكثير مما كان من قبل.

قال عندما اجتمع الناس: «يا رجال ونساء قبرص. أرماند بوشارت يرسل تحياته، لكنه يشدد على أن كل مَن يثير الشغب دعمًا للمقاومة سيُعتقل ويُعاقب. مَن يسعى للنظام والتناغم ويثبت خضوعه للسيد بالعمل الطيب، سينعم بإحسان بوشارت. والآن، لنعمل معًا كأخوة لنعيد بناء ما هدمه الغضب والكراهية».

فكر الطائر في غرابة الأمر. بدا شاليم مرتاحًا ومنتعشًا، ليس كما توقع أن يراه الطائر نظرًا إلى نشاطاته الأخيرة. فشاليم كان يبدو عليه أنه يخطط لقضاء باقي اليوم في الشرب والدعارة. أما هذا، فيبدو رجلًا مختلفًا تمامًا. ليس فقط في مظهره، بل أيضًا في سلوكه وحركاته. وكذلك فلسفته بالكامل، نظرًا إلى مضمون حديثه. كما أن شاليم الحالي ليس معه حراس. وهكذا يستطيع الطائر التغلب عليه بسهولة. ربما في أحد الأزقة بعيدًا عن شوارع كيرينيا الرئيسية.

نزل شاليم عن المنصة وتحرك مبتعدًا عن الكاتدرائية وإلى شوارع المدينة، فتبعه الطائر.

لم يكن واثقًا منذ متى وهما يسيران. فجأة رأى قلعة سانت هيلاريون الضخمة، ورأى شاليم متجهًا إليها. وصل إلى بوابة القلعة الضخمة، دخل عبر باب فرعي صغير واختفى عن الأنظار. أطلق الطائر سبابًا. لقد فقد هدفه. مع ذلك كانت القلعة شعلة من النشاط، والآن فتحت بواباتها على وسعها لتسمح بخروج محفَّة يحملها أربعة رجال. لكنها كانت

خالية. اتضح هذا من تحركهم السريع بها. تبعهم الطائر إلى الميناء المصبوغ بأشعة الشمس حيث وضعوا حملهم ووقفوا شابكين أذرعهم ينتظرون.

انتظر الطائر أيضًا. جلس على سور منخفض وضم ركبتيه واتكأ عليهما بمرفقيه. ظل يراقب المحفَّة والخدم المنتظرين، والتجار والصيادين، والسفن الجميلة المتمايلة برفق في الماء وهيكلها يحتك بحاجز الميناء. فجأة توقفت مجموعة من الصيادين الذين يحملون شبكة ضخمة، ونظروا إلى إحدى السفن وابتسموا. تبع الطائر نظرتهم فرأى بعض النساء بملابس من الحرير والشيفون مثل المحظيات. كن يتجهن إلى الميناء بخيلاء ونعومة. استدار الصيادون إليهم واستهجنت غاسلات الملابس عندما عبرت المحظيات الميناء بغرور عالمات بالاهتمام الذي أثرنه. راقبهن الطائر.

فوجد بينهن ماريا.

كانت ترتدي كالمحظيات. ابتهج قلبه لرؤيتها. لكن ماذا تفعل؟ هل هربت من قبضة شاليم لتعود إلى الخطر بقدميها؟ دخلت هي وباقي النساء المحفَّة المغطاة. انتظر الخدم حتى استقرت النساء، ثم حملوها ببطءٍ شديد عن ذي قبل. انحنى الرجال تحت وطأة الوزن واتجهوا خارج الميناء، إلى قلعة سانت هيلاريون إن صح تخمين الطائر، حيث ينتظر شاليم بلهفةٍ بالتأكيد.

استدار الطائر ليتبعهم. تسلق جدران مبنى قريب، ثم شق طريقه عبر الأسطح قافزًا من واحدٍ إلى آخر تابعًا المحفة التي تتحرك بالأسفل. انتظر منحنيًا عندما اقتربت من بوابة القلعة. ثم ضبط توقيته ليهبط على سطحها.

بوم.

مالت المحفَّة بينما يتأقلم الرجال على الوزن الجديد. راهن الطائر على أنهم لن يجرؤوا على رفع نظرهم من شدة الاضطهاد الذي يتعرضون له. وقد كان محقًّا. لقد حملوا الوزن الإضافي بصمت وواصلوا السير. حتى لو المحظيات بالداخل لاحظن شيئًا، فلم يتحدثن أيضًا. دخل الموكب القلعة بسلام حتى وصل إلى ساحة. نظر الطائر حوله ورأى رماة على المتاريس. سوف يلمحونه في أي لحظة. نزل واختبأ خلف سورٍ منخفض وشاهد الرجال يصطحبون ماريا من المحفَّة ويغادرون الساحة عبر بابٍ صغير.

تسلق إلى سطح حمامٍ خارجي. سيضطر إلى الدخول عبر طريقٍ طويل من الخارج. لكنه واثقٌ من شيءٍ واحد الآن. لقد وجدها، ولن يفقدها مجددًا.

# 45

قادوا ماريا إلى شرفة واسعة حارة لتقابل مالك قلعة هيلاريون. أحدهما على الأقل. فالطائر لا يعلم أن شاليم لديه أخ توأم، اسمه شاهار. شاهار هو من رآه الطائر يخاطب الناس اليوم عن الإحسان. وهذا يفسر تساؤل الحشاش عن كيف لرجلٍ قضى ليلته في السكر والدعارة يبدو في غاية الحيوية في اليوم التالي.

أما ماريا فكانت تعرف كلا الأخوين. وعلى الرغم من أنهما متماثلان، يمكنها التمييز بينهما. فشاليم لديه هالات سوداء، ويتأثر مظهره بأسلوب حياته. أما شاهار فيبدو أكثر شبابًا. وهو مَن سيقابلها الآن. استدار إليها وابتسم مشرقًا بينما تسير إليه في الشرفة وهي متألقة بملابس المحظيات وفاتنة كفاية لتجذب أي رجل.

قال: «لم أتوقع رؤيتكِ مجددًا. كيف يمكنني مساعدتكِ أيتها الثعلبة الصغيرة؟».

سار متجاوزًا إياهًا عائدًا إلى القاعة.

قالت بانزعاج يخالف مظهرها: «لم آتِ لتلقي المجاملات. أريد إجابات».

تبعته، وعندما وصلا إلى القاعة، نظر إليها بحيرةٍ وشهوة في الوقت نفسه. لكنها تجاهلت نظراته، فهي بحاجةٍ إلى التأكد مما أخبرها به الطائر بنفسها.

قال شاهار: «حقًّا؟».

قالت مباشرةً: «هل صحيح أن فرسان الهيكل يريدون استخدام تفاحة عدن في الشر؟ ليس لتنوير الناس، بل لاستعبادهم؟».

ابتسم بتساهلٍ كأنه يشرح لطفلٍ لطيف لكن بسيط العقل: «البشر كائنات حائرة يا ماريا. إنهم كخراف يستجدون الطعام. وهذا ما نقدمه لهم، حياة بسيطة خالية من الهموم».

قالت بإلحاح: «لكن تنظيمنا نشأ لحماية الناس، وليس لسلب حريتهم».

لوى شاهار شفتيه قائلًا: «لا يهتم الفرسان بالحرية يا ماريا. نحن نسعى للنظام فقط».

كان يسير نحوها، فتراجعت قائلة: «النظام أم الاستعباد؟».

اكتسب صوته نبرة خطيرة وهو يرد: «فلتسمِّيه ما شئتِ يا عزيزتي».

اقترب منها، ولم يقاطع نواياه الواضحة تمامًا إلا اقتحام الطائر للغرفة. استدار شاهار وهتف: «حشاش!».

جذب كتف ماريا ودفعها إلى الأرض، فسقطت بألم. قرر الطائر أن يجعل هذا المتنمر يدفع ثمن فعلته.

قال الطائر ساخرًا: «أعتذر يا شاليم، لقد دخلت دون إذن».

ابتسم شاهار وقال: «أتبحث عن أخي؟ أنا واثق بأنه سيسعد بالانضمام لنا».

جاء صوتٌ من الأعلى، فرفع الطائر نظره إلى شرفةٍ علوية حيث يقترب شاليم مبتسمًا. ثم دخل حارسان عبر الباب المفتوح، مستعدين للانقضاض على ماريا التي وقفت ودارت وخطفت سيفًا من غمد حارس وضربته به.

صرخ وسقط بينما تستدير وتنحني على ركبةٍ واحدة وتضرب مجددًا لتتخلص من الحارس الآخر. في الوقت نفسه قفز شاليم من الشرفة العلوية

وهبط وسط القاعة بجوار أخيه. رأى الطائر الأخوين جنبًا إلى جنب، وذهل بمدى التشابه بينهما. وقفت ماريا بجانبه والدم يقطر من السيف الذي سرقته للتو، وكتفاها تعلوان وتهبطان. وقف الاثنان مقابل الأخوين التوأم. شعر الطائر بصدره يمتلئ بالفخر وبشعورٍ آخر لم يرد تسميته.

قال لها: «هما الاثنان في مواجهتنا نحن الاثنين».

لكن فاجأته ماريا مجددًا. بدلًا من أن تقاتل معه، أطلقت صوت ازدراء ثم اندفعت عبر الباب الذي تركه الحارسان مفتوحًا. للحظةٍ تساءل الطائر إن كان عليه اتباعها، لكن الأخوين هجما عليه. فصار يدافع عن حياته ضد مبارزين محترفين.

كانت معركة طويلة ووحشية. بدأ التوأم بثقة في قدرتهما على هزيمة الحشاش بسهولة. فهما اثنان، وكلاهما مسلح. بالتالي توقعا أن يُنهكاه تمامًا. لكن الطائر كان يقاتل بروحٍ تشتعل بالغضب والغيظ. لم يعد يعرف الصديق من العدو. لقد تعرض للخيانة. مَن يفترض بهم أن يكونوا أصدقاء اتضح أنهم أعداء. ومن ظنهم قد يصبحون أصدقاء -أو أكثر- رفضوا يد الصداقة التي قدمها لهم. كل ما يعرفه أنه يقاتل في حرب تحمل أخطارًا أكثر مما يظن، من ضمنها قوى وأفكار ما زال عليه استيعابها. عليه مواصلة القتال والكفاح حتى النهاية.

أخيرًا صرع الرجلين. عندما سقطا كانت أطرافهما ملتوية بزوايا غريبة، وأعينهما ميتة. لكنه لم يشعر بلذة الانتصار، بل نفض الدم عن سيفه فقط وأعاده إلى غمده قبل أن يتجه إلى الشرفة. سمع المزيد من الحراس يقتربون من خلفه بينما وقف على حاجز الشرفة وفرد ذراعيه. رأى عربة بالأسفل، فقفز إليها ثم اختفى في المدينة.

***

عاد لاحقًا إلى المخبأ الآمن. وجد ماركوس في استقباله بشوق لمعرفة قصة موت الأخوين. تعانق أعضاء الأخوية من حوله وقد غمرتهم

الأخبار بالبهجة. أخيرًا ستستعيد المقاومة السيطرة على كيرينيا. وإن استعادوا كيرينيا، فما زال الأمل موجودًا لباقي الجزيرة.

قال له ماركوس بسعادة: «الأمور تحدث أيها الطائر. سفن الفرسان تغادر الميناء. ستتحرر كيرينيا. وربما كل قبرص».

ابتسم الطائر وقد شجعته السعادة المطلة من عينَي ماركوس، وقال له ناصحًا: «كن حذرًا».

تذكر أنه لم يعرف شيئًا عن مكان الأرشيف. لكن مغادرة الفرسان تنبئه بشيء. قال: «ما كانوا ليتركوا الأرشيف دون دفاع. مما يعني أنه لا يمكن أن يكون هنا».

قال ماركوس مفكرًا: «معظم السفن التي غادرت كانت عائدة إلى ليماسول. هل يمكن أن يكون هناك؟».

أومأ الطائر قائلًا: «أشكرك يا ماركوس. لقد خدمت بلدك بإخلاص».

- بالتوفيق أيها الطائر.

***

لاحقًا ذهب الطائر إلى سفينة تعيده إلى ليماسول.

وهناك تمنى أن يكشف نوايا الفرسان وحقيقة أليكساندر.

فكر في هذا في أثناء الإبحار بينما يكتب في مفكرته.

*أتذكر لحظة ضعفي، عندما هزت كلمات المعلم ثقتي. مَن كان لي بمنزلة الأب، اتضح أنه ألد أعدائي. لم يحتج سوى لحظة شك حتى يغزو عقلي بتلك الأداة. لكنني هزمت أطيافه واستعدت ثقتي وقتلته.*

# 46

بدت ليماسول كما تركها، تعج برجال الفرسان والجنود والسكان الناقمين الذين يواصلون حياتهم بينما يعلو السخط وجوههم.

لم يضع الطائر وقتًا في تحديد موقع مخبأ المقاومة الآمن المتمثل في مستودعٍ مهجور، ودخله. كان عازمًا على مواجهة أليكساندر بما سمعه من محادثة بوشارت وشاليم. لكن عندما دخل المبنى، كان أليكساندر هو من واجهه.

- تراجع أيها الخائن. لقد خنت المقاومة وبعت قضيتنا. هل كنت تعمل مع بوشارت كل هذا الوقت؟

كان الطائر مستعدًّا لمواجهة أليكساندر، بل وقتاله أيضًا. لكن مرأى رجل المقاومة بهذه الحالة قد هدأه، وجعله يفكر في أنه ربما أساء فهم ما سمعه. لكنه حافظ على حذره بأي حال.

- كنت على وشك سؤالك الشيء نفسه يا أليكساندر. سمعت بوشارت يذكر اسمك. لقد سلمك طردًا، أليس كذلك؟

كان المخبأ قليل الأثاث، لكن هناك طاولة قصيرة بالقرب منه، وعليها الكيس الصغير الذي رأى بوشارت يعطيه لشاليم في كيرينيا.

قال أليكساندر: «نعم، إنه كيس من الخيش يحوي رأس بارناباس المسكين».

سار الطائر إلى الكيس وجذب الحبل المزموم، فانفتح الكيس ليكشف عن رأسٍ مقطوع، لكن...

- هذا ليس الرجل الذي قابلني في كيرينيا.

نظر الطائر بحزن إلى الرأس الذي بدأ لونها يتغير وفاحت برائحة كريهة قوية. كانت العينان نصف مغمضتين، والفم مفتوح قليلًا، ويظهر عبره اللسان.

تساءل أليكساندر: «ماذا؟».

- قُتِل بارناباس الحقيقي قبل وصولي، واستبدله عميل للفرسان. وقد سبب الكثير من الضرر قبل أن يختفي.

- فليساعدنا الرب. إن وحشية الفرسان لا تقل ضراوةً هنا. القادة يتجولون في السوق والموانئ وميدان الكاتدرائية، ويعتقلون أي شخصٍ يريدون.

قال الطائر: «لا تهلع يا صديقي. لقد تخلصت كيرينيا من الفرسان. وسندحرهم من ليماسول أيضًا».

- يجب أن تحذر. فدعاية الفرسان قد قلبت بعض رجالي ضدك، ومعظم الباقين متخوفون.

- شكرًا على التحذير.

***

بحث الطائر عن بوشارت في المدينة بلا جدوى. لكن عندما عاد لإبلاغ أليكساندر بالأنباء السيئة، وجد المخبأ خاليًا إلا من رسالة قصيرة على الطاولة. أخذها الطائر. يريد أليكساندر لقاءه في ساحة القلعة. هذا ما تقوله الرسالة.

فكر الطائر. هل رأى خط أليكساندر من قبل؟ لا يظن. بأي حال، ربما كتب قائد المقر هذه الرسالة تحت التهديد.

اتجه إلى مكان اللقاء وكل غرائزه تخبره أنه قد يكون فخًّا. وهكذا بقلبٍ ملتاع، رأى جثة في الساحة حيث مكان اللقاء.

لا.

نظر حوله فورًا ولم يرَ سوى الفراغ. المنطقة بأكملها ساكنة تمامًا. انحنى على الجثة وتحققت مخاوفه وهو يدير الجثة ليرى عينَي أليكساندر الميتتين تحدقان به.

جاءه صوتٌ من أعلى، فاعتدل ودار، ورأى ظلًّا عند المتاريس ينظر إلى الساحة. شوشت الشمس رؤيته فوضع يده على عينه ليحجبها، لكنه لم يستطع أن يتبين وجه الرجل الواقف هناك. هل هو بوشارت؟ أيًّا من كان، فقد كان يرتدي الصليب الأحمر الخاص بالصليبيين، ويقف مباعدًا بين ساقيه قليلًا وواضعًا يديه في خصره. كل لمحة فيه تجسد صورة البطل الغازي.

أشار الفارس إلى جثة أليكساندر وقال ساخرًا: «أهو صديقك؟».

تمنى الطائر أن يجعله يدفع ثمن احتقاره قريبًا. تحرك الرجل قليلًا، فتمكن الطائر أخيرًا من رؤيته بوضوح. إنه الجاسوس الذي انتحل صفة بارناباس في كيرينيا، وغالبًا هو المسؤول عن موت بارناباس الحقيقي. رجل صالح آخر يموت. ضم قبضتيه وشد على فكه. لكن الأفضلية لهذا الجاسوس في الوقت الراهن.

ناداه الطائر: «لم تقل اسمك يا هذا».

ضحك الجاسوس وقال بسخرية: «ألم أخبرك في كيرينيا؟ بارناباس، أليس كذلك؟».

سمع الطائر صيحةً عظيمة واستدار، فرأى مجموعة من المواطنين يدخلون الساحة. لقد وقع في المكيدة. ذلك الجاسوس حرَّض الناس ضده، وورطه بتهمة قتل أليكساندر. استطاع ضبط التوقيت بحيث تصل الجموع الغاضبة في اللحظة المناسبة. كان فخًّا، وقد وقع به مباشرةً، على الرغم من أن حدسه أنبأه بالتزام الحذر.

وبَّخ نفسه مجددًا. نظر حوله، ورأى الأسوار الحجرية تحيط به. هناك دَرج يقود إلى المتاريس العليا، لكن أعلاها يقف الجاسوس مبتسمًا ابتسامةً واسعة ومستمتعًا بالعرض الذي يوشك على البدء بكل حمية بينما يندفع المواطنون نحو الطائر بدمٍ ثائر ورغبة في الانتقام تشتعل في أعينهم.

- ها هو الخائن!

- اشنقوه!

- ستدفع ثمن جرائمك!

وقف الطائر مكانه. مد يده غريزيًّا إلى سيفه. لكن لا، لا يمكنه أن يقتل أي مواطن. فهذا كفيل بتدمير ثقتهم في المقاومة أو الحشاشين. كل ما يمكنه فِعله هو عرض براءته. لكن لا يمكن التفاهم معهم. فكر في حلٍّ باستماتة.

ووجده.

التفاحة.

شعر بها تناديه. فجأة شعر بوجودها في جعبته المعلقة على ظهره، فأخرجها ورفعها في مواجهة الحشد.

لم يعرف ما الذي يحاول فعله بها، ولم يكن واثقًا مما سيحدث. شعر أن التفاحة ستطيع أوامره وستفهم نيته. لكنه مجرد شعور، إحساس، حدس.

وهذا ما حدث. نبضت ولمعت بين يديه وسطعت بضوءٍ شفاف أحاط بالحشد الذي هدأ فورًا وتجمد مكانه. رأى الطائر جاسوس الفرسان يتراجع بصدمة. للحظةٍ شعر بقوةٍ مطلقة. وفي تلك اللحظة، لم يشعر فقط بإغراء التفاحة والقوة الجبارة التي تمنحها، بل أيضًا بالخطر الرهيب الذي تحمله إذا وقعت في يد مَن يسيء استخدامها، وكذلك هو. فحتى هو ليس منيعًا لإغرائها. لقد استخدمها الآن، لكنه تعهد لنفسه ألا يستخدمها مجددًا، ليس لتلك الأغراض بأي حال.

ثم خاطب الناس: «أرماند بوشارت هو الرجل المسؤول عن بؤسكم. لقد استأجر هذا الرجل لتحريض المقاومة على بعضها. اخرجوا واجمعوا رجالكم. ستعود قبرص إليكم مجددًا».

لبضع لحظات تساءل إن كان قد نجح الأمر أم لا. هل سيعاود الحشد الغامض الهجوم عندما يُخفض التفاحة؟ خفضها، ولم ينقض الحشد عليه. لقد غيرت كلماته رأيهم. أقنعتهم. دون المزيد من الجلبة، استداروا وغادروا الساحة بسرعة كما دخلوها. لكن هذه المرة كانوا هادئين، كأنهم نادمون.

عادت الساحة خالية. نظر الطائر إلى التفاحة في يده للحظات. شاهد ضوءها يخبو، شاعرًا بمزيجٍ من الانبهار والخوف والانجذاب. أعادها إلى جعبته بأمان بينما يقول الجاسوس: «لعبة مدهشة. أتمانع لو استعرتها منك؟».

أيقن الطائر شيئًا واحدًا، وهو أن الفرسان لن يأخذوا التفاحة إلا على جثته. شهر سيفه استعدادًا للقتال بينما يبتسم الفارس مترقبًا القتال. كاد ينزل من على المتاريس حين...

توقف.

وذابت الابتسامة عن وجهه كما يذوب الزبد.

برز من صدره نصل، وتخضب رداؤه الأبيض بالدم، مختلطًا بالصليب الأحمر. نظر إلى نفسه بارتباك، كأنه يتساءل كيف وصل إليه هذا السلاح. أما الطائر في الساحة بالأسفل، فكان يتساءل عن الأمر نفسه. ترنح الفارس، فرأى الطائر شخصًا خلفه، وتعرف عليه. إنها ماريا.

ابتسمت ودفعت الفارس من على سور الساحة، فسقط وارتطم بعنف بالأرض في الأسفل. وقفت هناك وسيفها يقطر دمًا. ابتسمت للطائر ونفضت الدم عن سيفها ثم أعادته لغمده.

ابتسمت وقالت: «لقد كانت التفاحة معك طوال الوقت».

أومأ وقال: «الآن عرفتِ كيف ستكون سلاحًا في الأيدي الخاطئة».

- لكنني لست واثقة من أنك الأيدي الصالحة.

- أنتِ محقة. سوف أدمرها، أو أخفيها. لا أستطيع التقرير قبل أن أجد الأرشيف.

- لا داعي لمواصلة البحث، فأنت تقف فوقه.

# 47

انطلقت صيحة صاخبة عند مدخل الساحة، واندفع مجموعة من الفرسان بأعين تطلق شررًا من خلف خوذاتهم.

نادته ماريا من أعلى: «من هنا بسرعة!».

استدارت وركضت على السور باتجاه باب. كاد الطائر يتبعها، لكن الفرسان الثلاثة هجموا عليه. أطلق سبابًا وقابلهم بسيفه، ففقد أثر ماريا مجددًا.

كانوا مهرة، وبدا واضحًا أنهم تدربوا بجهد. عضلات أعناقهم تثبت هذا. لكن حتى ثلاثة فرسان ليسوا ندًّا للحشاش الذي تحرك بينهم بخفةٍ ورشاقة كأنه يرقص، حتى أثخنهم بالجراح فسقطوا موتى عند قدميه.

ألقى نظرةً للأعلى. كان السور خاليًا. لا يوجد سوى جثة الفارس الجاسوس أعلى الدرج، ولا أثر لماريا. صعد السلم بسرعة، لم يقف سوى ثانية لينظر إلى جثة الرجل. لو أن مهمة العميل هي عرقلة العدو، فقد أدى هذا الرجل مهمته على أكمل وجه. لقد كاد يقلب الشعب ضد المقاومة ليقودهم مباشرةً إلى عرين الفرسان الذين لا يخططون لتنويرهم بل إخضاعهم والتحكم بهم.

أسرع الطائر حتى وصل إلى الباب في آخر السور. كان مدخلًا إلى المبنى الذي يضم الأرشيف. خطا إلى الداخل.

انغلق الباب خلفه. وجد نفسه في ممر يمتد حتى سلم دائري يقود للأسفل. سطعت المشاعل المعلقة على الجدران ضوءًا خافتًا، وألقت ظلالًا راقصة على صلبان فرسان الهيكل المنقوشة على الجدران. كان المكان ساكنًا.

لا، ليس تمامًا.

سمع هتافًا قادمًا من الأسفل. ربما حراس انتبهوا لوجود... ماريا؟ روح جامحة مثلها لا يمكن أبدًا أن تتماشى مع أفكار الفرسان. إنها خائنة الآن. لقد قتلت فارسًا، وأرشدت حشاشًا إلى موقع الأرشيف. سيقتلونها فور رؤيتها. لكن وفقًا لمهاراتها التي رآها في القتال، فالأقوال أسهل من الأفعال.

بدأ ينزل بسرعة على السلم المظلم، وبين حين وآخر يقفز عبر الفراغات التي تركتها الدرجات المنهارة، حتى وصل إلى غرفةٍ بأرضيةٍ رملية. وصل لملاقاته ثلاثة حراس. تخلص من أحدهم بسكينٍ رماها عليه مباشرةً. راوغ الثاني وغرس سيفه في عنقه، ثم ألقى جسده على الثالث، فسقط الاثنان. قضى عليهما الطائر بينما يتلويان على الأرض. توغل أكثر في المكان فسمع صوت ماءٍ مندفع، ووجد نفسه على جسرٍ يمر بين شلالين. كان الصوت كافيًا ليكتم صوت دخوله عن الحارسين الواقفين في نهاية الجسر. قضى عليهما بضربتين من نصله.

تركهما وواصل النزول وصولًا إلى... المكتبة. رأى أرفف كتب، بل غرفًا كاملة تمتلئ بها. هذا هو. لقد وصل إليه. لم يكن واثقًا ما الذي توقع أن يراه، لكنه بالتأكيد تخيل المزيد من الكتب والقطع الأثرية. هل هذا فعلًا هو الأرشيف الشهير الذي سمع عنه؟

لكن لا وقت لديه لفحص ما اكتشفه. سمع أصواتًا. صليل سيوف. مبارِزان، أحدهما امرأة بالتأكيد.

رأى أمامه قوسًا ضخمًا مزينًا بصليب الفرسان في منتصفه. عبره ودخل غرفةً واسعة، تتوسطها منطقة للطقوس يحيط بها أعمدة حجرية. في المنتصف وقف بوشارت وماريا يتبارزان. كانت بالكاد تصد ضربات زعيم الفرسان. ومع دخول الطائر بالضبط استطاع أن يضربها، فوقعت على الأرض الحجرية وهي تصرخ بألم.

نظر إليها بوشارت بلامبالاة واستدار لمواجهة الطائر الذي لم يُصدر صوتًا وهو يدخل.

قال فارس الهيكل محتقرًا الحاكم القبرصي الراحل: «الإمبراطور المغفل كومينوس. لقد كان أحمق، لكنه كان يعمل لحسابنا. على مدى عقد من الزمان عملنا على هذه الجزيرة دون أي تدخلات. كان أرشيفنا أشد الأماكن سرية في قبرص. لسوء الحظ، حتى أفضل الخطط ليست منيعة ضد حماقة إيزاك».

فكر الطائر. عقدٌ من الزمان. تقدم خطوة ونقل نظره من بوشارت إلى ماريا، ثم قال: «لقد أغضب الملك ريتشارد، فتسبب في اقتراب الإنجليز إلى درجةٍ تزعجكم، أليس كذلك؟».

عندما لم يحاول بوشارت إيقافه، سار إلى ماريا وانحنى ليتفقدها. أمسك وجهها بحثًا عن أثر للحياة.

تحدث بوشارت كأنه مستمتع بصوته: «لحسن الحظ استطعنا إقناع ريتشارد ببيع الجزيرة لنا. كانت الوسيلة الوحيدة لتشتيت انتباهه».

رمشت عيناها وزمجرت. *إنها حية*. تنفس الطائر الصعداء ثم أرقد رأسها برفقٍ على الأرض. بعدها استقام لمواجهة بوشارت الذي ظل يشاهدهما مبتسمًا بتسلية.

قال الطائر: «إذًا اشتريتم ما كنت تتحكمون فيه بالفعل».

لقد فهم الآن. اشترى الفرسان قبرص من الملك ريتشارد لحماية سر الأرشيف من الاكتشاف. لا عجب في أنهم كانوا يطاردونه بعدائية شديدة حين وصل إلى الجزيرة.

أكَّد بوشارت شكوكه حين قال: «انظر إلى أين أوصلنا هذا. منذ أن وصلت وحشرت أنفك في الكثير من أسرارنا، لم يعد الأرشيف آمنًا».

رد الطائر متظاهرًا بالثقة وإن كان يشعر بخطبٍ ما: «ليتني أستطيع الاعتذار، لكنني أميل لأخذ ما أريده».

ابتسم بوشارت بثقة وقال: «ليس هذه المرة أيها الحشاش. ليس الآن. إن رحلتنا القصيرة إلى كيرينيا منحتنا وقتًا كافيًا لتفكيك الأرشيف ونقله».

بالطبع. فالأرشيف الذي رآه في طريقه لم يكن ضخمًا، بل كان بقاياه غير المرغوب فيها. لقد شتتوا انتباهه في كيرينيا واستغلوا الفرصة لنقل الأرشيف.

قال الطائر وقد اتضحت الأمور: «لم تكونوا تشحنون الآثار إلى قبرص، بل منها».

قال بوشارت بإيماءة: «بالضبط. لكن لسنا مضطرين لنقل كل شيء. أظننا سنتركك هنا».

اندفع بوشارت مهاجمًا بسيفه، فصده الطائر بهجومٍ عكسي. لكن بوشارت كان مستعدًّا وصده وواصل الهجوم مجبرًا الطائر على وضعية الدفاع ليصد مجموعة من الطعنات والضربات المتلاحقة. مهارة بوشارت واضحة. كما أنه سريع، ويعتمد على الأسلوب والوضعية بدلًا من القوة الغاشمة التي يستخدمها معظم الصليبيين في المبارزات. لكنه بادر بالهجوم متوقعًا فوزًا سريعًا. رغبته المستميتة في هزيمة الحشاش أنسته المطالب الجسدية للمعركة. لهذا ظل الطائر يدافع وتركه يستنزف

هجماته. وبين كل بضع هجمات يقاطعه بهجمةٍ سريعة ليجرحه. جرحٌ هنا وشقٌّ هناك حتى بدأ الدم يسيل من تحت درع بوشارت الثقيل.

في أثناء القتال، فكر الطائر في ماريا وكل مَن ماتوا بأوامر فرسان الهيكل، لكنه منع تلك الأفكار من التحول إلى رغبة انتقامية. بل استمد منها العزم. اختفت الابتسامة من على وجه بوشارت بينما ظل الطائر صامتًا. بدأ زعيم فرسان الهيكل يلهث من الجهد، والغيظ. أصبحت ضربات سيفه أقل تنظيمًا، ولم تعد تصيب الهدف. سال عرقه ودمه بغزارة بينما يجز على أسنانه.

أصابه الطائر بالمزيد من الجروح. جرحه في جبهته فسال الدم في عينيه وأخذ يمسح وجهه بقفازه ليزيل الدم. خارت قوى بوشارت حتى صار يرفع سيفه بصعوبة وتراخى جسده. ضعفت ساقاه وتهدلت كتفاه وهو يلهث ويحاول رؤية الحشاش عبر قناع الدم الذي يغطي وجهه فيجعله لا يرى إلا ظلال وأشكال. لقد هُزِم. وبالتالي أصبح في عداد الأموات.

لم يعبث معه الطائر أكثر. لقد انتظر حتى زال خطره وتأكد من أنه لا يصطنع الإجهاد.

ثم انقضَّ عليه.

وقع بوشارت أرضًا وانحنى الطائر بجواره. نظر إليه فارس الهيكل، ورأى الطائر في عينيه الاحترام.

قال لهثًا: «أنت فخرٌ لعقيدتك».

- وأنت شردت عن عقيدتك.

- لم أشرد، بل توسعت. العالم أكثر تعقيدًا مما يجرؤ معظمنا على الاعتراف. وأنت أيها الحشاش.. لو أنك تعرف شيئًا غير القتل، لربما فهمت هذا.

عبس الطائر وقال: «وفِّر نصائحك لنفسك. ومت وأنت تعرف أنني لن أدع تفاحة عدن تقع في يد أي شخصٍ غيري».

أحس بحرارةٍ في ظهره بينما يتحدث عنها، كأنها استيقظت على كلامه.

ابتسم بوشارت بسخرية وقال: «أبقها بالقرب منك أيها الطائر. سوف تصل إلى النتيجة نفسها التي توصلنا إليها... في الوقت المناسب».

مات. مد الطائر يده ليغمض عينيه في اللحظة نفسها التي اهتز فيها المبنى وانهالت الأنقاض عليه. إنها ضربات مدافع. الفرسان يدمرون الأرشيف. هذا منطقي. يريدون محو أي أثر.

ذهب إلى ماريا وجذبها لتنهض. نظرا بعضهما إلى بعض للحظات وتبادلا مشاعر صامتة. ثم أمسكت بذراعه وقادته خارج القاعة الكبرى التي اهتزت مرة أخرى بسبب المدافع. استدار الطائر في اللحظة نفسها التي رأى فيها عمودين جميلين يتحطمان وينهاران. تساقطت أحجار ضخمة على الأرض. ركض خلف ماريا وصعد السلالم قفزًا حتى عادا أعلى الدرج الدائري. ارتج المبنى بانفجارٍ آخر وتحطمت الجدران في الممر. لكنهما واصلا الركض والتفادي حتى وصلا إلى المخرج.

كانت السلالم منهارة، فتسلق الطائر ثم سحب ماريا للأعلى إلى منصة. واصلا طريقهما نحو نور النهار بينما اشتد القصف وبدأ المبنى ينهار كليًّا، فاضطرا للقفز منه. وقفا يستنشقان الهواء الطلق، شاكرين على النجاة.

لاحقًا بعدما غادرت سفن الفرسان حاملةً أسرار الأرشيف الثمينة، سار الطائر وماريا بشرود تحت ضوء الغروب في ميناء ليماسول.

قالت ماريا بعد صمتٍ طويل: «لم أعد أريد كل ما عملت لأجله في الأرض المقدسة. كل ما تخليت عنه لأنضم إلى الفرسان، أتساءل أين هو الآن، ولا أعرف إن كان عليَّ البحث عنه».

سألها الطائر: «هل ستعودين إلى إنجلترا؟».

- لا. أنا بعيدة عن الوطن بالفعل. سأواصل شرقًا. ربما إلى الهند. أو حتى أسقط عن حافة العالم. ماذا عنك؟

فكر الطائر بينما يستمتع بلحظة التقارب التي بينهما.

- بعدما أمضيت سنواتٍ طويلة تحت إمرة المعلم، ظننت أن حياتي قد وصلت إلى أقصى مبتغاها. وأن واجبي الوحيد هو تعليم الآخرين ما تعلمته.

وافقته الرأي: «شعرت بهذا من قبل».

أخذ التفاحة من جعبة ظهره ورفعها ونظر إليها قائلًا: «بقدر ما تحمل هذه الأداة الأثرية من فظائع، فهي تحمل أيضًا عجائب. أود أن أفهمها بقدر ما أستطيع».

- أنت تخاطر أيها الطائر.

أومأ ببطءٍ وقال: «أعلم. لكن الفضول يقتلني يا ماريا. أريد أن أقابل ألمع العقول، وأكتشف مكتبات العالم، وأتعلم كل أسرار الطبيعة والكون».

- كل هذا في حياةٍ واحدة؟ هذا طموحٌ زائد.

ضحك وقال: «مَن يدري؟ ربما حياة واحدة تكفي».

- ربما. أين ستذهب أولًا؟

نظر إليها مبتسمًا وهو يعلم أنه يريدها معه لباقي رحلته. قال: «شرقًا».

# الجزء الرابع

# 48

## 15 يوليو 1257

أحيانًا ينظر مافيو إليَّ بغرابة. كأنه يظن أنني لا أحكي له كل التفاصيل الضرورية. لقد فعل هذا عدة مرات في أثناء الحكاية. بينما نتجول في سوق مصياف المزدحم، أو نستمتع بنسيم السراديب البارد تحت القلعة، أو نتمشى بين المتاريس ونرى الطيور تدور وتهبط عبر الوديان. كان ينظر إليَّ في تلك المشاهد كأنه يقول: «ما الذي لا تخبرني به يا نيكولو؟».

الإجابة هي لا شيء بالطبع، بخلاف شكي المستمر في أن تلك القصة سوف تشملنا في النهاية بشكلٍ ما. وأن الطائر حكا لي كل هذا لسببٍ ما. هل يتعلق الأمر بالتفاحة؟ أم مذكراته؟ أم المخطوطات، ذلك السجل الذي دوَّن فيه أهم اكتشافاته؟

مع ذلك ظل مافيو يرمقني بتلك النظرة.

- ثم؟

- ثم ماذا يا أخي؟

- هل ذهب الطائر وماريا شرقًا؟

- مافيو، ماريا هي والدة داريم، الرجل المهذب الذي دعانا إلى هنا.

شاهدت مافيو وهو يدير رأسه إلى الشمس ويغمض عينيه تاركًا الأشعة تدفئ وجهه بينما يستوعب المعلومة. أنا واثق بأنه يحاول تخيل داريم الذي عرفناه رجلًا في الستينيات من عمره بوجهٍ متجعد، كشخصٍ لديه أم. وأم مثل ماريا تحديدًا.

تركته يفكر بينما ابتسمت باستمتاع. كما أزعجني مافيو بالأسئلة في في أثناء الحكي، أنا أيضًا أزعجت المعلم بالأسئلة، لكن بالكثير من الاحترام بالطبع.

سألته ذات مرة عن مكان التفاحة الحالي. بصراحة، لقد تمنيت أن يريها لي في وقتٍ ما. فقد تحدث عنها بمهابةٍ شديدة حتى بدا خائفًا منها أحيانًا. لذلك من الطبيعي أن أتمنى رؤيتها بنفسي. ربما لأفهم جاذبيتها.

لكن لم يحدث هذا للأسف. لقد قابل سؤالي بطقطقة لسانه. رفع إصبعه وحذرني قائلًا أنه ليس عليَّ شغل عقلي بالتفاحة، بل بالمخطوطات. فما تحمله تلك الأوراق هي أسرار التفاحة، لكن دون تأثيرها الضار.

المخطوطات. نعم، هذا صحيح. المخطوطات هي ما ستثبت أهميتها في المستقبل، وربما مستقبلي أنا أيضًا.

بأي حال، عدت بتفكيري إلى الحاضر، وشاهدت مافيو يفكر في كون داريم ابن الطائر وماريا. وأن بدايتهما المثيرة للجدل قد بدأت باحترامٍ متبادل بعده انجذاب ثم صداقة فحب و...

قال مافيو: «زواج؟ هل تزوجا هي والطائر؟».

- بالطبع. بعد عامين من الأحداث التي رويتها، تزوجا في ليماسول. أقاما حفل الزفاف هناك تقديرًا للقبرصيين الذين عرضوا عليهم إقامة قاعدة للحشاشين في جزيرتهم، فأصبحت معقلًا أساسيًّا للجماعة. أظن أن ماركوس كان ضيف شرف، وقدما نخبًا ساخرًا للقراصنة الذين تسببوا دون عمد في معرفته بالطائر وماريا. بعد

الزفاف بوقتٍ قصير، عاد الحشاش وعروسه إلى مصياف حيث أنجبا ابنهما داريم.

- هل هو ابنهما الوحيد؟

- لا. بعد عامين من ولادة داريم أنجبت ماريا أخًا له، سيف.

- وماذا حدث له؟

- كل شيء في وقته يا أخي. كل شيء في وقته. لنقل الآن أن تلك الأحداث تمثل فترة مسالمة ومثمرة في حياة المعلم. قلما يتحدث عنها، كأنها عزيزة جدًّا عليه لدرجة ألا يكشفها لأحد. لكنه سجل الكثير عنها في المخطوطات. كان يقوم باكتشافاتٍ جديدة طوال الوقت، ويستقبل أسرارًا جديدة أيضًا.

- مثل ماذا؟

- لقد سجلها في مذكراته. لم يكتب فقط عن سموم جديدة، بل أدوية أيضًا. كتب عن إنجازات لم تحدث بعد، وكوارث ستقع مستقبلًا. وصف تصاميم للدروع ولأنواع جديدة من النصل الخفي، من ضمنها ما يطلق قذائف. كتب خواطر عن طبيعة الإيمان وبداية البشرية التي خرجت من رحم الفوضى، حتى فرض الإنسان النظام، ولم تفرضه عليه قوة مقدسة.

ردد مافيو بصدمة: «من رحم الفوضى؟ والنظام فرضه إنسان وليس قوة مقدسة؟».

قلت له دون لمحة تباهي بمعرفتي: «إن الحشاش يشكك في أي إيمانٍ ثابت. حتى إيمانه هو».

- وكيف هذا؟

- كتب المعلم عن التناقضات والسخرية في عقيدة الحشاشين. كيف يسعون لجلب السلام، مع ذلك يستخدمون العنف والقتل وسيلة

لتحقيقه. كيف يهدفون لفتح عقول الناس، مع ذلك تتطلب عقيدتهم طاعة معلمهم. يتحدث الحشاش عن خطورة اتباع الثوابت بشكلٍ أعمى، لكنه يطلب من أعضاء الجماعة اتباع العقيدة بلا سؤال.

كما كتب عن «الذين جاؤوا من قبل»، أصحاب الحضارة الأولى، الذين تركوا الآثار التي يسعى خلفها فرسان الهيكل والحشاشون.

- والتفاحة واحدة منها؟

- بالضبط. إنها تحمل قوة عظيمة، ويسعى خلفها فرسان الهيكل. علمته تجربته في قبرص أن الفرسان لا يحاولون فرض سيطرتهم بالطرق العادية، بل اختاروا الحيلة أسلوبًا لهم. ورأى الطائر أن هذا يجب أن يكون أسلوب الحشاشين أيضًا.

لا ينبغي للجماعة بناء حصونٍ عظيمة وأداء طقوسٍ بارزة. هذا ليس جوهر الحشاش، بل التزامه بالعقيدة. ومن سخرية الموقف أن هذا المبدأ تبناه المعلم السابق في الأساس. هذا الفكر يتحدى الأسس الثابتة، ويشجع الأعضاء على تجاوز قدراتهم وجعل المستحيل ممكنًا. تلك المبادئ طورها الطائر وحملها معه خلال سنوات تجواله في الأراضي المقدسة للعمل على استقرار الجماعة وغرس فيها القيم التي تعلمها بصفته حشاشًا. لم تفشل محاولاته لتعزيز عقيدة الحشاشين إلا في القسطنطينية. هناك في عام 1204، قامت انتفاضة عظيمة عندما ثار الشعب على الإمبراطور البيزنطي أليكسيوس. وبعدها بوقتٍ قصير اقتحم الصليبيون المدينة واستولوا عليها. وسط هذا الاضطراب لم يستطع الطائر تنفيذ خططه وانسحب. فصارت واحدة من خططه القليلة التي فشلت في ذلك العصر.

من الغريب أنه نظر إليَّ نظرةً غريبة وهو يروي هذا الجزء.

- ربما لأننا من القسطنطينية؟

- محتمل. سأفكر في تلك النقطة لاحقًا. وربما لا علاقة بين انحدارنا من القسطنطينية ومحاولته بناء قاعدة هناك.

- تقول فشله الوحيد؟

- بالتأكيد. لقد فعل الطائر الكثير لتعزيز الجماعة أكثر من أي قائد سبقه. لم يمنعه من مواصلة عمله سوى بطش جنكيز خان.

- وكيف هذا؟

- كتب الطائر عن هذا في سجل مخطوطاته منذ أربعين سنة تقريبًا. كتب عن نهضة طوفان مظلم في الشرق. يمتلك من العدد والقوة ما يكفي لزلزلة قلوب الشعوب.

سأل مافيو: «هل كان يتحدث عن إمبراطورية المغول؟ نهضة جنكيز خان؟».

- بالضبط. كان داريم في بداية العشرينيات، وصار رامي سهامٍ بارع. وهكذا اصطحبه الطائر مع ماريا وغادروا مصياف.

- لمواجهة جنكيز خان؟

- شك الطائر في أن جنكيز خان قد تقدم بفضل مساعدة أداة أثرية أخرى مشابهة للتفاحة. ربما السيف. احتاج إلى أن يتأكد من صحة الأمر، بالإضافة إلى إيقاف تقدم الخان المتواصل.

- وكيف ترك مصياف؟

- ولى مالك نائبًا مكانه. وترك سيف كذلك ليساعده في إدارة الأمور. في ذلك الوقت كان لسيف زوجة وابنتان، أما داريم فلا. لقد غابوا فترةً طويلة.

- كم؟

- عشر سنوات يا أخي. وعندما عاد إلى مصياف كان كل شيء قد تغير ولن يعود إلى سابق عهده مجددًا. هل تريد سماع ما حدث؟

- أكمِل من فضلك.

# 49

بدت مصياف على ما يرام من بعيد. لم يكن لدى الطائر أو ماريا أو داريم أدنى فكرة عما يحدث.

تقدم الطائر وماريا قليلًا راكبين جنبًا إلى جنب كما يحبان ليستمتعا بصحبة بعضهما بعضًا وبقربهما من البيت. يتواءمان مع إيقاع حصانيهما الثابت البطيء. يركبان بشموخٍ وكبرياء على الرغم من الرحلة الطويلة الشاقة. لقد تقدم بهما العمر حتى أصبحا في منتصف الستينيات، لكن لا فائدة من السير بجسدٍ متهدل. جاءا ببطء، فلقد اختارا حصانين بمعيار القوة والقدرة على التحمل، وليس السرعة. وكان كلٌّ منهما محملًا بالمؤن.

خلفهما سار داريم الذي ورث من والدته العينين البراقتين المشرقتين، وورث من والده لون البشرة والبنية الجسدية. وورث الاندفاع من كليهما. كان يود أن يسرع صاعدًا منحدرات القرية وصولًا إلى القلعة حتى يعلن عودة والديه، لكنه اكتفى بالسير متهاديًا خلفهما احترامًا لرغبة والده في وصولٍ هادئ. بين حينٍ وآخر يهش الذباب عن وجهه بسوطه، ويرى أن الركض هو أفضل وسيلة للتخلص منه. تساءل إن كان يراهم أحد من أبراج الحصن، من برج الدفاع تحديدًا.

مروا بالإسطبلات ثم عبروا البوابة الخشبية إلى السوق الذي لم يتغير. دخلا القرية حيث الأطفال ركضوا حولهم بحماس طالبين حلوى. كانوا أصغر من أن يعرفوا المعلم. أما القرويون الأكبر سنًّا فعرفوه. لاحظ الطائر أنهم شاهدوا القافلة بحرص. ليس بترحيب، بل بقلق. أداروا وجوههم كلما حاول التواصل معهم بصريًّا. ضرب القلق أحشاءه.

ها قد ظهر شخصٌ يعرفه ليقابلهم أسفل منحدرات القلعة. إنه سوامي. كان تلميذًا عندما غادر. لكنه كان مهتمًّا بالقتال أكثر من التعلم. لقد أصيب بندبة في العشر سنوات الماضية. تجعدت الندبة حين ابتسم ابتسامة واسعة، لكنها لم تصل إلى عينيه. يبدو أنه يفكر في الدروس التي سيضطر إلى احتمالها من الطائر بما أنه عاد الآن.

لكنه سيحتملها. هكذا فكر الطائر بينما يتجاوز سوامي بنظره إلى القلعة حيث رأى علمًا كبيرًا يحمل شعار الحشاشين ويرفرف مع النسيم. لقد أمر بإزالة العلم والتخلص من تلك الشعارات الفارغة. لكن من الواضح أن مالك قرر رفعه. يبدو أنه سيتلقى دروسًا هو الآخر.

ناداه سوامي بإيماءة من رأسه: «أيها الطائر، يسرنا رؤيتك مجددًا. أرجو أن تكون رحلتك مثمرة».

قرر الطائر تجاهل زلة الرجل في عدم مناداته بلقبه الصحيح. قال وهو يميل للأمام على سرجه: «كنت أبعث برسائل. ألم تُعلَم الجماعة بتقدمي؟».

تقدم داريم إلى جانبه الآخر بحيث وقف الثلاثة في خطٍ واحد ينظرون للأسفل إلى سوامي.

ابتسم سوامي بتملق وقال: «بالطبع، بالطبع. سألت من باب المجاملة وحسب».

- توقعت أن يقابلني رؤوف، فهو معتادٌ على تلبية احتياجاتي.

نظر سوامي للأرض بتفكيرٍ وقال: «رؤوف المسكين».

- أخشى أن رؤوف مات من الحمى في السنوات القليلة الماضية.

- لماذا لم يتم إعلامي؟

هز سوامي كتفيه ببساطة. حركة وقحة، كأنه لا يعرف ولا يهتم.

زم الطائر شفتيه وقرر أنه سيحصل على شرحٍ وافٍ من شخصٍ ما، إن لم يكن هذا الصعلوك.

- هيا إذًا. هل غرفنا جاهزة؟

حنى سوامي رأسه مجددًا وقال: «كلا، على ما أخشى أيها الطائر. إلى حين يمكنكم الاستقرار في حجراتكم، تلقيت أوامر باصطحابكم إلى مقرٍّ آخر في الجناح الغربي للحصن».

نظر الطائر أولًا إلى داريم الذي عبس، ثم إلى ماريا التي نظرت إليه نظرة مفادها أن يحذر. هناك شيءٌ خاطئ.

قال الطائر بحذر: «حسنًا».

نزلوا عن أحصنتهم، وأشار سوامي إلى بعض الخدم الذين تقدموا لأخذ الخيول. ثم بدؤوا يسيرون إلى بوابة القلعة. حنى الحراس رؤوسهم بسرعة. لكنهم تجنبوا النظر إلى عينَي الطائر مثل القرويين. لكن بدلًا من صعود البرج الحصين، قادهم سوامي حول المنطقة الداخلية. نظر الطائر إلى أسوار القلعة الممتدة عاليًا راغبًا في رؤية قلب الجماعة وشاعرًا بالغضب. لكن أنبأه حدسه أن ينتظر قليلًا. عندما وصلوا إلى مقر الإقامة، وجدوه مبنًى قصيرًا محفورًا في الصخر، ويعلو مدخله قوسٌ صغير، وبه سلم يقود إلى ردهة بالأسفل. كان الأثاث قليلًا، ولا يوجد أحد لتحيتهم. اعتاد الطائر على السكن المتواضع، هو مَن يطلبه

في الواقع. لكن هنا في مصياف، هو معلم الحشاشين، ويتوقع أن يكون سكنه في برج المعلم أو ما يعادله.

استدار بغضب وكان على وشك الجدال مع سوامي الذي وقف في الردهة معهم بابتسامته المتملقة. لكن ماريا أمسكت ذراعه وضغطت عليها لتمنعه.

ثم سألته: «أين سيف؟ أرسِله إلى هنا فورًا، من فضلك».

كانت تبتسم بلطف على الرغم من يقين الطائر من أنها تكرهه بكل ذرة في كيانها.

بدا سوامي آسفًا وهو يقول: «أخشى أن سيف ليس هنا. اضطر إلى السفر إلى آلموت».

- وأسرته؟

- رافقته.

نظرت ماريا إلى الطائر بقلقٍ شديد.

قال داريم بانفعال وقد أغضبته وضاعة الغرفة أكثر من والديه: «ماذا يفعل أخي في آلموت؟».

رد سوامي: «لا أعرف».

سحب الطائر نفسًا عميقًا واقترب من سوامي. لم تعد ندبة المبعوث مجعدة بعدما اختفت ابتسامته المتملقة. ربما تذكر فجأة أنه أمام الطائر، المعلم الذي لا يضاهي شيءٌ مهارته في القتال إلا شدته في التعليم.

زمجر الطائر قائلًا: «أخبر مالك فورًا أنني أريد رؤيته. أخبره أنه سيشرح لي الكثير».

ابتلع سوامي ريقه وهو يلوح بيديه بأسلوبٍ مسرحي ويقول: «مالك في السجن يا سيدي».

تفاجأ الطائر وسأله: «في السجن؟ لماذا؟».

- غير مسموح لي بالقول يا سيدي. سينعقد اجتماع المجلس صباح الغد.

- ماذا؟

- بعد سجن مالك، شُكِّل مجلس للإشراف على الجماعة وفقًا لقوانين الأخوية.

هذا صحيح ولكن لماذا؟ انقبض قلب الطائر.

- ومَن يرأس المجلس؟

- عباس.

عندها نظر الطائر إلى ماريا بقلقٍ حقيقي، فمدت يدها إلى ذراعه.

سأله الطائر بهدوء ينافي العاصفة التي بداخله: «ومتى أقابل هذا المجلس؟».

- غدًا يود المجلس سماع أخبار رحلتك وإبلاغك بأمور الجماعة.

قال الطائر بحزم: «وبعد ذلك سيتم حل المجلس. أخبر مجلسك أننا سنجتمع عند شروق الشمس. أخبرهم بمراجعة القوانين. لقد عاد المعلم، ويريد استعادة القيادة».

انحنى سوامي وغادر.

انتظرت الأسرة حتى غادر قبل أن يُظهروا مشاعرهم الحقيقية. استدار الطائر إلى داريم وقال بعجل: «سافر إلى آلموت. أحضِر سيف إلى هنا. نحن نحتاج إليه بشدة الآن».

# 50

في اليوم التالي، كان الطائر وماريا على وشك الذهاب من مقرهما إلى البرج الرئيسي حين قاطعهما سوامي الذي أصر على أن يقودهما عبر البرج الحصين بنفسه. في أثناء سيرهما بمحاذاة السور، تساءل الطائر لماذا لا يسمع أصوات المبارزة والتدريب المعتادة على الجانب الآخر. وحصل على الإجابة عندما وصل إلى الساحة.

لأنه لا يوجد مبارزة أو تدريب. أصبحت المناطق الداخلية للقلعة مهجورة، بعدما كانت تعج بالنشاط والحياة، ويتردد فيها صليل السيوف وهتاف المدربين وتوبيخهم. نظر حوله إلى الأبراج المطلة عليهم، ورأى نوافذ سوداء. نظر حراس الأسوار إليهم بفتور. لقد اختفى مقر التنوير والتدريب، ومعقل معرفة الحشاشين. اكفهرَّ الطائر بينما كان على وشك التوجه إلى البرج الرئيسي، لكن سوامي قاده إلى السلم المؤدي إلى غرفة الدفاع ثم إلى البهو الرئيسي.

هناك اجتمع المجلس. عشرة رجال يجلسون على جانبي طاولة يترأسها عباس، وهناك كرسيان خشبيان بظهرٍ عالٍ للطائر وماريا. جلسا. ولأول مرة منذ دخوله القاعة، نظر الطائر إلى عباس، خصمه القديم. هذه المرة رأى فيه شيئًا غير الضعف والغضب. رأى منافسًا. ولأول مرة منذ تلك الليلة التي جاء فيها أحمد إلى غرفته وقتل نفسه، لم يعد الطائر يشفق على عباس.

نظر الطائر إلى باقي أعضاء الطاولة. كما ظن تمامًا، إن المجلس الجديد مكون من أضعف الأعضاء عقلًا، وأسهلهم إقناعًا. هؤلاء مَن يفضل الطائر طردهم. كلهم انضموا للمجلس، أو جنَّدهم عباس فيه. أبرز ما فيهم كان فاريم، والد سوامي، الذي شاهده من تحت قلنسوته بينما تبرز ذقنه إلى صدره المنتفخ. لاحظ الطائر بازدراء أنهم قد أصبحوا بدينين.

قال عباس: «مرحبًا أيها الطائر. أنا واثق أنني أتحدث بلساننا جميعًا حين أقول إنني متشوق لسماع أخبار نجاحاتك في الشرق».

مالت ماريا للأمام لتحدثه: «من فضلك يا عباس. قبل أن نحكي عن أسفارنا، نود بعض الإجابات. لقد تركنا مصياف في حالٍ ممتازة. لكن يبدو أن الوضع قد تدهور».

ابتسم عباس قائلًا: «**تركنا** مصياف في حالٍ ممتازة؟». لم ينظر إلى ماريا. في الواقع لم يرفع عينه عن الطائر. كان الاثنان ينظران إلى بعضهما بكراهية واضحة عبر الطاولة. «عندما غادرتم مصياف كان للأخوية قائد واحد كما أذكر. أما الآن فيبدو أن هناك اثنين».

حذرته ماريا: «حذارِ والإساءة حتى لا تخسر الكثير».

ضحك عباس وقال: «الإساءة؟ من فضلك أيها الطائر، فلتخبر تلك الكافرة أنه لا يحق لها الحديث إلا إذا خاطبها أحد أعضاء المجلس مباشرةً».

صاح الطائر بغضب ونهض بعنفٍ عن كرسيه الذي سقط على الأرض. وضع يده على مقبض سيفه، لكن تقدم حارسان فورًا شاهرين سيفيهما.

قال عباس آمرًا: «يا حراس، خذا سلاحه. سوف تكون أكثر راحة دونه أيها الطائر. هل ترتدي نصلك؟».

فرد الطائر ذراعيه بينما يتقدم حارس ليأخذ سيفه. لم يكن يرتدي نصله الخفي.

قال عباس: «الآن يمكننا البدء. من فضلك، لا تهدر وقتنا أكثر. أبلغنا عن سعيك في تحييد الخان».

زمجر الطائر قائلًا: «بمجرد أن تخبرني ماذا حدث لمالك».

هز عباس كتفيه ورفع حاجبيه كأنه يقول إنهما في طريقٍ مسدود. كلا الرجلين يرفض التنازل. زفر الطائر باستياء وبدأ يحكي قصته بدلًا من تضييع الوقت. روى رحلاته إلى فارس والهند ومنغوليا، حيث هو وماريا وداريم عززوا التعاون مع الحشاش كولان غال. وروى عن سفره إلى مقاطعة شيا بالقرب من شينج بينج التي حاصرها جيش المغول. إن توسع إمبراطورية المغول لا يتوقف. هناك خَطط الطائر وكولان غال لاختراق معسكر المغول، لأنه كان يقال إن الخان هناك أيضًا.

- وجد داريم نقطة تصلح للمراقبة ليست بعيدة عن المعسكر. وهكذا تسلح بقوسه وراقبني أنا وكولان غال بينما نشق طريقنا عبر الخيام. كان المعسكر شديد الحراسة، فاعتمدنا عليه في التخلص من أي حارس ينتبه إلينا أو يوشك على قرع جرس الإنذار.

ثم دار بعينيه حول الطاولة بنظرةٍ متحدية وهو يضيف: «ولقد قام بواجبه على أكمل وجه».

قال عباس بنبرةٍ ساخرة: «هذا الشبل من ذاك الأسد».

قال الطائر: «ربما لا. فأنا من كدت أكشف وجودنا للمغول».

قال عباس: «إنه ليس معصومًا إذًا».

- لا أحد كذلك يا عباس، وأولهم أنا. لقد سمحت لجندي عدو بالاقتراب مني. واستطاع أن يجرحني قبل أن يقتله كولان غال.

قال عباس ساخرًا: «هل يتقدم بك العمر؟».

رد الطائر: «الجميع كذلك. كنت سأموت لو لم يتمكن كولان غال من إخراجي بسلام من المعسكر. لقد أنقذ حياتي». نظر بتمعنٍ إلى عباس وواصل: «عاد كولان غال إلى المعسكر. أولًا وضع خطة مع داريم لاستدراج الخان خارج خيمته. عندما شعر الخان بالخطر، حاول الهروب على حصانه، لكن كولان غال أسقطه، وداريم قتله بسهم».

ابتسم عباس وقال: «يبدو أن مهارته في الرماية لا شك فيها. عرفت أنك أرسلته بعيدًا. ربما إلى آلموت؟».

طرف الطائر بعينيه. إن عباس يعرف كل شيء.

- لقد غادر بناءً على أوامري. سواء إلى آلموت أو لا، لن أفصح.

واصل عباس: «ربما ليقابل سيف في آلموت؟».

ثم خاطب سوامي: «لقد أخبرتهم أن سيف هناك، صحيح؟».

رد سوامي: «كما أمرت يا سيدي؟».

شعر الطائر بشيءٍ أسوأ من القلق الآن. ربما يكون الخوف. شعرتْ به من ماريا أيضًا عندما شحب وجهها وبدا عليه التوتر.

قال الطائر: «قل ما لديك يا عباس».

- وإلا ماذا أيها الطائر؟

- أو ستكون أول مهامي حين أستعيد القيادة هو رميك في السجن.

- لأنضم إلى مالك؟

قال الطائر بغضب: «مكان مالك ليس السجن. أي تهمةٍ اتهمته بها؟».

قال عباس ساخرًا: «القتل».

وقعت الكلمة على الطاولة كالقنبلة.

سألته ماريا: «قتل مَن؟».

أتى الجواب كأنه من أعماقٍ سحيقة: «سيف. لقد قتل مالك ابنكما».

دفنت ماريا وجهها بين يديها.

- لا!

سمع الطائر شخصًا يقولها، ثم أدرك أنه صوته هو.

قال عباس كأنه يردد كلامًا يحفظه: «آسف أيها الطائر. يؤسفني أنك عدت لتسمع تلك الأخبار المأساوية. أقدم خالص التعازي لك ولأسرتك بالنيابة عن كل المجتمعين هنا. لكن إلى حين حل بعض المسائل، لن يمكنك استعادة قيادة الجماعة».

ما زال الطائر يحاول استيعاب المشاعر المستعرة بداخله، شاعرًا بوجود ماريا تبكي بجواره.

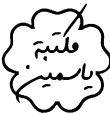
قال: «ماذا؟» ثم بصوتٍ أعلى: «ماذا؟».

- ستظل معزولًا. لقد قررت أن تبقى القيادة في يد المجلس.

ارتجف الطائر بغضبٍ وهو يقول: «أنا هو معلم الجماعة يا عباس. أطالب بإعادة القيادة إليَّ فورًا وفقًا لقوانين الأخوية. إنها تنص على عودتها إليَّ».

كان يصرخ عند هذه النقطة.

رد عباس مبتسمًا: «لا. ليس بعد الآن».




telegram @
yasmeenbook

# 51

لاحقًا جلس الطائر وماريا في مسكنهما. تعانقا بصمتٍ في الظلام بينما يجلسان على مقعدٍ حجري. قضيا سنوات ينامان في الصحراء، لكن لم يشعرا بالعزلة والوحدة مثل تلك اللحظة. حزنا على ظروفهما المؤسفة. حزنا على مصياف التي أصبحت مكانًا منسيًّا في غيابهما. كما حزنا بعمق على أسرة سيف وعلى داريم.

لكن أشد ما حزنا عليه كان سيف.

لقد مات طعنًا في سريره منذ أسبوعين فقط حسب كلامهم، لذلك لم يتسن الوقت لإرسال رسالة إلى الطائر. عثروا على السكين في سكن مالك. سمعه أحد الحشاشين يتجادل مع سيف في وقتٍ أبكر من ذلك اليوم. ما زال الطائر لم يعرف اسم الحشاش الذي سمع الجدال، لكنه قال إنه سمع سيف ومالك يتجادلان بخصوص قيادة الجماعة. وقال إن مالك كان ينوي مواصلة القيادة بعد عودة الطائر.

قال له عباس بشماتة: «أخبار عودتك هي ما أشعلت الخلاف على ما يبدو».

كان سعيدًا برؤية وجه الطائر الشاحب وبكاء ماريا الصامت.

سمع الحشاش سيف وهو يهدد مالك بكشف خطته للطائر، لذلك قتله. هذه هي النظرية التي أخرجها المجلس.

ما زالت ماريا تبكي بجانبه وهي تدفن رأسها في صدره وتضم ساقيها. ربت الطائر على شعرها وهو يهزها حتى هدأت. راقب الظلال التي تلقيها نيران المدفأة، فتتراقص على الجدران الحجرية الصفراء. واستمع إلى صوت الحشرات الليلية في الخارج، وخطوات أقدام الحراس.

بعد فترة قصيرة، استيقظت ماريا منتفضة. انتفض هو أيضًا، لقد نام دون أن يشعر بينما يراقب اللهب الراقص. جلست ترتجف فسحبت البطانية بإحكام حولها وسألته: «ماذا سنفعل الآن يا حبيبي؟».

قال: «مالك».

كان ينظر إلى الجدار بعينين شاردتين، ويتحدث كأنه لم يسمع السؤال.

سألته: «ماذا عنه؟».

- في شبابنا حين ذهبنا في مهمة هيكل سليمان، سببت له أفعالي ألمًا بالغًا.

- لكنك تعلمت من أخطائك، ومالك عرف هذا. ومنذ ذلك اليوم وُلِد الطائر من جديد وقاد الجماعة إلى العظمة.

قال الطائر بعدم تصديق: «عظمة؟ حقًّا؟».

- ليس الآن يا حبيبي. ربما هذا ليس الحال الآن، لكن يمكنك إعادتها لما كانت عليه قبل كل هذا. أنت الوحيد الذي يمكنه فعل هذا. ليس عباس. وليس أي مجلس. بل أنت أيها الطائر. الطائر الذي رأيته يخدم الجماعة لأكثر من ثلاثين عامًا. إنه الطائر الذي ولد ذلك اليوم.

لفظت اسم عباس باشمئزاز.

قال الطائر: «لقد كلفت مالك أخاه وذراعه أيضًا».

- لقد سامحك وخدمك بصفته نائبك الموثوق منذ هزيمة المعلم.

قال الطائر بخفوت: «ماذا لو كان يتظاهر؟».

رأى ظله على الجدار، مظلمًا ومنذرًا.

ابتعدت عنه وقالت: «ماذا تقول؟».

- ربما ظل يكرهني طوال تلك السنوات. ربما طمع مالك في القيادة سرًّا، وسيف اكتشف هذا.

- نعم، وربما سينمو لي جناحان وسأطير. مَن يكرهك حقًّا أيها الطائر؟ إنه ليس مالك، بل عباس.

قال الطائر: «لقد عثروا على السكين في سرير مالك».

- بل وضعوه هناك بالطبع لتثبيت التهمة عليه. ربما عباس أو أحد أتباعه. لن أندهش لو أن سوامي هو المسؤول عن هذا. وماذا عن الحشاش الذي سمع الجدال بين مالك وسيف؟ عندما سيظهر، ألا تظن أننا سنكتشف أنه أحد أتباع عباس أو أحد أبناء أعضاء المجلس؟ وماذا عن رؤوف المسكين؟ أتساءل إن كان مات بالحمى حقًّا. عيبٌ عليك أن تشك في مالك في حين أن كل الدلائل تشير إلى عباس بوضوح.

ردد كلامها: «عيبٌ عليَّ؟».

ابتعدت عنه. صمتت حشرات الليل في الخارج، كأنها سمعت جدالهما.

- عيبٌ عليَّ للشك في مالك؟ ألم أمر بتجارب سابقة مع ناس أحببتهم وانقلبوا ضدي لأسباب أضعف كثيرًا من أسباب مالك؟ أحببت عباس كأخٍ لي، وحاولت مساعدته. المعلم خان الجماعة

بأكملها، لكن أنا من كنت بمنزلة ابنه. عيبٌ عليَّ لأنني شكاك؟ الثقة هي هلاكي. الثقة في الأشخاص الخطأ.

نظر إليها بحدة، فضاقت عيناها وهي تقول: «يجب أن تدمر التفاحة أيها الطائر. إنها تتلف عقلك. هناك فارق بين أن تكون منفتح العقل وفارغ العقل».

نظر إليها وقال بابتسامةٍ حزينة: «لست واثقًا من أن تلك هي الصياغة التي كنت سأستخدمها».

- ربما لا، لكن ولو.

- عليَّ أن أعرف الحقيقة يا ماريا. عليَّ التيقن منها.

***

كان مدركًا أنهما مراقبان، لكنه حشاش، ويعرف مصياف أفضل من أي شخص. لذلك لم يكن صعبًا عليه أن يترك مسكنه ويتسلق جدار القسم الداخلي ويختفي بين ظلال المتاريس حتى يمر الحراس. نظم تنفسه. ما زال سريعًا ورشيقًا. ما زال يستطيع تسلق الجدران. لكن...

ربما ليس بالسهولة نفسها التي كان عليها. من الأفضل أن يتذكر هذا. الجرح الذي تلقاه في معسكر جنكيز خان قد أبطأه أيضًا. من الحماقة أن يبالغ في تقدير قدراته حتى يقع في المتاعب ويجد نفسه واقعًا على ظهره مثل حشرةٍ مقلوبة تحتضر بينما يسمع صوت اقتراب الحراس لأنه أخطأ في حساب القفزة. ارتاح قليلًا قبل أن يواصل طريقه أعلى السور من غرب القلعة إلى مجمع البرج الجنوبي. ظل مختفيًا عن الحراس طوال الطريق حتى وصل إلى البرج، ثم نزل إلى الأرض. اتجه إلى دكاكين الحبوب حيث يوجد سلم حجري يقود إلى مجموعة من الأنفاق السفلية.

توقف وأرهف السمع بينما يلصق ظهره بالجدار. سمع جريان ماء في القنوات الصغيرة الممتدة في الأنفاق. أقبية الأخوية ليست بعيدة. إنها نادرًا ما تستخدم. كان يمكن أن يجعلوها مخازن لولا الرطوبة. توقع الطائر أن يكون مالك هو المسجون الوحيد.

تسلل حتى رأى حارسًا. كان يجلس في النفق ويتكئ بظهره على جدار منطقة السجن بينما تتدلى رأسه في نومه. كان الطائر على مسافةٍ من الزنازين، فلم تكن في مدى نظره. لذلك لم يعرف ماذا يحرس بالضبط. وجد الطائر نفسه يشعر بالغضب والراحة في آنٍ واحد من تراخي الحارس. تجاوزه بصمت، وعرف لماذا يجلس الحارس على مسافة بعيدة.

بسبب الرائحة الكريهة. من بين الزنازين الثلاثة، كانت الوسطى فقط هي المغلقة، فذهب إليها الطائر. لم يعرف ما سيراه على الجانب الآخر من القضبان، لكنه كان واثقًا مما سيشم، فغطى أنفه.

رأى مالك متكورًا بين القش المفروش على الأرض الحجرية، ولم يحاول حتى تغطية بوله به ليمتصه. أصبحت ملابسه خرقًا بالية، فصار أشبه بشحاذ. أصبح هزيلًا، ورأى الطائر ضلوعه بارزة تحت قميصه الممزق. جحظت عظام خداه، وطال شعره، ونمت لحيته.

من المؤكد أنه ملقى في هذه الزنزانة منذ أكثر من شهر.

ضم الطائر قبضتيه وهو ينظر إلى مالك. كان قد نوى أن يتحدث معه لمعرفة الحقيقة، لكن الحقيقة واضحة في ضلوعه البارزة وملابسه الممزقة. منذ متى وهو مسجون؟ منذ مدة كافية لإرسال رسالة إلى الطائر وماريا. منذ متى تُوفِّي سيف؟ لم يرغب الطائر في التفكير في هذا. كل ما يعرفه الآن هو أنه لن يترك مالك هنا لحظة أخرى.

عندما فتح الحارس عينيه رأى الطائر واقفًا أمامه، ثم أغمي عليه. وعندما استيقظ وجد نفسه محبوسًا في زنزانة تفوح برائحة البول العفنة، ويهتف طلبًا للمساعدة بلا فائدة. أما الطائر ومالك فاختفيا منذ وقتٍ طويل.

***

هل يمكنك السير يا صديقي؟

نظر إليه مالك بعينين زائغتين ممتلئتين بالألم. وعندما ركز على الطائر أخيرًا، نظر إليه بامتنانٍ وارتياح. بدا صادقًا لدرجة أن أي ذرة شك في عقل الطائر قد تبددت.

قال مالك وهو يحاول الابتسام: «أستطيع السير لأجلك».

لكن بينما يشقان طريقهما عبر النفق، بات واضحًا أن مالك لا يملك القوة للسير. فأخذ الطائر ذراعه السليمة ووضعها حول كتفيه وحمل صديقه إلى سلالم البرج ثم عبْر السور. وأخيرًا نزل على الجدار الغربي للقلعة متجنبًا الحراس، حتى وصلا في النهاية إلى المسكن. نظر الطائر إلى الجهتين قبل أن يدخل.

# 52

أرقدا مالك على سريرٍ من القش، وجلست ماريا بجانبه لتساعده على ارتشاف بعض الماء.

لهث قائلًا: «شكرًا».

استعادت عيناه بعض الصفاء، ونهض جالسًا على السرير. بدا محرجًا من اقتراب ماريا، كأن عنايتها به يقلل من احترامه للطائر.

ضاقت الغرفة بثلاثتهم، وبدت كأنها ستضيق أكثر حتى تنطبق عليهم.

سأله الطائر: «ماذا حدث لسيف؟».

رد مالك: «قُتِل. قام عباس بانقلاب منذ عامين. قتل سيف ثم وضع سلاح الجريمة في غرفتي. وأقسم حشاش آخر أنه سمعني أتجادل مع سيف. فأقنع عباس الجماعة أنني المسؤول عن مقتل سيف».

تبادل الطائر وماريا النظرات. ابنهم ميت منذ عامين. شعر الطائر بالغضب يستعر في أعماقه، وبذل جهده ليكبحه ويمنع نفسه من أن يستدير ويغادر عائدًا إلى الحصن ويطعن عباس ثم يشاهده يتوسل طلبًا للرحمة بينما ينزف حتى الموت.

وضعت ماريا يدها على ذراعه شاعرةً بألمه وتشاركه إياه.

قال مالك: «أنا آسف. لم أستطع إرسال رسالة وأنا في السجن. بالإضافة إلى أن عباس يتحكم بكل الاتصالات داخل وخارج الحصن.

لا شكَّ في أنه انشغل بتغيير الكثير من القوانين لمصلحته خلال فترة سجني».

قال الطائر: «نعم. يبدو أن أتباعه في المجلس».

قال مالك: «آسف أيها الطائر. كان عليَّ توقع خطط عباس. لقد ظل يعمل على التقليل مني لسنوات بعد مغادرتك. لم أعرف أنه يمتلك كل هذا الدعم. ما كان هذا ليحدث لقائدٍ قوي. ما كان ليحدث لك».

قال الطائر: «لا تُتعب نفسك. استرح يا صديقي».

أشار إلى ماريا وذهبا للغرفة المجاورة. جلست ماريا على مقعدٍ حجري وجلس الطائر على كرسي عالي الظهر.

سألته ماريا: «هل تعرف ما عليك فعله؟».

رد الطائر: «يجب أن أدمر عباس».

قالت بإصرار وهي تنظر في عينيه: «لكن ليس بدافع الانتقام يا حبيبي. بل لأجل الجماعة. لصالح الأخوية. لتسترجعها وتعيدها لعظمتها. لو استطعت أن تفعل هذا بالإجراءات المتبعة وليس بالانتقام، ستحبك الجماعة وسيرونك أبًا يريهم الطريق الصحيح. لكن لو انجرفت بالغضب والانفعال، فكيف تتوقع منهم أن يستمعوا إليك عندما تعلمهم الأسلوب الآخر؟».

قال الطائر بعد لحظة صمت: «أنتِ محقة. ماذا نفعل إذًا؟».

- يجب أن نواجه عباس. يجب أن نبطل الاتهام الخاص بقاتل ابننا. ستضطر الجماعة لقبول هذا، وسيُجبر عباس على الامتثال.

- ستكون كلمة مالك مقابل كلمة عباس ورجله أيًّا من كان.

- شخص خبيث مثل عباس سيكون رجله أقل موثوقية بالتأكيد. الأخوية سوف تصدقك يا حبيبي. سيريدون تصديقك. أنت الطائر

العظيم. إن قاومت رغبتك في الانتقام، واستعدت الجماعة بوسائل شريفة وليست خاطئة، عندها ستكون القواعد التي ترسيها أكثر قوة.

نهض الطائر قائلًا: «سأقابله الآن».

تأكدا أن مالك قد نام ثم غادرا وأخذا مشعلًا. التفَّ ضباب الصباح حول أقدامهما بينما يسيران بسرعة حول المنطقة الداخلية من الخارج، ثم إلى البوابة الرئيسية. خلفهما منحدرات مصياف. كانت القرية خالية وصامتة. لم تستيقظ من سُباتها بعد. نظر إليهما حشاش حارس ناعس بلامبالاة وقحة. شعر الطائر بنفسه يكبح غضبه بصعوبة، لكنهما تجاوزا الرجل وصعدا البرج الحصين ثم ذهبا إلى الساحة الرئيسية.

رن جرس.

لم يرن بإشارةٍ يعرفها. رفع مشعله ونظر حوله. ما زال الجرس يرن. ثم شعر بحركة داخل الأبراج المطلة على الساحة. حثته ماريا على المواصلة حتى وصلا إلى السلم الذي يقود إلى المنصة خارج برج المعلم. استدار الطائر ورأى حشاشين بعباءات بيضاء يحملون مشاعل ويدخلون الساحة خلفهما، لقد استدعاهم صوت الجرس الذي توقف عن الرنين فجأة.

قال الطائر لحارس البرج: «أريد رؤية عباس».

كان صوته عاليًا وهادئًا في سكون الليل. نظرت ماريا خلفها وشهقت، فاستدار الطائر ليرى ما الأمر. شهق مثلها. كان الحشاشون مجتمعين. كلهم ينظرون إليه وإلى ماريا. تساءل للحظة إن كانوا مغيبين، لكن لا. فالتفاحة بأمانٍ معه، مخفية في ردائه، وفي حالة سكون. هؤلاء الرجال ينتظرون.

لماذا؟ شعر الطائر بأنه سيُكتشف قريبًا.

انفتح باب البرج ووقف عباس أمامهما.

شعر الطائر بالتفاحة. كانت مثل شخصٍ ينغز ظهره. ربما تذكِّره بوجودها.

سار عباس بخيلاء على المنصة وقال: «من فضلك، فسِّر لنا لماذا اقتحمت زنازين الجماعة».

كان يخاطب الجمع المنتظر كما يخاطبه هو وماريا. نظر الطائر خلفه ورأى الساحة مزدحمة. بدت مشاعل الحشاشين مثل كرات لهب معلقة في الظلام.

إذًا، أراد عباس أن يبطل مصداقيته أمام الجماعة. لكن ماريا كانت على حق، إنه لا يقدر على هذه المهمة. كل ما فعله هو تسريع نهايته.

قال الطائر: «أردت توضيح الحقيقة حول مقتل ابني».

ابتسم عباس وقال: «حقًّا؟ هل أنت واثق من أنك لم تسعَ للانتقام؟».

وصل سوامي وصعد السلم إلى المنصة. كان يحمل شيئًا في جوال ناوله إلى عباس الذي أومأ. نظر الطائر إلى الجوال بحذر وقلبه ينبض بعنف. وكذلك ماريا.

نظر عباس داخل الجوال ورسم على وجهه نظرة قلقٍ زائفة وهو يرى ما بالداخل. ثم مد يده بأسلوبٍ مسرحي وتوقف للحظةٍ ليستمتع بقشعريرة الترقب التي سرت بين الجموع كالرجفة.

قال وهو يسحب رأسًا مقطوعًا: «مالك المسكين».

كان جلد العنق ممزقًا ويقطر دمًا طازجًا، والعينان تنظران للأعلى، واللسان متدلٍ قليلًا.

تقدم الطائر صارخًا: «**لا!**».

أشار عباس إلى الحراس الذين أسرعوا وأمسكوا الطائر وماريا. جردوا الطائر من أسلحته وكبَّلوا يديه خلف ظهره.

أسقط عباس الرأس في الجوال ورماه جانبًا ثم قال: «سمعك سوامي تخطط مع تلك الكافرة لقتل مالك. مؤسف أننا لم نستطع الوصول إلى مالك في الوقت المناسب لمنع هذا».

هتف الطائر: «لا! أكاذيب! ما كنت لأقتل مالك أبدًا».

جذب ذراعه من الحراس وأشار إلى سوامي وقال: «إنه يكذب».

قال عباس: «وهل حارس السجن يكذب أيضًا؟» الحارس الذي رآك تسحب مالك من زنزانته. لماذا لم تقتله وقتها هناك أيها الطائر؟ هل أردت أن تجعله يعاني أولًا؟ هل أرادت زوجتك الإنجليزية أن تعذبه بنفسها من باب الانتقام؟».

قاوم الطائر وهتف: «أنا لم أقتله أصلًا. لقد عرفت منه أنك أنت من أمرت بقتل سيف».

فجأة أدرك الحقيقة. نظر إلى سوامي ورأى نظرته الساخرة، فعرف أنه مَن قتل سيف. شعر بالتفاحة على ظهره. يمكنه أن يقضي بها على كل مَن بالساحة. يمكنه قتل كل الخونة. عندها سيشعرون جميعًا بغضبه.

لكن لا. لقد وعد نفسه بألا يستخدمها وهو غاضبٌ أبدًا. ووعد ماريا بأنه لن يسمح للانتقام بتشويش تفكيره.

قال عباس: «أنت مَن خرقت العقيدة أيها الطائر، وليس أنا. أنت لا تستحق قيادة الجماعة. ولهذا فأنا سأتولاها بنفسي».

قال الطائر ساخرًا: «لا تستطيع فعل هذا».

- بلى.

نزل عباس عن المنصة ومد يده إلى ماريا وجذبها. وفي الوقت نفسه أخرج خنجرًا ووضعه على عنقها. تجهمت ماريا وقاومت وهي تسبه حتى نغزها بطرف الخنجر وسالت بعض دمائها، فسكنت. نظرت إلى عينَي الطائر من فوق ذراع عباس لترسل له رسالة. كانت تعرف أن التفاحة ستناديه. هي أيضًا أدركت أن سوامي قتل سيف. وهي أيضًا تتمنى الانتقام مثل الطائر. لكنها توسلت إليه بنظرتها أن يبقى هادئًا.

قال عباس: «أين التفاحة أيها الطائر؟ أرني إياها أو سأشق عنق الكافرة».

قال الطائر مخاطبًا الحشاشين خلفه: «أسمعتم هذا؟ هل سمعتم كيف يخطط لسلب القيادة؟ إنه يريد التفاحة للتحكم في عقولكم وليس لتنويرها».

أصبحت التفاحة تحرق ظهره الآن.

كرر عباس: «أخبرني أيها الطائر».

دفع الخنجر أكثر. تعرف الطائر على الخنجر. كان لوالد عباس. لقد استخدمه أحمد لنحر عنقه في غرفة الطائر منذ زمنٍ طويل. وهو الآن مُسلط على عنق ماريا.

كافح للسيطرة على نفسه، بينما يجذب عباس ماريا على المنصة محدثًا الحشد: «هل نأتمن الطائر على قطعة عدن؟».

سمع همهمات مترددة من الحشد، فواصل: «الطائر الذي يتبع انفعالاته بدلًا من عقله؟ ألا يجب أن يكون مرغمًا على تسليمها بدلًا من اللجوء لكل هذا؟».

لوى الطائر عنقه ليلقي نظرة خلفه. كان الحشاشون يتململون في حركتهم ويتحدثون فيما بينهم. من الواضح أنهم ما زالوا مصدومين

من تغيير الأحداث المفاجئ. نظر إلى الجوال ثم إلى سوامي. كان رداؤه مخضبًا بالدماء، كأنه تلقى دفعة قوية من الدماء. دماء مالك. كان سوامي مبتسمًا، فتجعدت ندبته. تساءل الطائر إن كان قد ابتسم هكذا حين طعن سيف.

قال الطائر: «يمكنك أخذها. يمكنك أن تأخذ التفاحة».

هتفت ماريا: «لا أيها الطائر».

سأله عباس وهو ما زال في آخر المنصة: «أين هي؟».

قال الطائر: «معي».

بدا عباس قلقًا. جذب ماريا أقرب ليستخدمها كدرع. سالت الدماء من المكان الذي نغزها فيه بالخنجر. أومأ عباس للحراس فأرخوا قبضتهم عن الطائر الذي مد يده إلى التفاحة وأخرجها من ردائه.

مد سوامي يده إليها، ولمسها.

ثم بصوتٍ شديد الخفوت بحيث لا يسمعه أحدٌ سوى الطائر، قال: «أخبرت سيف أنك مَن أمرت بقتله. لقد مات وهو يظن أن والده خانه».

توهجت التفاحة وفشل الطائر في التحكم بنفسه. فجأة تصلب جسده وجحظت عيناه.

ثم مال رأسه جانبًا وأخذ جسده يتحرك ويتلوى كأنه تلبَّسه شيءٌ ما. فغر فاه، لكن لم يخرج كلام. تألق فمه من الداخل بلونٍ ذهبي، ثم تلوى لسانه. أجبرته التفاحة على التراجع. وشاهده الجميع يرفع يديه إلى وجهه ويمزق جلده ويحفر جروحًا غائرة بأظافره. سال دمه من جروحه، مع ذلك واصل خدش نفسه، كأنه يعجن عجينة. مزق خديه حتى أزال جزءًا من اللحم. وجذب إحدى أذنيه حتى تدلت على جانب وجهه.

شعر الطائر بالقوة تندفع في جسده. كأنها خرجت من التفاحة وسرت في عروقه. كأنها تتغذى على كراهيته ورغبته في الانتقام، ثم تنتقل من التفاحة إلى سوامي. شعر الطائر بكل هذا كمزيج عجيب من المتعة والألم، مزيج كاد يشعره بالدوار وبأن رأسه على وشك الانفجار. كان ذلك الإحساس رائعًا ورهيبًا في الوقت نفسه.

رائع ورهيب لدرجة أنه لم يسمع ماريا وهي تصرخ به.

لم يشعر بأنها تملصت من عباس وأسرعت إليه عبر المنصة.

في الوقت نفسه سحب سوامي خنجرًا من غمده وأخذ يجرح نفسه بحركات عنيفة قوية. فتح جروحًا في وجهه وجسده، وظل يصيب نفسه بينما وصلت ماريا إليهما لتحاول باستماتة إيقاف الطائر عن استخدام التفاحة. لم يكن لدى الطائر سوى ثانية ليدرك ما سيحدث، لكنه لم يستطع منعه في الوقت المناسب. رأى سوامي يلوح بخنجره، ورأى عنق ماريا مكشوفًا. وفجأة دارت واندفع الدم من عنقها. انهارت على الأرض وذراعاها مفرودتان. تقطعت أنفاسها والدم ينتشر حولها بسرعة. ارتفعت كتفاها بشهقة طويلة متقطعة، وارتجفت يدها فاصطدمت بحاجز المنصة الخشبي.

في الوقت نفسه سقط سوامي وارتطم سيفه بالأرض بجلجلة. توهجت التفاحة بقوة مرة أخيرة ثم خبت. انهار الطائر على ركبتيه بجوار ماريا وأمسك كتفيها وأدارها نحوه.

نظرت إليه بجفنين مرتجفين وقالت: «كن قويًّا».

ثم ماتت.

خيم الصمت على الساحة. لم يُسمع صوت سوى بكاء الطائر بينما يضم ماريا إليه. أصبح رجلًا محطمًا.

سمع عباس ينادي: «خذوه يا رجال».

نهض واقفًا. رأى من بين دموعه الحشاشين يندفعون نحو المنصة. كان الخوف مرتسمًا على وجوههم. ما زال يحمل التفاحة. بدا الحشد مضطربًا. سحب معظمهم سيوفهم، على الرغم من معرفتهم بعدم جدوى هذا المعدن ضد التفاحة، فالهرب أفضل. اجتاحته فجأة رغبة قوية، تكاد تكون ساحقة. تحثه لاستخدام التفاحة لتدمير كل ما يراه، بما فيهم نفسه. لأن ماريا ماتت بسببه، وهي كانت نور حياته. في لحظةٍ واحدة، لحظة غضبٍ أعمى، دمر أغلى ما يملك.

توقف الحشاشون. هل سيستخدم الطائر التفاحة؟ استطاع أن يرى التساؤل في أعينهم.

صرخ عباس: «اقبضوا عليه!». فتقدموا بحذر.

بدا الحشاشون حول الطائر مترددين بشأن الهجوم أم التراجع، فركض هاربًا.

صرخ عباس: «أيها الرماة!».

أطلق الرماة سهامهم بينما يركض الطائر خارج الساحة. انهالت السهام عليه، وأصاب أحدها ساقه. جاء المزيد من الحشاشين يركضون من اليمين واليسار، وعباءاتهم ترفرف حولهم وسيوفهم مرفوعة. ربما أدركوا أن الطائر لن يستخدم التفاحة مجددًا، فقفزوا من فوق الأسوار لينضموا إلى المطاردة. واصل الطائر الهروب حتى وصل إلى القوس الحجري ووجده مسدودًا. استدار عائدًا وتجاوز اثنين من الحشاشين بسرعةٍ خارقة. لوح أحدهما بسيفه وجرح ذراعه. صرخ بألم لكنه واصل الركض عالمًا أنهما كانا يستطيعان النيل منه. لقد فاجأهما، لكنهما كانا خائفين من مهاجمته، أو مترددين.

استدار مجددًا، لكن هذه المرة اتجه إلى برج الدفاع. رأى فيه الرماة يستعدون للتصويب. كان يعلم أنهم الأفضل، لأنهم تدربوا على يد الأفضل. لذلك لا يخطئون أبدًا. ليس إن كان لديهم الوقت للتصويب والإطلاق.

ما عدا أنه يعلم بالضبط متى سيطلقون. كان يعلم أنهم يحتاجون إلى ثانية لتحديد هدفهم، وثانية أخرى للثبات والتنفس، ثم...

يطلقون.

دار وتدحرج. انهال وابل من السهام على البقعة التي قفز منها للتو. أخطأته كلها ما عدا واحدًا. صوب أحد الرماة إلى ذراعه، لذلك عندما تحرك جرح السهم خده. سال الدم على وجهه بينما يصل إلى السلم ويصعد إلى الطابق الأول حيث يوجد رامٍ تفاجأ وتردد في سحب سيفه. جذبه الطائر من مكمنه وقذفه إلى الأرض. سوف يعيش.

تسلق الطائر السلم التالي. كان يتألم بشدة وينزف بغزارة. وصل إلى قمة البرج الذي قفز منه منذ زمنٍ طويل. كان يشعر بالخزي وقتها، مثلما يشعر به الآن. قفز إلى المنصة البارزة بينما يتسلق الرجال البرج خلفه. فرد ذراعيه.

وقفز.

# 53

## 10 أغسطس 1257

أراد الطائر نشر عقيدة الحشاشين، تلك هي خطته. ليس نشرها فقط، بل تأسيس قاعدة للجماعة في الغرب.

عيبٌ عليَّ أن أستغرق كل هذا الوقت حتى أفهم. لكن بما أنني فهمت، بدا واضحًا لنا (بالأخص لي على ما يبدو) أنه يأتمننا على روح الأخوية. إنه يمرر الشعلة لنا.

تلقينا أخبارًا أن جيش المغول يقتربون من القرية، لذلك رأى أنه من الأفضل أن نغادر قبل بدء القتال. أما مافيو بالطبع فرأى أنه من المثير مشاهدة القتال. وأنا شعرت أنه يفضل البقاء. لقد تبدد حبه للترحال. بدا أن أدوارنا قد انعكست الآن. فأنا من يود الرحيل حاليًّا. إما أنني أشد جبنًا منه، أو أن لديَّ فكرة أكثر واقعية عن أهوال الحرب الحقيقية، وهذا لأنني أتفق مع الطائر. مصياف تحت الحصار ليست المكان المناسب لنا.

في الواقع، أنا مستعد للذهاب، سواء وصل المغول أو لا. فقد اشتقت للوطن ولياليه الدافئة. اشتقت لعائلتي، زوجتي وابني ماركو. سيتم عامه الثالث خلال بضعة أشهر. ويؤلمني أنني لم أره سوى أقل القليل في سنواته الأولى. لقد فاتتني خطواته الأولى وكلماته الأولى.

باختصار، أشعر أن وقتنا في مصياف قد وصل إلى نهايته الطبيعية. قال المعلم أنه يريد مقابلتنا، وأن هناك شيئًا لا بدَّ أن يعطينا إياه في حضرة حشاشين آخرين. إنه شيء يجب إخفاؤه في مأمن بعيدًا عن يد العدو، سواء المغول أو فرسان الهيكل. هذا هو ما قادتنا إليه حكاياته. لديَّ شكوكي بخصوص هذا الشيء الثمين. سوف نرى.

في الوقت الراهن، مافيو يتحرق شوقًا لسماع باقي القصة، بما أننا اقتربنا من النهاية. انزعج حين أخبرته أنني سأقفز بزمن الحكاية للأمام. من اللحظة التي قفز فيها الطائر من سور القلعة شاعرًا بالخزي والانهيار إلى عشرين عامًا لاحقًا. وليس في مصياف، بل في بقعة في الصحراء على بُعد يومين بالخيل.

إلى صحراء قاحلة وقت الغروب، مهجورة تمامًا إلا من رجل على حصان يقود حصانًا آخر محملًا بالأباريق والأغطية.

بدا الراكب عن بُعد مثل تاجر مع بضاعته. وعن قرب كان كذلك بالفعل. تاجر منهك بدين يتعرق تحت عمامته، واسمه مخلص.

لذلك عندما رأى مخلص عين ماء عن بُعد، قرر أن يعسكر هنا ويرتاح. كان يتمنى أن يصل إلى دياره دون توقف، لكن لا خيار لديه، فقد كان مرهقًا تمامًا. على مدار الرحلة كان إيقاع الركوب ينومه، فيميل رأسه على صدره وتغمض عيناه. صارت مقاومة النوم أصعب. وكل مرة ينومه اهتزاز الركوب، تدور معركة بين عقله وقلبه. جف حلقه وثقل رداؤه. كل عظمة وكل عضلة في جسده كانت تئن بالتعب. لهذا أغرته فكرة الشرب والاستلقاء فاردًا ثوبه حوله بضع ساعات حتى يستعيد بعض طاقته قبل مواصلة الرحلة إلى دياره في مصياف.

لكن سبب تردده وخوفه من الوقوف هو الكلام الذي سمعه عن قطاع طرق. لصوص يتربصون بالتجار لسرقة بضائعهم وقتلهم. مجموعة

سارقين يقودهم قاتل يدعى فهد، لا يضاهيه في شراسته الأسطورية إلا ابنه بايهاس.

يقولون إن بايهاس يعلق ضحاياه مقلوبين قبل أن يشقهم من الحلق إلى البطن، ثم يتركهم يموتون ببطء ويدع الكلاب المتوحشة تلتهم أحشاءهم المتدلية للخارج. بايهاس يفعل هذا وهو يضحك.

يفضل مخلص أن تظل أحشاؤه داخل جسده. وليست لديه نية في تسليم كل بضاعته لقطاع الطرق. فالأوضاع في مصياف صعبة وتزداد صعوبة. القرويون مجبورون على دفع ضرائب أعلى للقلعة. قيل لهم أن تكلفة حماية القرية في ارتفاع مستمر. السيد لا يرحم في طلب الضرائب من الناس، وأحيانًا يرسل فرقًا من الحشاشين إلى القرية ليجبروهم على الدفع. ومَن يرفض يُضرب ثم يُطرد من القرية ليبحث عن قرية أخرى تقبله أو يقع تحت رحمة قطاع الطرق الذين يسكنون السهول الصخرية المحيطة بمصياف، ويصبحون أكثر جرأة في غاراتهم على المسافرين. في الماضي كان الحشاشون -أو سمعتهم على الأقل- يحمون طريق التجارة. ليس بعد الآن على ما يبدو.

لذلك فعودة مخلص إلى الوطن خالي الوفاض عاجزًا عن دفع ضريبة العُشر التي فرضها عباس على التجار وضريبة الحماية التي فرضها على الأهالي، تعني المخاطرة بطرده مع عائلته خارج القرية؛ هو وزوجته علياء وابنته ندى.

كان يفكر في كل هذا بينما يقترب من عين الماء، وما زال مترددًا بين الوقوف أو الاستمرار.

رأى حصانًا يقف تحت شجرة تين ضخمة تطل على عين الماء، فتوفر ظلًّا باردًا وحماية وتغريه بالاقتراب. لم يكن الحصان مربوطًا، لكن الغطاء على ظهره يدل على أن له صاحب. غالبًا مسافر زميل

توقف ليشرب ويملأ قواريره أو ينام ويستريح مثلما أراد مخلص. شعر مخلص بالتوتر بينما يقترب من عين الماء. أحست فرسه بقرب الماء، فأطلقت خنفرة شاكرة. فاضطر إلى جذب لجامها حتى لا تذهب إلى البئر حيث رأى شخصًا نائمًا. كان يضع رأسه على حقيبته ويلف رداءه حوله ويرفع قلنسوته على رأسه ويشبك ذراعيه على صدره. لم يظهر من وجهه إلا القليل، لكن لمح مخلص جلده البني الذابل المجعد المليء بالندوب. كان رجلًا عجوزًا في أواخر السبعينيات أو أوائل الثمانينيات. نظر إلى وجهه بتمعن وانبهار، حتى فتح عينيه فجأة.

تراجع مخلص قليلًا بدهشةٍ وخوف. كانت عينا العجوز حادتين ويقظتين. ظل ساكنًا تمامًا. أدرك مخلص أن الغريب لم يخف منه مطلقًا، على الرغم من أنه أصغر منه بكثير.

مال مخلص برأسه وقال بصوتٍ مرتجف قليلًا: «آسف على إزعاجك».

لم يرد الغريب، بل شاهد مخلص وهو ينزل عن فرسه ثم يقودها إلى البئر ويسحب الدلو الجلد لكي يشربا. لبرهةٍ لم يكن مسموعًا سوى صوت ارتطام الدلو بجدران البئر بينما يسحب الماء، ثم صوت شرب الفرس. شرب مخلص أيضًا. ارتشف ببطء في البداية ثم تجرع الماء بلهفة فبلل لحيته ثم مسح وجهه. ملأ قواريره وأخذ الماء إلى الحصان الآخر ثم ربطهما. حين نظر مجددًا إلى الغريب وجده قد عاد للنوم. لم يتغير سوى أنه لم يعد يشبك ذراعيه فوق صدره، بل وضعهما بجوار رأسه على حقيبته التي يستخدمها كوسادة. أخذ مخلص غطاءً من أمتعته وفرشه على الجهة الأخرى من البئر واستلقى لينام.

بعد بعض الوقت سمع حركة وفتح عينيه، فرأى رجلًا فوقه. أضاءته أشعة الشمس الأولى، فأظهرت شعره الأسود ولحيته الشعثاء والقرط الذهبي في إحدى أذنيه، وابتسامته الشريرة الواسعة. حاول مخلص أن

ينهض، لكن الرجل انحنى عليه ووضع خنجرًا لامعًا على عنقه. تجمد مخلص من الرعب وأطلق أنينًا خائفًا.

قال الرجل هو وما زال مبتسمًا: «أنا بايهاس. وأنا آخر وجه ستراه في حياتك».

توسل مخلص: «لا».

لكن بايهاس رفعه إلى قدميه، فرأى التاجر أن معه مرافقين يجردان حصانيه من بضاعته وينقلانها إلى خيولهم.

بحث مخلص بنظره عن العجوز النائم، فلم يجده مكانه، لكن حصانه ما زال موجودًا. هل قتلوه بالفعل؟ هل يرقد على الأرض بعنقٍ مشقوق؟

نادى بايهاس آمرًا: «حبل».

ما زال يضع الخنجر على عنق مخلص بينما يلقي إليه أحد رجليه حبلًا. مثل بايهاس، كان رجله يرتدي زيًّا أسود وله لحية شعثاء ويلف وشاحًا حول رأسه ويحمل قوسًا طويلًا على كتفه. أما الرجل الثالث فكان له شعر طويل وبلا لحية، ويعلق سيفًا فارسيًّا عريضًا في حزامه. أخذ يبحث في أمتعة مخلص ويرمي ما لا يريده على الرمال.

صرخ مخلص: «لا» حين رأى الرجل يقذف حجرًا ملونًا بين التراب.

لقد أعطته إياه ابنته كتميمة حظ يوم رحيله. لذلك لم يحتمل أن يرى اللص يرميها على الأرض. أفلت من قبضة بايهاس وأسرع إلى الرجل طويل الشعر الذي واجهه مبتسمًا وعاجله بلكمةٍ عنيفة في حلقه. ضحك اللصوص الثلاثة بصخب بينما تلوى مخلص مختنقًا على الرمال.

انحنى عليه اللص طويل الشعر وهو يسأل: «ما هذا؟».

رأى ما ينظر إليه مخلص والتقط الحجر وقرأ الكلمات المكتوبة: ««حظًّا سعيدًا يا بابا». أهذا كل شيء؟ هذا ما جعل الشجاعة تدب فيك فجأة يا **بابا**؟».

مد مخلص يده إلى الحجر راغبًا في أخذه باستماتة. لكن اللص طويل الشعر أبعد يده بازدراء ومسح الحجر في مؤخرته وهو يضحك بينما يصرخ مخلص بغضب، ثم رماه في البئر.

قلد صوت ارتطامه بالماء ساخرًا: «**بلوب**».

صرخ مخلص: «أنت... أنت...».

جاء من خلفهم صوتٌ آمر: «اربطا ساقيه».

ألقى بايهاس الحبل لذي الشعر الطويل ثم اقترب من مخلص ووضع طرف خنجره بالقرب من عينيه وهو يسأله بسخرية: «ماذا كانت وجهتك يا **بابا**؟».

رد مخلص كاذبًا: «دمشق».

جرح بايهاس خده بالخنجر، فصرخ بألم.

سأله بايهاس مجددًا: «ماذا كانت وجهتك؟».

قال ذو الشعر الطويل وهو يلف الحبل حول ساقيه: «إن ملابسه من مصياف».

قال بايهاس: «مصياف؟ في الماضي كنتم تعتمدون على دعم الحشاشين، لكن ليس بعد الآن. ربما علينا زيارة القرية. قد نجد أرملة حزينة تحتاج إلى من يرفه عنها. ما رأيك يا **بابا**؟ سنذهب بعد الانتهاء منك».

وقف ذو الشعر الطويل وألقى طرف الحبل حول غصن في شجرة التين ثم جذبه من الجهة الأخرى حتى يرفع مخلص مقلوبًا. أخذ يئن بينما يربط ذو الشعر الطويل طرف الحبل بالبئر ليثبته في مكانه.

ذهب إليه بايهاس وأداره. دار مخلص ورأى حامل القوس يقف على بُعد بضعة أمتار ويضحك. أما بايهاس وذو الشعر الطويل فكانا أقرب ويضحكان أيضًا، وانحنى بايهاس إليه.

ما زال مخلص يدور، وجدار البئر يمر أمام نظره ثم تأتي صورة اللصوص الثلاثة. ذو الشعر الطويل وبايهاس والرجل الثالث و..

ظهرت ساقان أخريان من خلف الشجرة خلف الرجل الثالث.

لكن ما زال مخلص يدور، لذلك عاد مشهد البئر أمامه. ثم دار بسرعةٍ أبطأ وعاد إلى اللصوص الثلاثة الغافلين عن وجود رجلٍ آخر يقف خلفهم. رجل يخفي وجهه خلف قلنسوة ردائه، ويحني رأسه قليلًا، ويفرد ذراعيه كأنه يستسلم. إنه الرجل العجوز.

تحدث الرجل العجوز بصوتٍ واهن مثل وجهه: «توقفوا».

استدار اللصوص الثلاثة لمواجهته في استعداد لقتل الدخيل.

ثم أطلقوا ضحكاتٍ مكتومة، وقال بايهاس بسخرية: «ما هذا؟ رجل عجوز أتى لإيقاف متعتنا؟ ما الذي تخطط لِفعله أيها العجوز؟ هل ستضجرنا حتى الموت بحكاياتك عن الأيام الخوالي؟ أم ستطلق علينا ريحًا؟».

ضحك رفيقاه.

قال العجوز مشيرًا إلى مخلص المعلق مقلوبًا ويتأرجح: «أنزلوه. فورًا».

سأله بايهاس: «ولماذا قد أفعل هذا؟».

رد العجوز بضعف: «لأنني أمرت بهذا».

- ومَن أنت لتأمرني؟

لوى العجوز يده فأطلق نصله.

«صليل».

# 54

مد حامل القوس يده إلى قوسه، لكن الطائر وصل إليه بخطوتين ولوح نصله بحركةٍ واسعة شقت عنق الرجل وشقت قوسه إلى نصفين وقصت وشاحه. ارتطم قوسه المكسور بالأرض، تبعه جسده.

وقف الطائر وكتفاه يتحركان، فهو لم يقاتل منذ عقدين. نظر إلى بايهاس وذي الشعر الطويل وراقب تعبيرهما يتغير من السخرية إلى الحذر. أخذ رامي القوس ينتفض ويقرقر ويبصق دمًا عند قدميه. انحنى عليه الطائر دون أن يبعد نظره عن بايهاس وذي الشعر الطويل، وطعنه بنصله ليخرسه نهائيًّا. كان يعرف أن الخوف هو سلاحه الأهم الآن. هؤلاء الرجال لديهم الشباب والسرعة. وهم متوحشون وقساة، وقد اعتادوا الموت. أما الطائر فلديه الخبرة. وتمنى أن تكون كافية.

تبادل بايهاس وذو الشعر الطويل النظر، ولم يعودا يبتسمان. للحظات لم يُسمع شيء حول عين الماء سوى صوت احتكاك الحبل بغصن شجرة التين. شاهد مخلص كل شيءٍ معكوسًا. لم تكن ذراعاه مقيدتين، فتساءل إن كان عليه محاولة تحرير نفسه. لكنه قرر أنه من الأفضل عدم لفت الانتباه إليه.

تحرك الرجلان في اتجاهين مختلفين لمحاصرة الطائر الذي راقبهما يتباعدان، فظهر التاجر المعلَّق مقلوبًا خلفهما. مرر ذو الشعر الطويل السيف الفارسي بين يديه بصوتٍ خفيف. أما بايهاس فعض على خده.

تقدم ذو الشعر الطويل خطوة وهو يدفع سيفه الفارسي للأمام. تذبذب الهواء مع صليل المعدن بينما يصد الطائر السيف بالنصل ويلوي ذراعه ليدفع السيف جانبًا شاعرًا باعتراض عضلاته. لو ناوشه اللصان بهجمات قصيرة، فلا يعرف إلى متى يمكنه الصمود. فهو عجوز الآن، والعجائز يعتنون بالحديقة أو يقضون الظهيرة في مكتبتهم يقرؤون ويفكرون فيمن أحبوهم وفقدوهم. بالتأكيد لا يبارزون بالسيوف. خاصةً حين يكونون أقل عددًا من خصومهم الشباب. وجه نصله نحو بايهاس راغبًا في إيقاف الزعيم، وقد نجح. لكن بايهاس اندفع بخنجره نحو الطائر حتى جرح صدره وسالت أولى دماء المعركة. رد الطائر بهجمة، فتصادما وتبادلا الضربات، مما منح ذا الشعر الطويل الفرصة للتدخل قبل أن يستطع الطائر إبعاده. فلوح بسيفه بشراسة وجرح ساق الطائر.

جرح كبير عميق اندفع منه الدم، فكاد الطائر يسقط. عرج على ساقه محاولًا جعل البئر في ظهره لكي يدافع عن المقدمة فقط. تراجع حتى أصبح جدار البئر بجواره والرجل المعلق في الشجرة خلفه.

سمع التاجر يقول بخفوت: «كن قويًا. واعلم أنه مهما حدث، فأنا أقدم لك امتناني وحبي، سواء في الحياة الدنيا أو الآخرة».

أومأ الطائر دون أن يستدير، بل أخذ يراقب اللصين أمامه. رؤية دماء الطائر قد أسعدتهما وشجعتهما على مواصلة الهجوم بالمزيد من الطعنات والضربات. صد الطائر ثلاث هجمات، وتلقى جروحًا جديدة حتى صار ينزف بغزارة ويعرج ويلهث. لم يعد الخوف سلاحه. لقد فقد تلك الميزة. كل ما لديه الآن هي المهارات والغرائز التي كانت في سُباتٍ طويل. عاد بذاكرته إلى بعض أفضل معاركه؛ مثل التغلب على رجال طلال، وقتال مولوخ، وهزيمة فرسان الهيكل في مقبرة بيت المقدس. المحارب الذي خاض تلك المعارك كان سيقتل هذين الاثنين في ثوانٍ.

لكن ذلك المحارب كان في الماضي، لقد صار عجوزًا الآن. الحزن والعزلة قد أضعفاه. لقد قضى عشرين عامًا في حدادٍ على ماريا، وفي هوس بالتفاحة. فترك مهاراته العظيمة تذبل وتموت.

شعر بالدماء في حذائه، وعلى يديه. أخذ يلوح بنصله بجموح، ليس ليدافع بقدر ما هو يحاول إبعاد مهاجميه. فكر في حقيبته التي أخفاها في شجرة التين، وبداخلها التفاحة. لو أمسك بالتفاحة سيخرج منتصرًا. لكنها كانت بعيدة جدًّا. بالإضافة إلى أنه تعهد بألا يستخدمها مجددًا. لهذا تركها في الشجرة، لكي يبقى بعيدًا عن الإغراء. لكن بصراحة لو كان قادرًا على إمساكها الآن لاستخدمها، بدلًا من الموت هكذا وتسليم التاجر إليهما. عندها بالتأكيد سيتعرض لموتٍ أشد ألمًا وتعذيبًا بسبب أفعال الطائر.

نعم، كان سيستخدم التفاحة لو وصل إليها، لأنه فقد الأمل. أدرك أنه سمح لهما بمحاصرته مجددًا. هاجمه ذو الشعر الطويل من زاوية الرؤية المحيطية، فصاح وهو يبذل مجهودًا لصده. واجه ذو الشعر الطويل حركات الصد بضربات هجومية. واحد، اثنان، ثلاثة، ثم وجد ثغرة في دفاع الطائر، فجرحه في جانبه جرحًا بالغًا نزف بغزارة فورًا. ترنح الطائر وشهق بألم. ربما من الأفضل أن يموت هكذا بدلًا من الاستسلام بضعف. من الأفضل أن يموت وهو يقاتل.

تقدم ذو الشعر الطويل وهاجمه بضربه سيف أخرى. تلقى الطائر جرحًا آخر، هذه المرة في الساق السليمة. سقط على ركبتيه، وتدلت ذراعاه، وانغرس نصله عديم الفائدة في الرمال.

تقدم ذو الشعر الطويل، لكن بايهاس أمره قائلًا: «اتركه لي».

عاد الطائر بذاكرته إلى وقتٍ بعيد كأنه منذ آلف حياةٍ مضت. عندها قال خصمه فارس الهيكل الشيء نفسه، فجعله الطائر يدفع ثمن

غروره. لكن هذه المرة لن يشعر بالرضا، لأن بايهاس يقترب من الطائر الذي سقط راكعًا وترنح مهزومًا على الرمال وتدلى رأسه. حاول أن يأمر ساقيه بالنهوض لكنهما لم تطيعاه. حاول أن يرفع يده التي تحمل النصل، لكن لم يستطع. رأى الخنجر آتٍ نحوه، واستطاع أن يرفع رأسه بالكاد ليرى أسنان بايهاس وقرطه الذهبي الذي يلمع في شمس الصباح الباكر.

فجأة أخذ التاجر يركل ويتأرجح حتى أمسك بايهاس من الخلف وهو ما زال معلقًا، فأوقف تقدمه مؤقتًا. أطلق الطائر صيحة عظيمة مع آخر دفعة من الطاقة التي لا يعرف من أين استدعاها، وانقضَّ رافعًا نصله ليطعن بايهاس في بطنه ويشقه رأسيًّا من بطنه إلى عنقه. في الوقت نفسه أمسك مخلص الخنجر قبل أن يسقط من أصابع بايهاس المرتخية، ورفع نفسه وقطع الحبل الذي يربطه. وقع على الأرض وارتطم جانبه بجدار البئر بألم، لكنه نهض ووقف جنبًا إلى جنب مع منقذه.

كان الطائر منحنيًا ويكاد يسقط ميتًا، لكنه رفع نصله ونظر بحدة إلى ذي الشعر الطويل الذي وجد نفسه فجأة وحيدًا ومتوترًا. لذلك بدلا من الهجوم، تراجع حتى وصل إلى حصان، وركبه دون إبعاد نظره عن الطائر ومخلص. نظر إليهما ونظرا إليه. ثم مرر إصبعه على عنقه في حركة وعيدٍ واضحة، وبعدها ابتعد.

قال مخلص للطائر وهو يلهث: «شكرًا لك».

لكن الحشاش لم يرد. لقد انهار فاقد الوعي على الرمال.

# 55

لاحقًا بأسبوع جاء مبعوث من زعيم اللصوص. شاهده أهالي القرية يركب حصانه عبر البلدة وإلى التلال التي تقود إلى القلعة. قالوا إنه أحد رجال فهد. والحكيم منهم ظن أنه عرف طبيعة تلك الزيارة إلى الحصن. فقبل يومين، جاء رجال فهد إلى القرية ليعلنوا عن مكافأة لمن يبلغ عن الرجل الذي قتل ابن فهد، بايهاس. لقد ساعده تاجر من مصياف. قالوا إن التاجر نفسه لن يتأذى لو سلم لهم الوغد الجبان الذي شق ابن الزعيم المحبوب. هز الأهالي رؤوسهم وذهبوا للاهتمام بأمورهم. غادر الرجال خاليي الوفاض بينما يتمتمون بكلمات التهديد والوعيد عن عودتهم.

هذا ما تداولته الإشاعات، أو أهم ما فيها على الأقل. حتى فهد ما كان ليجرؤ على إرسال رجاله إلى القرية التي تتمتع بحماية الحشاشين، دون استئذان السيد. بل ما كان ليجرؤ على طلب الإذن من الطائر أو المعلم السابق، أما عباس فمختلف. عباس ضعيف ويمكن شراؤه.

عاد المبعوث. في رحلة ذهابه بدا جادًّا ومشمئزًّا من القرويين الذين يشاهدونه يمر. أما الآن في عودته فكان يبتسم بسخرية ويمرر إصبعه على حلقه بتهديد.

لاحقًا تلك الليلة على ضوء الشموع المحترقة، قال مخلص: «يبدو أن السيد منح فهد موافقته ليأتي إلى القرية».

جلس على طرف السرير حيث يرقد الغريب. كان مخلص يتحدث إلى نفسه أكثر مما يتحدث إليه، فهو لم يستعد وعيه منذ حادثة القتل عند عين الماء. حمله مخلص بعد ذلك ووضعه على حصانه الثاني وأحضره إلى بيته في مصياف حتى يتعافى. اعتنت علياء وندى به. في أول ثلاثة أيام، تساءلوا إن كان سيعيش أو سيموت. تركه النزيف شاحبًا كالضباب، وظل مستلقيًا في السرير بلا حراك. تخلى علياء ومخلص عن سريرهما له. بدا ساكنًا تمامًا، مثل جثة، كأنه سيغادر الدنيا في أي لحظة. في اليوم الثالث، بدأت الدماء تعود إلى وجهه. أخبرت علياء مخلص بهذا حين عاد من السوق، فجلس على كرسيه المعتاد بجوار السرير ليتحدث إلى منقذه على أمل أن يستعيد وعيه. أصبح معتادًا على سرد أحداث يومه. أحيانًا يحكي أحداثًا مهمة على أمل إثارة العقل الباطن للمريض، ربما يستفيق.

نظر جانبًا إلى الغريب الراقد على ظهره وقد بدأت جروحه تتعافى وجسده يقوى. قال: «لقد اشتروا عباس على ما يبدو. كان المعلم الطائر سيفضل الموت على السماح بشيءٍ كهذا».

ثم مال للأمام وهو ينظر بتمعنٍ شديد إلى الجسد المستلقي وقال: «المعلم الطائر ابن لا أحد».

للمرة الأولى منذ أحضره مخلص إلى البيت، رفرفت عينا الغريب وفتحهما.

هذا هو رد الفعل الذي أمله مخلص. مع ذلك فزع وهو يشاهد عينَي المريض الذائغتين تستعيدان صفاءهما ببطء.

همس مخلص بينما يطرف الغريب بعينيه: « إنه أنت، أليس كذلك؟ أنت هو، صحيح؟ أنت هو الطائر».

أومأ الطائر. اغرورقت عينا مخلص بالدموع، وانهار من كرسيه إلى الأرض وأمسك يدي الطائر بيديه وقال باكيًا: «لقد عدت إلينا. لقد عدت لتنقذنا». صمت قليلًا وسأله: «هل أتيت لتنقذنا؟».

قال الطائر: «هل تحتاجون إلى إنقاذ؟».

- بالطبع. هل كنت تنوي العودة إلى مصياف حين تقابلنا؟

فكر الطائر ثم قال: «حين غادرت آلموت، كان حتميًّا أن أجد نفسي هنا. السؤال هو متى بالضبط».

- هل كنت في آلموت؟

- خلال العشرين عامًا الماضية تقريبًا.

- قالوا إنك مت. أنك رميت نفسك من برج القلعة في الصباح الذي ماتت فيه ماريا.

ابتسم الطائر بحزنٍ وقال: «لقد رميتُ نفسي من برج القلعة بالفعل، لكنني نجوت. وصلت إلى النهر خارج القرية. كان داريم هناك بالمصادفة. كان عائدًا من آلموت حيث وجد زوجة سيف وأطفاله. لقد أنقذني وأخذني إليهم».

كرر مخلص: «قالوا إنك مت».

- قالوا؟

لوح مخلص بيده نحو القلعة وقال: «الحشاشون».

- قالوا ما ناسبهم، لكنهم كانوا يعرفون أنني حي.

سحب يده من يد مخلص، ورفع نفسه في وضع الجلوس وأنزل ساقيه إلى الأرض. نظر إلى قدميه، وجلده المجعد الذابل. كل جزء في جسده يئن بالألم، لكنه شعر.. بتحسن. غسل أحدهم رداءه وألبسه

إياه مجددًا. سحب القلنسوة على رأسه، وأحب ملمس ورائحة الملابس النظيفة.

وضع يديه على وجهه، فشعر بلحيته مُشذَّبة. وعلى مقربةٍ منه رأى حذاءه. وعلى طاولة بجوار السرير، رأى آلية نصله الخفي. لقد اكتشف تصميمه الجديد من خلال التفاحة. بدا متقدمًا لدرجة مستحيلة. تذكر باقي التصاميم التي اكتشفها منها. إنه بحاجةٍ إلى مساعدة حداد لصنع الأغراض. لكن أولًا...

سأل الطائر مخلص الجالس على الأرض: «حقيبتي؟ أين حقيبتي؟».

أشار مخلص بصمت إلى حيث الحقيبة مستقرة على حجر عند رأس السرير. نظر إلى شكلها المألوف، ثم سأل: «هل نظرت بداخلها؟».

هز مخلص رأسه بحزم، فنظر إليه الطائر فاحصًا. وعندما صدقه، استرخى وارتدى حذاءه وجفل قليلًا بألم.

قال: «أشكرك على الاعتناء بي. لولاك لمتُّ عند عين الماء».

جلس مخلص على كرسيه وقال: «زوجتي وابنتي هما من اعتنتا بك، وأنا مَن عليَّ شكرك. لقد أنقذتني من موتٍ مروع على يد هؤلاء اللصوص». مال للأمام مضيفًا: «كانت أفعالك هي أفعال الأسطورة الطائر ابن لا أحد. لقد أخبرت الجميع».

- الأهالي يعرفون بوجودي؟

فرد مخلص كفيه وقال: «بالطبع. كل أهالي القرية يعرفون قصة البطل الذي أنقذني من موتٍ محتوم. والجميع واثقون بأنه أنت».

سأله الطائر: «ولماذا يعتقدون هذا؟».

لم يرد مخلص بالكلام، بل أشار بذقنه إلى الطاولة القصيرة التي يلمع عليها نصل الطائر منذرًا بالخطر والاستعداد.

سأله الطائر: «هل أخبرتهم عن النصل؟».

رد مخلص: «نعم، بالطبع. لماذا؟».

- بمجرد أن تصل الأخبار إلى القلعة سيأتون بحثًا عني.

قال مخلص نادمًا: «ليسوا الوحيدين».

- ماذا تعني؟

- جاء مبعوث من والد الرجل الذي قتلته، وزار الحصن.

- ومن هو الرجل الذي قتلته أنا؟

- قاتل متوحش يُدعى بايهاس.

- ووالده؟

- فهد، زعيم اللصوص الذي يجوب الصحراء. يقال إنهم يُعسكرون على مسيرة يومين أو ثلاثة. جاء المبعوث من هناك. يقولون إنه كان يطلب إذن السيد ليأتي إلى القرية ويبحث عن القاتل.

قال الطائر بحدة: «السيد؟ عباس؟».

أومأ مخلص قائلًا: «عرضوا مكافأة على القاتل، لكن القرويين رفضوا. يبدو أن عباس لم يكن مسيطرًا كفاية».

قال الطائر: «إذًا فقلوب الناس طيبة، على عكس قائدهم».

وافقه مخلص: «ما من كلمات أصدق من هذه. إنه يسلب مالنا بلا مقابل. كانت القلعة سابقًا قلب القرية التي نستمد منها القوة والإرشاد...».

أكمل الطائر كلامه بابتسامةٍ خفيفة: «والحماية».

اعترف مخلص: «نعم. كل هذا رحل معك أيها الطائر، وجاء مكانه الفساد وجنون الاضطهاد. يقولون إن عباس اضطر إلى إخماد انتفاضة

بعد رحيلك. ثورة أشعلها الحشاشون الموالون لك ولمالك. أمر بقتل قادة الثورة لأنه يخشى تكرار التمرد. خوفه المجنون جعله يقيم في برجه ليل نهار، يتوهم المكايد ويحكم بالموت على مَن يظنه متورطًا. انهارت مبادئ الجماعة من حوله كما انهار الحصن نفسه. يقولون إنه يحلم دائمًا بأن الطائر ابن لا أحد سيعود من المنفى في آلموت مع...». صمت لحظة ونظر إلى الطائر ثم إلى حقيبته، وواصل: «مع أداة أثرية قادرة على هزيمته. هل يوجد شيءٌ كهذا حقًّا؟ هل تخطط للهجوم؟».

حتى لو كانت الأداة موجودة، فليس هي ما سيهزم عباس، بل الإيمان. الإيمان بأنفسنا وبالعقيدة. هذا ما سيهزمه».

- إيمان مَن أيها الطائر؟

لوح الطائر بيده وقال: «إيمانك وإيمان الناس وإيمان الحشاشين».

سأله مخلص: «وكيف ستستعيده؟».

رد الطائر: «بالقدوة. تدريجيًّا».

في اليوم التالي، خرج الطائر إلى القرية. ليس فقط للوعظ عن طبيعة الحشاشين، بل لإظهارها.

# 56

وجد الطائر مشاجرات اضطر إلى فضها، ونزاعات بين التجار احتاجت إلى حكمته، وخلافات على الأراضي بين الجيران. لكن لا شيء كان أشرس من شجارٍ بين امرأتين تتصارعان على رجل. الرجل يدعى «آرون، وكان يجلس بجبن على مقعدٍ في الظل بينما تتجادل المرأتان. اصطحب مخلص الطائر عبر القرية بينما يتولى أموره. حاول التدخل بينما وقف الطائر على بُعد شابكًا ذراعيه ومنتظرًا بصبر أن يتوقفا مؤقتًا حتى يمكنه التحدث. لقد قرر ما سيقوله بالفعل. سيكون على آرون التعبير عن إرادته الحرة، سواء شاء أم أبى. أما قلق الطائر الحقيقي فكان يكمن مع الولد المصاب بالحمى، والذي أعطاه الطائر جرعة استلهم وصفتها من التفاحة بالطبع.

أو مع صانع السلال الذي يصنع لنفسه أدوات جديدة وفقًا لمواصفات أعطاه إياها الطائر بعدما نقلها من التفاحة.

أو مع الحداد الذي ألقى نظرة على التصاميم التي أعطاه إياها الطائر، وأخذ يقلبها ويدقق فيها قبل أن يفردها على الطاولة لكي يوضح الطائر له ماذا يصنع بالضبط. قريبًا سيحصل الحشاش على معدات جديدة وأسلحة جديدة، فريدة من نوعها.

أو الرجل الذي كان يراقبه كظله على مدى الأيام القليلة الماضية، مختبئًا في الظلال، أو هكذا ظن. لقد لاحظه الطائر فورًا بالطبع. لاحظ حركته، وعرف أنه حشاش.

لا مفر من هذا بالطبع. كان لا بدَّ أن يرسل عباس رجاله إلى القرية للتحري عن الغريب الذي يقاتل بالنصل الخفي الخاص بالحشاشين. سيستنتج عباس بالتأكيد أن الطائر قد عاد ليستعيد قيادة الجماعة. ربما أمل أن يقتله زعيم قطاع الطرق بدلًا عنه. أو ربما سيرسل رجلًا من القلعة ليقتله. أو ربما هذا الظل هو الحشاش المرسل لقتل الطائر.

ما زالت المرأتان تتجادلان. تمتم له مخلص: «سيدي، أظنني أسأت الفهم. هاتان المرأتان لا تتجادلان حول مَن تريد أن تأخذ «آرون» البائس لنفسها، بل كلٌّ منهما تريد إعطاء الأخرى إياه».

ضحك الطائر وقال: «ما زال حكمي كما هو». ثم ألقى نظرة متسلية على آرون الجالس يقرض أظافره وأضاف: «يجب على الشاب أن يقرر مصيره بنفسه».

ألقى نظرة على الحشاش الظل الجالس تحت ظل شجرة مرتديًا ملابس بلون الطين، ويبدو للناظرين كأنه قروي يأخذ قيلولة.

قال لمخلص: «سأعود سريعًا. إن ثرثرة المرأتين أصابتني بالعطش».

استدار مبتعدًا عن المجموعة الصغيرة. كاد بعضهم يتبعه لكن مخلص أشار إليهم ليعودوا.

أحسَّ الطائر بحركة الحشاش الظل، دون أن يراه. أحس به يقف ويتبعه إلى ميدان في منتصفه نافورة. انحنى وشرب ثم وقف متظاهرًا بتأمل منظر القرية. ثم...

قال الطائر للرجل الذي يعرف أنه يقف خلفه: «لا بأس. لو كنت ستقتلني، لفعلتها بالفعل».

- وهل كنت ستدعني أفعلها؟

ضحك الطائر قائلًا: «لم أقضِ حياتي محاربًا حتى أسمح لفتى بقتلي عند نافورة».

- هل سمعتني؟

- بالطبع سمعتك. سمعت اقترابك بخفة الفيل. وأدركت من السمع أنك تفضل الاعتماد على جانبك الأيسر. مما يعني أنه عليَّ التحرك إلى يميني لأواجه جانبك الأضعف.

- أما كنت لأتوقع هذا؟

- هذا يعتمد على هدفك. من المفترض أنك تعرف هدفك جيدًا وتدرك مهاراته القتالية.

- أعرف أن هدفي لديه مهارات قتالية لا تُضاهى، إنه الطائر ابن لا أحد.

- أتعرفه حقًّا؟ لم تكن سوى طفل حين أتيت أنا إلى مصياف آخر مرة.

استدار الطائر لمواجهة الغريب الذي خلع قلنسوته وكشف عن وجه شاب في العشرين من عمره بلحيةٍ سوداء. كان لديه فك حاد قوي وعينان ميزهما الطائر.

قال الشاب: «نعم، كنت رضيعًا».

أشار الطائر بذقنه إلى القلعة الشامخة فوقهما كأنها تراقبهما، وسأله: «ألم يعلموك هناك أن تكرهني إذًا؟».

قال الشاب: «البعض يسهل غسيل دماغه أكثر من غيره. ما زال الكثيرون موالين للمبادئ القديمة. والعدد في تزايد مع وضوح العواقب الوخيمة للأساليب الجديدة. لكنني أملك سببًا أقوى لأظل وفيًّا أكثر من معظمهم».

وقف الحشاشان يواجهان بعضهما عند النافورة. شعر الطائر بالدوار فجأة حتى كاد يفقد وعيه وهو يسأله: «ما اسمك؟».

رد الشاب: « لديَّ اسمان. أحدهما تعظيم، وهو ما يعرفني به معظم أعضاء الجماعة. والآخر هو اسمي الحقيقي الذي أسمتني إياه أمي تكريمًا لأبي. لقد توفي وأنا رضيع، عندما أمر عباس بقتله. اسمه...».

- مالك.

التقط الطائر أنفاسه واندفع معانقًا الفتى وهو يبكي ويهتف: «يا بني». ضحك: «كان عليَّ أن أعرف، فلديك عينا والدك. لست واثقًا من أنك ورثت مهارته في التخفي، لكنك ورثت روحه. لم أعرف قط أن لديه ابنًا».

- لقد أرسلوا والدتي بعيدًا عن هنا بعد سجن أبي. وعدت وأنا شاب لأنضم للجماعة.

- سعيًا للانتقام؟

- في النهاية، ربما. أردت أن أفعل الأفضل لذكراه. والآن بعد عودتك، عرفت الوسيلة.

أحاط الطائر كتفيه بذراعه وأداره بعيدًا عن النافورة ليسيرا في الميدان بينما يتحدثان باهتمام.

سأل الطائر مالك الشاب: «ما مستوى مهاراتك القتالية؟».

- تم تجاهل هذه المهارات تمامًا في عهد عباس، لكنني أتدرب. ولم تتطور علوم الحشاشين في آخر عشرين عامًا.

ضحك الطائر وقال وهو يشير إلى رأسه: «ربما ليس في القلعة، لكن هنا. لقد تقدمت علوم الحشاشين في عقلي عشرة أضعاف. لديَّ الكثير لأريه للجماعة. خطط، استراتيجيات، تصاميم أسلحة جديدة. إن حداد القرية يصنعها لي الآن».

أفسح القرويون لهما الطريق باحترام. كلهم يعرفون الطائر الآن. لقد عاد المعلم مجددًا، على الأقل هنا في سفح الحصن.

سأله الطائر: «تقول إن هناك آخرين موالين لي في القلعة؟».

- هناك مَن يكرهون عباس بقدر ما يخدمونه. وازداد العدد بعدما أبلغتهم بما رأيت في القرية. إن أخبار عودة الطائر العظيم تنتشر ببطء لكن بثبات.

قال الطائر: «جيد. وهل يمكن إقناع هؤلاء الداعمين بالتجمع والتقدم نحو القلعة؟».

توقف مالك الشاب ونظر إلى الطائر بتمعن كأنه يتأكد أن العجوز لا يمزح. ثم تهللت أساريره وقال: «أنت تنوي فعلها. تنوي فعلها حقًّا. متى؟».

- سيحضر زعيم اللصوص رجاله إلى القرية قريبًا. علينا أن نتولى السيطرة قبل حدوث هذا.

# 57

مع طلوع نهار اليوم التالي، تنقل مخلص وعلياء وندى بين البيوت لإبلاغ الناس أن المعلم سيصعد التل. انتعش الأمل في قلوبهم فتجمعوا في السوق. وقفوا في مجموعات أو جلسوا على الأسوار القصيرة. انضم إليهم الطائر بعد بعض الوقت. كان مرتديًا رداءه الأبيض وحقيبته. من تمعن النظر فيه استطاع رؤية الخاتم المتصل بآلية النصل حول إصبعه. تحرك إلى وسط الساحة، وبجانبه وقف ملازمه الأمين مخلص، وانتظر.

تساءل الطائر بينما ينتظر، ماذا كانت ستقول له ماريا الآن. وثق الطائر في مالك الشاب فورًا. لقد وضع فيه كل إيمانه، لدرجة أنه لو خانه، لأصبح الطائر في عداد الأموات، ولصارت خططه لاستعادة الجماعة مجرد خيالات رجلٍ عجوز. فكر فيمن وثق بهم من قبل، وخانوه. هل كانت ماريا لتنصحه بالحذر الآن؟ هل كانت ستخبره أنه من الحماقة عدم التشكيك في دليلٍ ضعيفٍ كهذا؟ أم كانت ستقول ما قالته من قبل، *ثق بغرائزك أيها الطائر. منحتك تعاليم المعلم الحكمة، ووضعتك خيانته على طريق النضوج.*

تحدث إلى ذكراها في عقله، *لقد أصبحت أكثر حكمة الآن يا حبيبتي.*

إنه واثق بأنها كانت ستوافق على ما فعله بالتفاحة طوال هذه السنوات التي امتص فيها عصارتها من العلم. لكنها ما كانت لتوافق

على تحميل نفسه ذنب موتها، والخزي الذي اجتاحه حين ترك الغضب يسيطر على أفعاله. لا، ما كانت لتوافق على هذا. ماذا كانت ستقول؟ ذلك التعبير الإنجليزي الذي كانت تستخدمه، *تمالك نفسك*.

كاد يضحك وهو يتخيلها. *تمالك نفسك*. لقد فعل في النهاية بالطبع، لكنه استغرق سنوات ليفعلها. سنوات من كره التفاحة، وكره مرآها، بل حتى التفكير فيها. قوتها الخبيثة القابعة في سُبات داخل قوقعتها المنقوشة الملساء المقاومة للزمن. كان يتأملها لساعات ليذكر نفسه بالألم الذي سببته له.

رحلت زوجة سيف مع ابنتيها عندما لم تستطع احتمال التجاهل ومعاناة الطائر. عرف أنهن استقررن في الإسكندرية. لاحقًا بسنة رحل داريم أيضًا بسبب ندم والده وهوسه بالتفاحة. سافر إلى فرنسا وإنجلترا لتحذير القادة بتحرك المغول. زادت الوحدة من عذاب الطائر. صار يقضي ليالٍ طويلة ناظرًا إلى التفاحة. كأنهما هو وهي خصمان على وشك القتال. وأنه لو نام أو أشاح بنظره عنها فقد تنقض عليه.

في النهاية فكر في تلك الليلة في حديقة مصياف، في مرشده المعلم وهو يرقد قتيلًا على الأرض الرخامية، بينما يفور الشلال في الخلفية. تذكر عندما حمل التفاحة أول مرة، وشعر فيها بشيءٍ حميد، وليس خبيثًا. تذكر الصور التي أظهرتها له. صور حضارات متقدمة عجيبة زالت من المكان والزمان، وكانت خارج معرفته تمامًا. تلك الليلة في الحديقة، عرف بغريزته قدرة التفاحة على الخير. منذ ذلك الوقت لم تُظهر سوى جانبها الخبيث، لكن الحكمة العظيمة كانت كامنة فيها. احتاجت فقط مَن يبحث عنها ويستخرجها. احتاجت إلى عامل لإطلاقها. استطاع الطائر السيطرة على قوتها من قبل.

وقتها اعتصره الحزن على معلمه. والآن يعتصره الحزن على عائلته. ربما يجب أن تتلقى التفاحة أمرًا أولًا حتى تستجيب.

أيًّا كان الجواب، لقد بدأ الطائر بدراستها. استهلك مفكرة تلو الأخرى وملأ صفحاتها بكتاباته. فلسفات وأفكار وتصاميم ورسومات ومخططات وذكريات. احترقت شموع لا حصر لها بينما يخط بقلمه بلهفة، ولا يتوقف إلا ليقضي حاجته. كان يقضي أيامًا في الكتابة. وأيام أخرى يترك مكتبه ويركب حصانه خارج آلموت وحيدًا لقضاء مشاوير خاصة بالتفاحة، مثل جمع مكونات ومؤن معينة. ذات مرة أرشدته التفاحة إلى مجموعة من الأدوات الأثرية التي استعادها وأخفاها دون أن يخبر أحدًا عن طبيعتها أو مكانها.

لم يتوقف عن الحداد بالطبع. ما زال يلوم نفسه على وفاة ماريا، لكنه تعلَّم منه. إنه يشعر الآن بنوعٍ أنقى من الحزن، شوقٌ لماريا وسيف، ولوعة لن تغادر قلبه أبدًا. ذات يوم كان حزنه كنصلٍ حاد يجرح قلبه ألف جرح، وفي اليوم التالي صار مثل غثيان يمغص بطنه.

أحيانًا كان يبتسم عندما يظن أن ماريا كانت ستوافق على حداده عليها. لأن هذا يناسب ذلك الجزء الخاص بكونها نبيلة إنجليزية مدللة يمكنها تثبيت رجل بنظرةٍ متعالية بالكفاءة نفسها التي يمكنها هزيمته في قتال. تعليقاتها اللاذعة حادة كنصلها. وبالطبع كانت ستوافق على أنه استطاع أخيرًا السيطرة على نفسه. لكن أكثر ما كانت ستوافق عليه هو ما يفعله الآن، استخدام علمه ومعرفته لفائدة الجماعة. هل كان يعرف وهو يُنهي منفاه أنه سيعود إلى مصياف لهذا السبب؟ ما زال ليس واثقًا. كل ما يعرفه هو أنه بمجرد وصوله إلى هنا، لم يعد لديه خيار آخر. زار مكان دفنها. لم يكن قبر مالك بعيدًا، كان يعتني به مالك

الشاب. أدرك الطائر أنه خسر ماريا وسيف ومالك ووالدته والده وحتى المعلم، للأبد. أما الأخوية، فيمكنه استعادتها.

لكن فقط في حال استطاع مالك الشاب تنفيذ وعده. وقف الطائر مستشعرًا حماس الحشد وترقبه مثل ثقلٍ عليه حمله. تجول مخلص بالقرب منه. بدأ يتساءل. نظر إلى القلعة منتظرًا أن تفتح بواباتها ليظهر عبرها الرجال. قال مالك أن هناك عشرين رجلًا على الأقل يدعمون الطائر بالحماس نفسه الذي يدعمه به. عشرون محاربًا بالإضافة إلى دعم الناس. فكر الطائر أن هذا سيكون كافيًا للتغلب على ثلاثين أو أربعين حشاشًا ما زالوا يدينون بالولاء لعباس.

تساءل إن كان عباس هناك الآن، في برج المعلم، يدقق النظر ليرى ما يحدث بالأسفل. تمنى هذا.

رفض الطائر طوال حياته أن يشعر بالرضا لموت أحد. لكن عباس؟ على الرغم من الشفقة التي شعر بها تجاهه، لقد كان مسؤولًا عن موت سيف ومالك وماريا، وكذلك تدمير الجماعة. وعد الطائر نفسه بأنه لن يشعر بالسرور -أو حتى بالرضا- بوفاة عباس.

لكنه سيشعر بالسرور والرضا من غيابه بعدما يقتله. سيسمح لنفسه بهذا.

لكن فقط حين تُفتح البوابات ويظهر على أعتابها حلفاؤه. تحرك الحشد من حوله بنفاد صبر. شعر بالثقة والإيمان اللذين أيقظهما فيهم يتبخران ببطء.

ثم سمع همهمات حماسية بين القرويين، فنقل بصره من بوابات القلعة -التي ما زالت مغلقة تمامًا- إلى الميدان. فرأى رجلًا يرتدي رداءً أبيض تجسد من العدم بين الحشود. سار الرجل إلى الطائر مطأطئًا رأسه، ثم خلع قلنسوته وابتسم إليه. إنه مالك الشاب، وخلفه الآخرون.

ظهروا كلهم بين الحشد، كأنهم جاؤوا من العدم مثله. شهق مخلص بدهشة. امتلأ الميدان برجالٍ بعباءاتٍ بيضاء. بدأ الطائر يضحك بمفاجأة وارتياح وبهجة مع كل رجل يأتي إليه ويحني رأسه باحترام، مظهرًا نصله أو قوسه أو سكين الرماية تعبيرًا عن الولاء.

أمسك الطائر كتفَي مالك، ولمعت عيناه وهو يقول: «أتراجع عن كلامي. أنت ورجالك، مهارتكم في التخفي لا تضاهى».

ابتسم مالك وحنى رأسه قائلًا: «أيها المعلم، علينا التحرك فورًا قبل أن يشعر عباس بغيابنا».

قال الطائر: «فليكن».

صعد سور النافورة القصير، وجاء مخلص لمساعدته، لكنه لوَّح له رافضًا. ثم خاطب الحشد: «ظلت قلعة الجبل مظلمة ومحظورة وقتًا طويلًا. واليوم أرجو أن أعيدها منارة للنور مجددًا. بمساعدتكم».

صدرت تمتمات التقدير من الناس، لكن الطائر أسكتها مواصلًا كلامه: «لكننا لن نبدأ فجرًا جديدًا ملطخين بدماء الحشاشين. الموالون لعباس هم أعداء اليوم، لكنهم رفاق الغد. لن نجني صداقتهم إلا بانتصارٍ رحيم. لن نقتل إلا للضرورة القصوى. لقد أتينا لإحلال السلام، لا الموت».

نزل عن السور وسار مغادرًا الميدان وخلفه الحشاشون والقرويون. رفع الحشاشون قلنسواتهم على رؤوسهم، وبدوا جادين وعازمين. تبعهم الناس في الخلف شاعرين بالحماس والتوتر والخوف. فالكثير يعتمد على هذه المواجهة.

صعد الطائر المنحدرات التي كان يركض عليها صعودًا ونزولًا في صغره مع عباس. وبعدما صار حشاشًا، صار يركض صعودًا ونزولًا في التدريب أو مهمات المعلم، سواء ذاهبًا في مهمة أو عائدًا منها.

الآن يشعر بأثر الشيخوخة في عظامه وعضلاته وهي تعاني قليلًا في الصعود، لكنه واصل.

قابلهم بعض الموالين لعباس على التلال. كانوا فريق استطلاع لاختبار عزيمتهم. بدا رجال الطائر مترددين في الهجوم، فهؤلاء الرفاق شاركوهم المعيشة والتدريب. الأصدقاء يتواجهون الآن. وقد يجد أفراد العائلة أنفسهم وجهًا لوجه لا محالة إن طال القتال. وقف فريق الاستطلاع قليل العدد وحلفاء الطائر متقابلين بعض الوقت. لدى فريق الاستطلاع ميزة الأرض العالية، عدا ذلك هم أشبه بحملان على وشك الذبح.

نقل الطائر بصره إلى قمة برج المعلم. يستطيع عباس رؤيته الآن بالتأكيد. بالطبع رأى الناس يصعدون التل نحوه. نقل الطائر نظره من القلعة إلى فريق الاستطلاع المُرسَل للقتال باسم سيدهم الفاسد.

كرر الطائر لرجاله: «لا قتل».

أومأ مالك.

ابتسم أحد أعضاء الاستطلاع وقال بخبث: «لن تستطيع التقدم إذًا أيها العجوز».

ثم تقدم رافعًا سيفه نحو الطائر. ربما تمنى أن يقص جذور الثورة بقتل الطائر، فيوقف الانتفاضة.

برشاقة عصفور، دار الحشاش متفاديًا الهجمة وسحب سيفه ودار حول خصمه المندفع وأمسكه من الخلف.

وقع سيف جندي الاستطلاع وشعر بنصل الطائر على عنقه وهو يئن.

تمتم الطائر في أذنه: «لا قتل باسم **هذا** العجوز».

ثم دفع به إلى مالك الذي قبض عليه وثبته على الأرض. تقدم باقي فريق الاستطلاع، لكن بعزيمة ضعيفة وعدم رغبة في القتال. خلال لحظات كانوا أسرى أو فاقدي الوعي، كأنهم سمحوا لهم بالقبض عليهم.

شاهد الطائر المناوشات القصيرة. نظر إلى يده حيث خدشها سيف المهاجم، ومسح الدم خلسة. قال لنفسه: «*لقد كنت بطيئًا. في المرة القادمة، اترك القتال للشباب*».

تمنى أن يكون عباس يشاهده بالفعل. اجتمع الرجال على الأسوار. تمنى أيضًا أن يكونوا قد رأوا ما حدث على التل، وأنه عامل فريق الاستطلاع برحمة.

واصلوا التقدم أعلى المنحدر وصولًا إلى بوابات الحصن التي انفتحت أخيرًا. اندفع منها المزيد من الحشاشين وهم يصرخون استعدادًا للقتال.

سمع القرويين من خلفه يصرخون ويتفرقون، على الرغم من محاولات مخلص لحثهم على البقاء. استدار الطائر ورآه يرفع يديه، لكنه لا يستطيع لوم الناس على فقدان عزيمتهم. كلهم يعرفون وحشية الحشاشين المخيفة. ومؤكد لم يروا قط طرفين متعارضين من الحشاشين، ولا يريدون رؤيتهما. والآن يرون حشاشين مارقين يصرخون ويجزون على أسنانهم بينما يلوحون بسيوفهم ويدهسون الأرض بأحذيتهم. رأوا حلفاء الطائر ينحنون باستعداد ويستنفرون أجسادهم للمواجهة. بحثوا عن ملاذ. أخذ بعضهم ساترًا خلف برج المراقبة، وتراجع بعضهم إلى أسفل التل. انطلقت صيحة عظيمة ثم دوى صليل السيوف عندما التقى الجمعان. لازم مالك الطائر كحارسه، وألقى الطائر نظره على الأسوار بينما تشتعل المعركة. لو أطلق الرماة السهام عليهم من المتاريس، سيخسرون المعركة بالتأكيد.

رأى عباس.

وراه عباس.

للحظةٍ نظر الزميلان إلى بعضهما. عباس على المتاريس، والطائر على الأرض، صلب وثابت كالصخر بينما تستعر المعركة من حوله. أعز أصدقاء الأمس صاروا ألد أعداء اليوم. ثم انكسرت اللحظة حين هتف عباس بالرماة لإطلاق النار. لاحظ الطائر التردد على وجوههم بينما يرفعون أقواسهم.

هتف الطائر برجاله: «لا أحد يجب أن يموت».

كان يعلم أن الوسيلة الوحيدة لاستمالة الرماة هي ضرب المثل. كان عباس مستعدًّا للتضحية بالحشاشين، بعكس الطائر. تمنى أن تكون قلوب الرماة صادقة. دعا أن يسيطر حلفاؤه على أنفسهم، وألا يمنحوا الرماة سببًا لإطلاق النار. رأى أحد رجاله يسقط صارخًا بعنقٍ مشقوق، وسرعان ما تحرك الحشاش الموالي لعباس لمهاجمة آخر.

قال الطائر لمالك مشيرًا في اتجاه المعركة: «هو. اقبض عليه يا مالك. لكن أرجوك، كن رحيمًا».

انضم مالك الشاب للمعركة ودفع الموالي لعباس للخلف ثم عرقله. وعندما سقط خصمه انقضَّ عليه. لم يقتله، وإنما ضربه بمقبض سيفه فأفقده الوعي.

نظر الطائر إلى الأسوار مجددًا، فرأى اثنين من الرماة يخفضان قوسيهما ويهزان رأسيهما. رأى عباس يُخرج خنجرًا -خنجر والده- ويهدد الرجال به. لكنهم هزوا رؤوسهم مجددًا وخفضوا أقواسهم ووضعوا أيديهم على مقابض سيوفهم. دار عباس وصرخ بالرماة على طول السور من خلفه بقتل المنشقين. لكنهم أيضًا خفضوا أقواسهم، فرقص قلب الطائر طربًا. أمر رجاله بالتقدم إلى البوابة. ما زالت المعركة دائرة، لكن الموالين لعباس بدؤوا يدركون ببطء ما يحدث على الأسوار.

ظلوا يتبادلون نظراتٍ مترددة في أثناء القتال. وأخذوا يتراجعون من المعركة تدريجيًّا ويلقون بسيوفهم ويرفعون أذرعهم مستسلمين. وهكذا انفتح الطريق لحلفاء الطائر بالتقدم إلى القلعة.

قاد رجاله إلى البوابات، وطرق على الباب بقبضته. اجتمع خلفه الحشاشون، وبدأ القرويون يعودون، فامتلأ التل بالناس. على الناحية الأخرى للقلعة كان هناك سكونٌ عجيب. فصمت الحشد المرافق للطائر، وزاد مستوى الترقب في الجو. فجأة أزيلت مزاليج الأبواب، وانفتحت بوابات القلعة العظيمة على مصراعيها. فتحها الحراس الذين ألقوا سيوفهم وأحنوا رؤوسهم احترامًا للطائر.

أومأ بتحية لهم وعبر البوابة تحت القوس الحجري ثم عبر الساحة نحو برج المعلم. جاء الناس من خلفه وقد انتشروا حتى ملؤوا الساحة. نزل الرماة عن المتاريس لينضموا إليهم. والتصقت وجوه العائلات والخدام بزجاج نوافذ الأبراج من الداخل لينظروا إلى الساحة. كلهم يريدون رؤية عودة الطائر ومواجهته لعباس.

صعد درج المنصة، ثم دخل القاعة. وقف عباس أمامه على السلم بوجه مظلم ومتجهم. اليأس والهزيمة اجتاحاه كالحمى.

قال الطائر: «انتهى الأمر يا عباس. مُرْ مواليك الباقين بالاستسلام».

صرخ عباس بازدراء: «محال».

في تلك اللحظة انفتحت أبواب البرج ودخل آخر مجموعة موالين من الغرف الجانبية إلى القاعة الرئيسية. دستة أو ما شابه من الحشاشين والخدم. بعضهم بدا خائفًا ومرعوبًا، بينما بدا آخرون شرسين وعازمين. لم تنتهِ المعركة بعد.

أمره الطائر: «مُرْ رجالك بالاستسلام». واستدار قليلًا ليشير إلى الساحة حيث الحشود مجتمعة، وأضاف: «لا يمكنك أن تفوز أبدًا».

قال عباس: «أنا أدافع عن القلعة حتى آخر رجل. أما كنت لتفعل المثل؟».

قال الطائر مزمجرًا: «كنت لأدافع عن الجماعة يا عباس. لكنك ضحيت بكل ما نمثله. ضحيت بزوجتي وابني على مذبح حقدك، ورفضك القاطع للحقيقة».

- تعني الأكاذيب التي قلتها عن أبي؟
- أليس هذا سبب وقوفنا هنا؟ أليس هذا هو نبع كراهيتك الذي ظل يفيض لسنوات ويسممنا جميعًا؟

بدأ عباس يرتجف، وابيضت مفاصله وهو يتشبث بحاجز الشرفة ويقول: «أبي غادر الجماعة. ما كان ليقتل نفسه أبدًا».

- بل قتل نفسه يا عباس. انتحر بالخنجر الذي أخفيته في ثيابك. قتل نفسه لأنه يملك من الشرف ما يفوق استيعابك، ولأنه رفض الشفقة. ما كان ليقبل على نفسه الشفقة التي سنشعر بها تجاهك بينما تتعفن في زنازين القلعة.

صرخ عباس: «أبدًا!». ثم أشار بإصبعٍ مرتجفة إلى الطائر وأضاف: «تزعم أنك تستطيع استعادة الجماعة دون خسارة أرواح الحشاشين. لنرَ إذًا. اقتلوه».

اندفع في القاعة نحوه، ثم...

دوى صوت انفجار حول القاعة، فأسكت الجميع. الحشود في الساحة، والحشاشون، والموالون لعباس. نظر الجميع بصدمة إلى الطائر الذي وقف رافعًا ذراعه كأنه يشير إلى عباس. كأنه يشتبك معه بنصله عن بُعد. لكن بدلًا من النصل، خرجت سحابة دخان من معصمه.

جاءت صرخة قصيرة مختنقة من عند السلم. شاهد الجميع عباس ينظر إلى صدره حيث ظهرت بقعة صغيرة من الدماء وبدأت تنتشر على ردائه تدريجيًّا. اتسعت عيناه من الصدمة، وتحرك فمه محاولًا التحدث بلا فائدة.

توقف الحشاشون الموالون لعباس ونظروا مشدوهين إلى الطائر الذي حرك ذراعه نحوهم ليروا الأداة التي في معصمه.

كانت لديه طلقة واحدة، واستخدمها، لكنهم لا يعرفون هذا. لم ير أحدهم سلاحًا كهذا من قبل. وقليلون فقط مَن يعرفون بوجوده. بمجرد أن رأى موالو عباس السلاح يتوجه نحوهم، أصابهم الجبن. ألقوا سيوفهم، مروا بجوار الطائر وخرجوا من البرج لينضموا إلى الحشد في الخارج رافعين أذرعهم باستسلام بينما يترنح عباس ويهوي على السلم حتى ارتطم بالأرض.

انحنى الطائر عليه بينما يلهث عباس بصعوبة. التوت ذراعه بزاوية غريبة، كأنها انكسرت في أثناء السقوط. تخضب رداؤه بالدماء من الأمام. لم يتبقَّ له سوى لحظات.

قال للطائر: «أتريدني أن أطلب منك مسامحتي؟». ابتسم وبدت عليه هيئة الموت فجأة وهو يضيف: «على قتل زوجتك وابنك؟».

- من فضلك يا عباس، لا تجعل آخر كلماتك شرًّا.

أطلق عباس صوتًا ساخرًا وقال: «ما زال يحاول التظاهر بالفضيلة». رفع رأسه قليلًا وأضاف: «لقد سلبتك زوجتك وابنك، لكن بعدما سلبتني أنت الكثير بأكاذيبك».

قال الطائر ببساطة: «ليست أكاذيب. ألم يساورك الشك طوال كل هذه السنوات؟».

جفل عباس وأغمض عينيه بألم. قال بعد صمت قصير: «هل تساءلت من قبل عن وجود حياة بعد الموت أيها الطائر؟ سأعرف خلال لحظات. لو أنها موجودة، فسأرى أبي. وسنقابلك -نحن الاثنين- عندما يحين أجلك. عندها سيتبدد أي شك».

سعل وقرقر وسالت الدماء من فمه. نظر الطائر إلى عينيه، ولم يرَ لمحة من الفتى اليتيم الذي عرفه سابقًا. ولا لمحة من صديقه القديم. لم يرَ سوى كائنٍ مختلٍّ سلبه الكثير.

بمجرد أن مات عباس، أدرك الطائر أنه لم يعد يكرهه أو يشفق عليه. لم يشعر بشيءٍ على الإطلاق سوى الراحة من أن عباس لم يعد موجودًا في هذه الدنيا.

***

بعد يومين ظهر فهد مع سبعة من رجاله على خيولهم، وقابله على بوابة القرية فرقة من الحشاشين بقيادة الطائر.

توقفوا على أطراف السوق، وواجههم صف من الرجال ذوي العباءات البيضاء. وقف بعضهم شابكين أذرعهم، وبعضهم واضعين أيديهم على أقواسهم أو مقابض سيوفهم.

قال فهد وقد بدا عليه الضجر: «الخبر صحيح إذًا. لقد استعاد العظيم الطائر ابن لا أحد السيطرة على مصياف».

أومأ الطائر بنعم.

أومأ فهد ببطء كأنه يستوعب هذه الحقيقة. أخيرًا قال: «لقد عقدت اتفاقًا مع نظيرك السابق. دفعت له بسخاء لكي أدخل مصياف».

قال الطائر برضا: «ولقد فعلت».

رد فهد بابتسامةٍ خفيفة: «نعم، لكن هناك هدفًا محددًا على ما أخشى». تململ على سرجه قليلًا وأضاف: «جئت للبحث عن قاتل ابني».

رد الطائر بالرضا نفسه: «ولقد فعلت».

اختفت الابتسامة الخفيفة عن وجه فهد وقال: «فهمت». مال للأمام وتحركت عيناه على صف الحشاشين وهو يسأل: «أيكم هو إذًا؟».

قال الطائر: «أليس لديك شاهد ليتعرف على قاتل ابنك؟ ألا يمكنه الإشارة إلى الفاعل بيننا؟».

زفر فهد بندمٍ وقال: «نعم، لكن والدة ابني أمرت بإخراج عينيه من محجريهما».

قال الطائر: «فهمت. على كلٍّ، لقد كان جبانًا. لا تحزن عليه، فهو لم يفعل شيئًا لحماية ابنك أو الثأر له بعد موته. بمجرد أن صار في مواجهة عجوزين، هرب مسرعًا».

تجهم وجه فهد.

- أنت؟

أومأ الطائر: «لقد مات ولدك كما عاش يا فهد، مستمتعًا بالألم».

- لقد ورث هذه الصفة عن والدته.

- فهمت.

- وهي تصرُّ على الثأر له.

- لا يوجد ما يقال إذًا. سأنتظر قدومك مع جيشك، إلا إذا كنت تنوي الهجوم الآن.

بدا فهد حذرًا وهو يقول: «هل تنوي أن تتركني أغادر؟ ألن يقتلني رماتك بسهامهم؟ مع علمك أنني سأعود بجيشٍ لتحطيمك؟».

ابتسم الطائر قائلًا: «لو قتلتك الآن سيكون عليَّ التعامل مع غضب زوجتك. بالإضافة إلى أنني أشعر بأنك ستغير رأيك بخصوص الهجوم على مصياف بمجرد عودتك إلى معسكرك».

- ولماذا قد أغير رأيي؟

ابتسم الطائر: «لو تقاتلنا لن يستسلم أحدنا يا فهد. سنخاطر بأكثر مما يستحقه الحزن. ستنهار جماعتي، ربما للأبد. وكذلك جماعتك».

بدا التفكير على فهد وقال: «أنا من يقرر ثمن الحزن».

- منذ زمنٍ قريب، فقدت ابني. وبسبب هذا كدت أفقد جماعتي. عندها أدركت أنه ثمنٌ باهظ، حتى بالنسبة لابني. لو قاتلتنا ستخاطر بارتكاب تلك الغلطة. أنا واثق أن قيم جماعتك تختلف كليًّا عن قيم جماعتي، لكنني واثقٌ أيضًا بأنهم أعزاء عليك ولن تسلمهم بسهولة.

أومأ فهد وقال: «أنت أكثر حكمة من سابقك أيها الطائر. كلامك منطقي، وسأفكر فيه في أثناء عودتي. كما سأحاول شرحه لزوجتي». جذب لجام حصانه واستدار وهو يقول: «حظًّا سعيدًا أيها الحشاش».

- بل أنت من تحتاج إلى الحظ على ما يبدو.

ابتسم قائد اللصوص ابتسامته الملتوية المعتادة ثم رحل. ضحك الطائر ونظر إلى قلعة الجبل.

لديه الكثير من العمل.

# 58

## 12 أغسطس 1257

فشلنا في مغادر مصياف قبل وصول المغول. ها قد وصلوا. لذلك سنغادر إلى القسطنطينية خلال ساعات. وأنا أكتب هذه الكلمات بينما يساعدنا الخدم في تحميل أمتعتنا على العربات. ولو ظن مافيو أن النظرات الحادة التي يلقيها نحوي ستكون كافية لكي أترك ريشتي وأساعده، فهو مخطئ إذًا. فأنا أعلم الآن أن كلماتي هذه ستكون ذات أهمية قصوى للحشاشين في المستقبل. لذلك لا بدَّ من كتابتها فورًا.

قيل لنا إنهم فرقة صغيرة أتت لبدء مناوشات. لكن القوة الرئيسية ليس بعيدة عن هنا. في الوقت الراهن، بدا أن فرقة المناوشات تريد اقتناص أي نصرٍ باسمها، وأخذت تطلق هجمات سريعة لكن شرسة. فيتسلقون أسوار القرية ويقاتلون على المتاريس قبل التراجع. لا أعرف سوى القليل عن الحرب-لحسن الحظ- لكن يبدو لي أن تلك الهجمات السريعة قد تكون وسيلة لتقييم قوتنا، أو للتأكد من وجودها أساسًا. أتساءل إن كان المعلم يندم على قراره بإضعاف القلعة بتسريح الحشاشين. منذ عامين فقط، ما كانت أي فرقة مناوشة قادرة على

الاقتراب عشر خطوات من القلعة دون أن تسقط ضحية لسهام الرماة أو أنصال المدافعين.

عندما استعاد الطائر قيادة الجماعة من عباس، كانت أولى مهماته هي الإرسال في طلب مذكراته. فاكتشافات المعلم ستكون القوة الدافعة لإعادة بناء الجماعة، وحجر الأساس لوقف الخراب في مصياف. ففي عهد عباس الفاسد، فقد الحشاشون المهارات والتدريبات المتوارثة. أصبحت أخوية الحشاشين اسمًا فقط. لذلك كانت أولى مهمات الطائر هي استعادة التدريب المفقود. عادت ساحة التدريب تضج بصليل السيوف وصراخ المدربين وسبابهم. ما كان ليجرؤ المغول على شن مناوشات وقتها.

لكن بعدما استعاد الطائر للجماعة اسمها وسمعتها، قرر إلغاء القاعدة في مصياف، وإزالة أعلام الحشاشين. رأى أنه على الحشاشين الخروج إلى العالم. يجب أن يعملوا بين الناس، وليس من فوقهم. وصل داريم ابن الطائر إلى مصياف ليجد بضعة حشاشين فقط، ومعظمهم كان مشغولًا في بناء مكتبة المعلم. وعند انتهائها، أرسله والده إلى القسطنطينية ليجدني أنا وأخي.

مما يأخذنا إلى بداية دخولنا هذه القصة التي بدأت منذ ثمانين عامًا.

قال مافيو: «لكنني أشعر أن الأمر لم ينته بعد».

كان واقفًا ينتظرني لكي نذهب لمقابلة المعلم في الساحة الرئيسية. للمرة الأخيرة على ما يبدو، سرنا في الحصن إلى الساحة، يقودنا مخلص، مرافق الطائر الوفي.

عندما وصلنا فكرت في الأحداث التي شهدت عليها هذه الساحة. هنا شاهد الطائر عباس أول مرة واقفًا في ظلام الليل ملتصقًا بوالده البائس. وهنا تعارك الاثنان وصارا عدوين. وهنا أذلَّ المعلم الطائر أمام الجماعة. وهنا ماتت ماريا، وعباس أيضًا.

لم ينسَ الطائر كل هذا. جمع معظم الحشاشين ليسمعوا ما لديه. من بينهم داريم حاملًا قوسه، ومالك الشاب أيضًا، ومخلص الذي وقف بجوار المعلم على المنصة خارج برجه. شعرت بالتوتر يجتاحني، وأخذت أسحب أنفاسًا متلاحقة لأحاول السيطرة على أعصابي، فصوت المعركة في الخلفية كان مقلقًا. يبدو أن المغول اختاروا هذه اللحظة لشن هجمةٍ أخرى على القلعة. ربما أدركوا أن دفاعاتها خُفضت مؤقتًا.

قال الطائر الواقف أمامنا: «يا رفيقي، أعلم أن وقتنا معًا كان قصيرًا. لكنني واثق أن هذه المخطوطات ستجيب عن أي أسئلةٍ ما زالت لديكما».

أخذت الأوراق وقلبتُها بين يدي بإعجاب. كانت تضم عصارة أفكار المعلم التي جمعها على مدى عقود من دراسة التفاحة.

خرج الكلام من فمي بصعوبة: «أيها الطائر، هذه الهدية.. لا تقدر بثمن. أشكرك».

بإشارةٍ من الطائر، تقدم مخلص بحقيبة صغير ناولها للمعلم.

سألني الطائر: «إلى أين ستذهب تاليًا؟».

- إلى القسطنطينية لبعض الوقت. يمكننا تأسيس جماعة هناك قبل العودة إلى فينيسيا.

ضحك قائلًا: «سيكون ابنك ماركو متشوقًا لسماع قصص أبيه المثيرة».

قلت مبتسمًا: «ما زال صغيرًا على هذه الحكايات. لكنني سأرويها له يومًا ما».

ناولني الحقيبة، وشعرت بعدة أشياء ثقيلة بداخلها.

- معروف أخير يا نيكولو. خذ هذه الأشياء معك. احرسها جيدًا. أو خبئها إن اضطررت.

رفعت حاجبي متسائلًا إن كان يمكنني فتح الحقيبة، فأومأ بالإيجاب. نظرت بداخلها، ثم مددت يدي وأمسكت حجرًا مسطحًا من ضمن خمسة، وكلها بها فجوة من المنتصف.

سألته: «أهي أدوات أثرية؟».

تساءلت إن كانت تلك هي الأدوات الأثرية التي وجدها في أثناء منفاه في آلموت.

رد المعلم: «نوعًا ما. إنها مفاتيح، وكلٌّ منها يحمل رسالة».

- رسالة إلى من؟

- ليتني أعرف.

جاء حشاشٌ مسرع إلى الساحة وتحدث إلى داريم الذي تقدم للأمام وقال: «أبي، لقد اقتحمت فرقة من المغول البوابات. إنهم يجتاحون القرية».

أومأ الطائر وقال: «نيكولو، مافيو. سيصطحبكما ابني عبر أشرس قتال. بمجرد أن تصلا إلى الوادي، اتبعا طريقه حتى تجدا قرية صغيرة. ستجدان الخيول والمؤن بانتظاركما هناك. مع السلامة، وكونا حذرين».

- وأنت أيضًا أيها المعلم. اعتنِ بنفسك.

ابتسم قائلًا: «سأحاول».

ذهب المعلم ليلقي أوامره إلى الحشاشين. تساءلتُ إن كنت سأراه مجددًا بينما أحمل حقيبة الأحجار المسطحة الغريبة وأمسك المخطوطات القيمة بإحكام. كل ما أذكره وقتها هو الجثث والصراخ وصليل السيوف بينما نسرع إلى مسكن. وهناك انتحيت جانبًا لأكتب هذه الكلمات بينما تشتعل المعركة في الخارج. لكن عليَّ الذهاب الآن. أدعو الرب أن ننجو بحياتنا.

أظننا سنفعل. أنا أثق بالحشاشين. أتمنى فقط أن أكون أهلًا لثقة الطائر. هذا ما سيظهره الزمن.

# 1 يناير 1258

أول يوم في العام الجديد. اختلطت مشاعري بينما أزيل الغبار عن مذكراتي وأبدأ صفحة جديدة. لا أعلم إن كان ما سأكتبه بداية فصلٍ جديد أم خاتمة للقصة التي سبقته. ربما تقرر أنت أيها القارئ.

سأكتب أول خبر بقلبٍ مثقل. لقد فقدنا المخطوطات التي سلمها لنا الطائر يوم مغادرتنا ووثق بنا لنحميها. أصبحتْ في أيدي العدو. سأظل أتعذب للأبد باللحظة التي رقدت فيها على الرمال أنزف وأنتحب بينما أرى غبار خيول المغول الذين هاجمونا. جذب أحدهم الحقيبة الجلدية التي كنت أحتفظ فيها بالمخطوطات، فقُطِع حزامها. تعرضنا لهجوم بعد يومين من مغادرة مصياف، على الرغم من التأكيد على سلامتنا.

بالكاد نجونا أنا ومافيو. كان عزاؤنا الوحيد بعد ضياع المعرفة الموجودة في المخطوطات، هو أن الوقت الذي قضيناه مع المعلم قد علَّمنا ضرورة البحث عن المعرفة وتفسيرها بأنفسنا. لهذا قررنا أنه علينا التوجه شرقًا في أقرب وقت لنستعيد المعرفة المفقودة، وسيترتب على هذا ضياع أقرب فرصة للعودة إلى البندقية ورؤية ابني ماركو. لكن أولًا علينا تولي الأمور في القسطنطينية، فلدينا الكثير لنفعله. أمامنا عمل يستغرق عامين على الأقل، وقد تطول المدة دون المخطوطات التي كانت سترشدنا بمعرفتها. صحيح أننا فقدنا المخطوطات، لكننا أصبحنا حشاشين بالعقل والقلب، وسنحسن استخدام خبرتنا ومعرفتنا

المكتسبة حديثًا. وهكذا اخترنا بالفعل موقعًا ليكون مركزًا تجاريًّا لنا في شمال غرب آيا صوفيا، حيث نهدف لتوفير بضاعة عالية الجودة (ظاهريًّا بالطبع!). في تلك الأثناء، سننشر عقيدة الحشاشين كما تعهدنا.

في الوقت نفسه الذي بدأنا فيه تأسيس الجماعة الجديدة، بدأنا بإخفاء الأحجار الخمسة التي أعطانا إياها الطائر. تلك المفاتيح. قال أن نحرسها جيدًا أو نخبئها. لكن بعد حادثة هجوم المغول، قررنا أنه يجب إخفاء المفاتيح، فبدأنا بإخفائها في أنحاء القسطنطينية. سوف نخفي آخرها اليوم، لذلك عندما تقرأ هذه المذكرات، ستكون المفاتيح الخمسة مخفية بأمان بعيدًا عن يد فرسان الهيكل، من أجل أن يجدها حشاش معين في المستقبل.

أيًّا من يكون.




telegram @
yasmeenbook

# خاتمة

سمع الحشاش جلبة على سطح السفينة فوقه. إنه صوت الخطوات المألوف عند الاقتراب من اليابسة. فطاقم السفينة يسرعون من مواقعهم إلى المقدمة، فيجذبون الحبال، ويحجبون الشمس عن أعينهم لينظروا بعيدًا إلى الموانئ المضيئة إلى حيث يبحرون، ويفكرون في المغامرات التي تنتظرهم.

هذا الحشاش أيضًا تنتظره مغامرات. لكنها بالطبع تختلف تمامًا عن المغامرات التي يتخيلها الطاقم، والتي تتكون أساسًا من زيارة الحانات ومرافقة العاهرات. كاد الحشاش يحسدهم على بساطة اهتماماتهم. فمهماته ستكون أكثر تعقيدًا.

أغلق مذكرات نيكولو وأزاح الكتاب على المكتب ثم مرر أصابعه على الغلاف القديم. أخذ يفكر فيما عرفه للتو، والذي لن تظهر أهميته إلا بعد وقتٍ طويل. سحب نفسًا عميقًا ووقف وارتدى عباءته، ثم أحكم آلية نصله على معصمه ورفع قلنسوته على رأسه. بعد ذلك فتح باب حجرته ليصعد إلى سطح السفينة ويحجب عينيه مثلهم لينظر عبر الأفق إلى الميناء. اخترقت السفينة البحر اللامع في اتجاه الميناء، واجتمع فيه الناس لاستقبالهم.

لقد وصل إتزيو إلى المدينة العظيمة. لقد وصل إلى القسطنطينية.

# شخصيات الرواية

نيوكولو بولو، الراوي

مافيو بولو

## الحشاشون:

الطائر ابن لا أحد

ماريا، زوجته (كنيتها ثورب)

داريم وسيف، ابناهما

المعلم، قائد الحشاشين

فهيم، السيف

عمر ابن لا أحد، والد الطائر

عباس سفيان

أحمد سفيان، والد عباس

مالك، السيف

تعظيم، ابن مالك، ومعروف أيضًا باسم مالك

قدير، شقيق مالك

رؤوف

جبل

لبيب

سوامي

فاريم، والد سوامي

## قرويو مصياف:

مخلص، وزوجته علياء، وابنته ندى

## أطراف الحملات الصليبية:

ريتشارد الأول ملك إنجلترا، الشهير بقلب الأسد

صلاح الدين، سلطان العرب

شهاب الدين، خاله

## أهداف الطائر التسعة:

تامر، تاجر السوق السوداء

أبو النقود، شاهبندر التجار في دمشق

جارنييه دي نابلس، قائد فرسان الإسبتارية

طلال، تاجر عبيد

مجد الدين، حاكم بيت المقدس

ويليام دي مونفرا، والي عكا

سيبراند، قائد فرسان التيوتون

جبير الحكيم، رئيس باحثي دمشق

روبرت دي سابل، زعيم فرسان الهيكل

## شخصيات قبرص:

telegram @yasmeenbook

عثمان، قائد قلعة ليماسول

فريدريك الأحمر، فارس هيكل ذو رتبة في ليماسول

أرماند بوشارت، خليفة روبرت دي سابل

ماركوس، عضو في المقاومة

بارناباس، عضو في المقاومة

بارناباس، محتال مزيف

جوناس، تاجر

مولوخ، الملقب بالثور

شاليم وشاهار، ابنا مولوخ

## اللصوص:

فهد

بايهاس

ذو الشعر الطويل




telegram @
yasmeenbook